طَائِرُ الخَرَابْ

طَائِرُ الخَرَابْ

رواية

حبيب عبدالرب سروري

مؤسّسة العفيف الثقافيّة

لِنجيب يابلي...

العنوان : طائر الخراب (رواية)
المؤلف : حبيب عبدالرب سروري
الناشر:مؤسسة العفيف الثقافية.
عدد الصفحات : 247
الطبعة :الأولى 2005م
رقم الإيداع بدار الكتب420/ 2005
لوحة الغلاف للفنان /علي الذرحاني.

صنعاء - الجمهورية اليمنية
هـــــاتـــف : 240148 / 260334
فاكـــس: 505201 - ص ب 12484
alafif@yemen.net.ye
www.alafif.org

ليس ثمّة عشقٌ لا يرتوي من الدمع،
ليس ثمّة عشقٌ سعيد...

اراجون

يا ذلك العصفور، يا ملك الغيوم والأعالي السامقة،
يا من تعمرُ دارَك قرب الشمس،
اصممْ أذنيك لِضجيج طائرِ الخراب
الذي تبحثُ عيناهُ عن الظلمات، وتلعنُ النهار!..

اوجوست لاكوساد، 1870

الجزء الأول

ملكةُ العصافير

من أنتِ إذن، أيتّها المعشوقة:
المِرآةُ التي أرى فيها نفسي، أم الخرابُ الذي أتوهُ فيه؟
جوستاف تيبون

إلهام تَسْبحُ قُربي بأناقةٍ ومِهَنِيَّة! لا أحد حولنا، في هذا الضحى الربيعيِّ الدافئ، سوى أسراب النورس والفراشات المُلوَّنة... سلسلةٌ من بحيراتٍ وأحواض بَحْريَّةٍ لِتبخير الماء ترتَصُّ مُتاخمةً للمحيط، تبدو مِثلَ مُربعاتِ شطرنج زجاجيّةٍ لازورديّة. عليها مئاتٌ من طيور البَجَع والنحّام (الفلامنجورس) تضحكُ، تتدافعُ، تتزاحمُ جذلى في البَعيد... للضوءِ لونٌ لؤلؤيٌّ ناصع. أشجار صنوبر، نخيل، كرز، توت، حقول كروم... تمشطُ السهوبَ والأكمات المواجهة...

اخترتُ لِيوم توحُّدِنا الأوَّل هذا الديكورَ الفردوسيَّ المترامي تحت أقدامَ فِيلّا أرستقراطية قابعةٍ على جرفٍ ناءٍ شاهق، في أسفل شواطئ الأطلسي الفرنسية. استأجرْتُها لهذا اليوم الخالد، بعد تفتيشٍ وتمحيصٍ دقيقَين وطويلَين: وحدها تُلبِّي كلَّ ما أصبو إليه من تفاصيلَ ونزوات مقدَّسةٍ صغيرة!

إلهام، بمايو السباحة البنفسجي الذي تتخلَّلهُ تشكيلاتٌ موجيَّةٌ زرقاء ووردِيَّةٌ متداخلة، تغطسُ، تعومُ، تتقدَّمُ بعيداً، ثمَّ تعودُ القهقرى على الظهرِ بليونةٍ وإيقاع. تسبَحُ بسرعةٍ لا أستطيع مضاهاة نصفِها فقط أنا ابن المدينة البحريّة جداً: عَدَن! أستغلُّ غوصَها المتواتر لأختلسَ نظراتٍ تلصُّصية لِسلاسة هذا الجسد الأبيض الفاتح ذي الظلال النحاسيّة الخفيفة الذي نسجَتْهُ جبال ثُلا [1] الساحرة: ممشوقاً، رشيقاً، دقيقاً ناعماً، تتوسَّطهُ خاصرةٌ

سُنْدُسِيَّةٌ يمكن إحاطتُها بنصف يد!...

لإلهام مع البحر والعوم علاقةٌ عضويَّةٌ أحشائيّةٌ حميمة. كأنها لم تولد في 14 أغسطس 1965 وتحيى سنوات طفولتِها في جبال ثُلا السماوية، ولم تُقَضِّ السنوات الأخيرة من حياتها في سجنٍ جَبَلِيٍّ شاهق اسمه صنعاء قبل «هُروبِها» إلى فرنسا في 1985 وهي في العشرين من العُمر!

كان هذا اليوم الربيعي الرائق: 22 مايو 1990! [2] مصادفةٌ ثانوية، عَرَضية جدّاً، لا تُسمنُ ولا تغني من جوع من وجهةِ نظرِ رمل الشاطئ الناعم الذي سنسترخي عليه بعد قليل. من وجهةِ نظرِ السُّلَّم الحجريِّ المنحوت على الجرف في يسار الشاطئ والذي يؤدي عموديّاً إلى الفِيلَّا. من وجهة نظر أشجار الورد والأكاسيا والزنبق والأقحوان المتناثرة في حديقة الفِيلَّا. من وجهةِ نظرِ السنجاب المختفي في جذع السنديان، والشحرورة والسنونو المتَشبِّثَيْن بغُصنَين متقابلين في عليائها. من وجهةِ نظرِ نوافذ الفِيلَّا التي فتحناها على مصراعيها لتغتسل بضوءِ الشمس وبضَوع الحديقة. من وجهةِ نظرِ الأمواج المُنهَكةِ التي قطعتْ آلافَ الكيلومترات قادمةً من سواحل أمريكا...

كنتُ قد تعرَّفتُ على إلهام صُدفةً في يوم الجمعة، 20 أكتوبر 1989، وأنا أتوجَّهُ لإلقاء محاضرةٍ علميّة في جامعة نَانْتْ في شمال غرب فرنسا، بدعوةٍ من زميلِ دراسة قديم! ذهبتُ وزميلي عقب المحاضرة للتسكُّع قليلاً في الأحياء المجاورة للجامعة وسط ريح رذاذيٍّ وأوراق شجرٍ متساقطة. جمالُ الأشجار يصلُ ذروتَهُ في هذه الأيام الخريفية التي تتداخلُ وتتفاعلُ فيها الألوانُ الذهبيَّةُ والحمراء بكلِّ تفاوتاتِ درجاتها وتنوعاتِ مقاماتِها...

عاشقان متعانقان بشكلٍ عاصف على الرصيف، تحت قوسِ قزح بالغ الوضوح! لا أتذكَّرُ متى رأيت قوسَ قزح بهذا الاكتمالِ والصفاء آخر مرة، لكنّي أتذكَّرُ أني رأيت عاشقينِ لا يقلّانِ توحُّداً قبل ثلاثة دقائق فقط، ونحن خارجون من قاعة المحاضرة.

بدأْنا باستجرار ذكريات دراستنا المشتركة في سنة الماجستير في «جوسيوه» (جامعة باريس 6) قبل أن يلفظ اِسمَ إلهام! ثمَّ واصلنا الفضفضةَ في رصيفٍ مقهى نهريٍّ، بين فواصل متباعدة من رشفات بيرةٍ عمبريَّةِ اللون تفتحُ النفس. عرفتُ أخبار زميلي منذ افتراقنا بعد الماجستير، في بداية الثمانينات، وحتى مُرورِهِ الدكتوراه وتحَوُّلِهِ إلى أستاذٍ مساعدٍ في جامعة نَانْت. وعرف أخباري المماثلة وتحضيري الحالي، بوَلَهٍ صوفيٍّ وسرعةٍ جنونيَّة، لِمرور الدكتوراه الثانية: أطروحة «التأهيل لقيادة الأبحاث» التي تفتحُ الطريق للتحوُّلِ إلى بروفيسور جامعي...

بعد ساعةٍ من تبادلِ الأخبار المِهَنِيَّة والترنُّح بين أحلام ومشاريع هلامية قادمة، قال لي إن لديهم في الجامعة طالبة يمنيّة في «ميتريز» (بكالوريوس) الرياضيَّات التطبيقية، ذكيّة مثابرة، ذات شخصيّةٍ قويّةٍ متميّزة. «شديدة الجمال أيضاً!...»، أضاف بنبراتٍ سريعةٍ خافتةٍ مُلتوية. جاءت من صنعاء قبل خمس سنين لِدورةٍ لغويَّةٍ قصيرة، ثمَّ قرَّرتْ أن لا تعود بعدها وأن تبدأ الدراسة الجامعية... حصلَتْ مؤخَّراً على عملٍ مناسب في مكتبة الكُليَّة بعد أن اضطرَّتْ، لكسب قوتها طوال السنين الماضية، أداءَ أعمالٍ غير ممتعة: المراقبة في مطاعم المدارس الابتدائية، التنظيف في المسبح البلديّ، رعاية المُسِنّين...

أردتُ على النَو التعرُّفَ عليها وتحيَّتَها قبل مغادرة نَانْت والعودة أدراجي لباريس! ليس فقط لأني، عقب وصولي فرنسا، اكتويتُ مثلها في أشغال عبثيّةٍ قاتلة: بيع الزهور في الشوارع

والمطاعم ومحطّات القطارات، الطَّلاء في ورشات البناء... بل لأني لمحتُ إعجاباً عميقاً، مَكبوتاً بصعوبة، في بريق عينيي صديقي القديم وهو يتحدَّث عنها بإسهاب غير عادي، هو الذي يتنقَّلُ كثيراً وسريعاً في أحاديثه، كأنَّهُ يتقفَّزُ ب«الريموت كونترول» بين قنوات التلفزيون!

اتَّصل صديقي تلفونيّاً بمكتبة الكُلِيّة ليدعو إلهام للالتحاق بنا، إذا أرادتْ وكان لديها بعضٌ من الوقت، كي أُسلِّمَ عليها قبل عودتي لباريس! بانتظار مجيئها أصرَّ بأن يُعَرِّفني أوَّلاً بنبيذٍ مُعتَّقٍ محدود الإنتاج غير متواجدٍ في المحلّات التجارية، يتمُّ شراؤه مباشرةً من قصر حقل كُروم، اِسمُهُ: شاتو دو كايرو، قريب من مدينة بوردو. «نَبيذُ الصالحين»، كما أطلقَ عليه، ليُسيلَ لُعابي، صديقيَ الفرنسي جيِّدُ الإلمام بالثقافة العربية وكثيرُ الإعجاب بفلسفة الصوفية!

لم تمر أقلُّ من ساعة إلا وإلهام أمامي!

ارتبكتُ أوَّلاً وأنا أواجهُ أمامي مشكلين كبيرين اثنين: 1) الرشاقةَ المثلى لِجسدِ إلهام الباسق! 2) نقاءَ وجمالَ وجهِها الأبيض الفاتح الرقيقِ الباسم!

دعاها للجلوس معنا إذا كان لديها بعضٌ من الوقت. جلسَتْ على التوِّ بكياسة، وبنوع غريزيٍّ من الثقة والاعتزاز بالنفس. عَرَّفها بِاسمي: نشوان. قالَت إنها تحبُّ هذا الاِسم! «اِسمٌ موسيقيٌّ رشيق، يُشِعُّ بهجةً وحياةً!»، حسب تعبيرها. لم أر اِسمي من تلك الزاوية قبل ذلك اليوم وإن كنتُ أحبُّ كثيراً في العربيّة إيقاعَ كلمةِ: «نشوة» ورفيقةِ دربِها الحميمة: «نزوة». أضافتْ أن كلَّ الآباء والأمهات، ممن تعرِفُهم أو سمعَتْ عنهم، الذين أعطوا لأبنائهم هذا الاسم هم غالباً مثقفون، منفتحون، مدَنيُّون،

لطيفون!...

حدَّثَتْني أيضاً بكلمتين مُركَّزَتين دقيقتين عن العالم اليمني المعتزليِّ الشهير نشوان الحِمْيَري الذي كان طليعيّاً متنوِّراً في عصره. عارَضَ مثلاً أن يكونَ الانتماءُ الهاشميُّ أو العِرْقِيُّ شرطاً مُسبقاً لمقعدِ الإمامة. ورأى أن تكون للأفضل، أسوداً أم أبيضاً، فقيراً أو غنيّاً، بغضِّ النظر عن حَسَبِه ونسبِهِ وجنسِه، لأن «ذلك هو العدل!»، كما قال بتعبيرٍ عميقٍ رائع!... أوغَلَ في انتقاد المُقلِّدين الذين لا يستخدمون العقلَ منهجاً. فَضَّلَ أيضاً أن يكون انتماءُ الإنسان لأيِّ دِينٍ نابعاً عن قناعةٍ عقليَّةٍ وليس بسببِ ولادتهِ في بيئةٍ أدَّتْ أتوماتيكياً إلى ذلك. أي أن يكون انتماءً «ثقافيّاً» وليس «عِرْقيّاً»، كما نقولُ اليوم... وما إلى ذلك من أفكارٍ متنوِّرةٍ جداً لاسيما في ذلك الزمان!

شعرتُ بالغباء حقّاً، لم أكن أعرف شيئاً عن كلِّ ذلك! كنتُ أجهلُ تماماً ذاكرةَ اِسمي وجذورَها التاريخية. سُرِرْتُ أنها تُثيرُ لدى هذه الحسناء الصغيرة انطباعاتٍ مضيئةً جذَّابة... ابتسمتُ ابتسامةَ عاجزٍ عن الرَّد. لم أقل لها أيضاً، من باب المجاملةِ على الأقل، إني أحبُّ اِسمَ إلهام، رغم أني أعشقُهُ عشقاً!...

اقترح لها صديقي، من باب الدعابة كما ظنَّ، أن تشاركنا كأساً من النبيذ! وافقَتْ، عكْس ما تصوَّرَ وعكْس ما توقَّعتُ تماماً! دون أن تنظر نحوي بتردُّدٍ أو بريبةٍ وتوجُّس. لم تتوخَ مني - ابنُ بلدِها! - عبرَ نظرةِ نفاقٍ مُشفَّرةٍ تفرضُها ثقافةُ مجتمعاتنا الذكوريّة المتخلفة، «السَّماحَ» لها أو تحفيزها على ذلك. لم تنتظر أن أُكرِّرَ مقترحَ صديقي بدعوتِها لمشاركتنا النبيذ، أو أن أبارك دعوتَهُ بنظرةٍ موارِبة. لم تكترث حتى بقراءةِ نظرات وجهي وتفسيرها... لم أتوقَّعْ، والحقُّ يقال، سلوكاً جريئاً حرّاً واثقاً بالنفس كهذا من أكثر بنات عَدَن مدَنِيّة، فما بالكم

بفتاةٍ ترعرعتْ في جبال صنعاء الكاسرة التي لم تعرف يوماً المدنيَّةَ والتعدُّدِيَّةَ والحريَّةَ والانفتاحَ على العالم!

ثمَّ لم أتوقَّف من الدهشة بعد ذلك! وجدتُ لَذَّةً لا حدَّ لها وأنا أسمعُ انسيابَ صوتِها الموسيقيِّ الرقراقِ العذب وهي تتحدَّثُ معنا الفرنسية بطلاقة، أو وهي تخاطبني بين الفينةِ والفينةِ بلهجتِها الصنعانية الهوائية الغنِجة. عبرَتْ دردشتُنا مواضيعَ كثيرة: سقوط سور برلين وتوحيد ألمانيا المُزمعُ إنهاؤه بعد عام بالضبط؛ فيلم «رجلُ المَطَر» لدوستين هوفمان وتوم كروز الذي كان يُعرضُ حينها؛ مَطَر شمال فرنسا الذي لا يتوقّف والذي تحوَّلَ حُبُّنا له، إلهام وأنا، إلى عداء؛ هفواتنا اللغويَّة عند بدء تعلُّم الفرنسية؛ مشاكل الشهور الأولى في الدراسة والمطبَّات المضحكة التي وقعنا بها عند وصولنا...

طُفنا تلك المواضيع على أنغام رحلةِ أغانٍ very british بدأَتْ بفرقةِ «البِيْتلْز»: «الغوَّاصة الصفراء» وما بعد تفرقع «البِيْتلْز»، جون لينون: «تَخَيَّلْ!» وانتهَتْ بـ: ستينج «أجنبيّ في نيويورك»، والرائعة جدّاً: اوريثميكس «البحار السبعة»... لاحظْتُ قوّةَ شخصيَّةِ إلهام، استحواذَها المنطقيّ، البديهيّ، الفِطْريّ لِموقع مركز النقاش، صفاءَ ذهنها، تعليقاتِها الفكاهية المكثَّفة، قهقهتَها الحلوة، غزارةَ معارفِها، توقَها الجليَّ للتعلُّم، للتفكير الحرّ، لِلحياة الحرّة!...

كنتُ مندهشاً كأنني أمام فتاةٍ خارجةٍ على التوّ من صفحاتِ رواية، هابطةٍ من الخيال. لعلَّ كلمةَ الدهشة لا تُعبِّرُ بدقَّة عمّا كنتُ أحسُّ به! كنتُ أشعر بانزياح ما، بأحاسيس غير أليفة! كنتُ مُركِّزاً جدّاً في الإصغاء والتحَديق والمراقبة. شديدَ الاهتمام باختيار أحلى الكلمات، أكثرها تعبيرية... شديدَ الرغبةِ بالجذبَ والإمتاع وإن قادني ذلك أحياناً إلى التلعْثُم عندما

تدافعتْ أكثر من جملةٍ للخروج في نفس الوقت... شعرتُ بِطلاقةٍ غير اعتيادية، كما لو كنتُ أخرجُ من معاقِلي وجُدْراني، من ترسيماتي التقليدية، من أُطُري الثابتة...

بعد ما يزيد على السَاعة تقريباً غادرَتْنا إلهامُ عائدةً إلى غرفتها الجامعية. ساعةٌ تركَتْ مَيْسَماً في الأحشاء، شُرْخاً في الضلع!

مرَّتِ الأشياءُ بعد ذلك كنهرٍ طويلٍ هادئ. كقطعةِ أُورغُن، Orgue، تُعزَفُ في كاتدرائية... لم يَمُرَّ أسبوعٌ واحدٌ إلا وأنا أتَّصِلُ بإلهام شارحاً لها أني أودُّ القيام بزيارةٍ سياحية بحتة لِنانْت، وأني أهفو لرؤيتها، إن أمكن، لتعريفي بمعالم المدينة. وافقَتْ! التَقَيْنا أمام باب محطة القطار. كنتُ مثلَ مُمَغْنطٍ تماماً، قبل الرحلة، أثناءها، بعدها...

كانت إلهامُ أمام باب المحطّةِ أكثر تهيُّئاً وإشراقاً من المرة السابقة. أعدَّتْ نفسها للقائي بشكلٍ جعلني أتفجَّرُ أملاً وسعادة. تشهدُ على ذلك: لمساتُ الماكياج المحيطة بعينيها الواسعتين ذات البريق الكُحُلِيِّ القاتل؛ الضفائرُ الحلزونية لِشعرِها الكستنائي الطليقِ المنتهيةُ بخصائل دائريَّة حُرَّة؛ هذا الفستان الحريريّ الخفيف ذو اللونِ الزنبقيِّ الفاتح، الذي يُجلي بعضَ عبقريَّةِ جسدِها وشدَّةِ رشاقته؛ الوردُ الخفيف على شفتيها؛ شال الكشمير الأحمر الذي يزيدها عذوبةً ورومانسية؛ هذا العطر الراقي، شانيل 5، التي تحمل مسحةً مُتقنةَ التوزيع منه، والذي لن يفارقها أريجُهُ يوماً واحداً، لحظةً واحدة، وكأنَّهُ جزءٌ لا يتجزأ من تكوينها البيولوجي...

طُفْنا شوارعَ المدينة... عرَّفَتْني ببعض معالمِها الهامّة. تبادلنا ونحن «نُخَيِّطُ» شوارعَها انطباعاتنا ويوميّاتنا بحماس وإصغاء واهتمام. كانت أحاديثنا منفتحةً شيِّقةً لذيذة. بَدَتْ على

كلينا السعادة بالمشي طويلا جنباً إلى جنب، بتفريغ شحنات كبيرة من الانطباعات والذكريات المكتومة، بإملاء النظر بتفاصيل الآخر والتدقيق في عاداتهِ الصغيرة... كنتُ أشعرُ بلذَّةٍ ما بعدها لَذَّة في تَنَفُّسِها، في اختلاسِ لحظاتٍ للتحديقِ بها...

توجَّهْنا خارج نَانْتْ باتجاه شواطئ الأطلسي الرقيقة الساحرة. دعوتُها، ونحن في الطريق، للغداء في مطعم على الساحل. أعتذرَتْ لأنها تكتفي في الظهيرة بأكل تفاحة فقط!... ما العمل؟ للرشاقةِ القصوى ضريبةٌ قصوى!... تبخَّرتْ أحلامي بدعوتها للغداء في أفخرِ المطاعم البحريَّة الرومانسية. ثمَّ نسيتُ مِعْدَتي تماماً أنا الذي يمكن أن أنسى، في أي مكان، أية قطعة من جسدي إلا المعدة!

وصلنا شواطئ لَابُوْلْ المجاورة، أجملَ شواطئ أوروبا كما يُقالُ أحياناً، وأكثرَها تنظيماً وتجهيزاً وجاذبية. سِرْنا على رملٍ ناعم أشهب، في فضاءٍ رماديٍّ يُلبِسُهُ الخريفُ وشاحاً مثيراً للرهبةِ والانْطواء والتأمل. تجوَّلنا على حافة البحر طويلاً على إيقاع أشيش لذيذِ الرتابة. ثمَّ استرحنا في مقهى مقابل للشاطئ، على صورةٍ خلفِيَّةٍ لثلاثة نساء ثخينات، طاعنات في السن، يَغْطُسْنَ دون اكتراث في بحرٍ لا تتجاوز درجة حرارته العشر درجات تقريباً! على شمالهن ويمينِهن وأمامهن أفواجٌ من «عوَّاماتِ التثبيت الشراعيّة»، وابلٌ من زوارق النزهة التي تمخرُ متقدِّمةً نحو الأفق، وأسرابٌ من عُشَّاقِ رياضة «الألواحِ الشراعيّة» يترنَّحُ بعضُهم على إيقاع الأمواج المباغتة...

أخرجتُ من جيبي أوراق مواعيدِ القطارات والباصات. تحقَّقتُ فيها مليّاً. قلتُ:

_ يلزمُنا الشروعُ بالعودة بعد قليل. يَظلُّ لدينا بعضُ الوقتِ للبقاء والتجوُّلِ هنا. رُبْعُ ساعةٍ بالتحديد!...

ردَّتْ بلهجتِها الصنعانيّة الغنائية، وبنظرةٍ رقيقةٍ لامعةٍ لامَسَتْني بالكاد:

_ نِعْمَة!

أحببتُ دوماً تلقائيتَها الرقيقة، تعبيريَّتَها المركَّزة. أو ما أسميتُهُ دوماً: «أحرُفَها المُكَثَّفة». كنتُ أشعرُ غالباً بالتقزُّم والحذلقة عندما أشاهدُ كلماتها الوجيزةَ الجلموديّة الغنِجة تَسقُطُ عموديّاً وسط عباراتي الفجَّةِ الممطوطةِ الفضفاضة، تُفرِكشُها وتُهشِّمُها وتكتسحُها بضربةٍ واحدة...

ثمَّ عُدْنا نحو الحيِّ الجامعي في نَانْت ونحن في نشوةٍ عارمة. ودَّعْتُها في المساء قرب بابِ عمارتِها الجامعيَّة، ناحتاً ومخلِّداً في «سكانير» ذاكرتي «الصورةَ الخرائطيةَ الرقميَّةَ» لِمنظرِها العام، من أقصى الرأس حتى أخمص القدمين، وهي تتركُ لي ابتسامةً سعيدةً رقيقة. كان محياها مبتهجاً بهذا اللقاء! أخذتُ القطار بعدها لِباريس طروباً مُدَنْدِناً، طائراً على أجنحة ملائكة، مشحوناً بالآمال والسعادة...

كرَّرتُ الزيارة كلَّ 3 أسابع، ثم كلَّ أسبوعين، كلَّ أسبوع... اختلفَتْ بعضُ تفاصيلِ لقاءاتنا كلَّ مرة: تجَدَّدَتْ أحيانا المعالم التي اكتشفناها، الطرق التي عبرناها، الأماكن التي زرناها، لكن ساعات لقاءاتنا ظلَّتْ كالعادة مُفعَمةً بالثرثرة الممتعة، بالإصغاء المتبادل، برصدِ كلِّ تفاصيل حياة وذوق الآخر، بمفاجأتهِ بالتذكير بها في زياراتٍ لاحقة، أكثر من مرَّةٍ أحياناً، في هذا الحديث أو ذاك...

لم يكنْ هدفي بالطبع الوثوب على إلهام لافتراسها أو التهامها كما يقولون، أو لإطفاء نزوةٍ عابرة، وإن كنتُ أموتُ رغبةً باحتضانها، بالتوحُّدِ بها. كنت أعرف، لِسببٍ أجهله أنني

أمام إنسانةٍ لها إيقاعٌ خاصٌ جدّاً. حسَّاسةٌ جدّاً، زجاجيةٌ جدّاً، يمكن أن تتهشَّمَ أو تنفجرَ لِمُجرَّد أي خطأ بسيط. لستُ أدري لماذا كان لديَّ شعورٌ جارفٌ بأنها تُخفي جُرْحاً هائلاً يلزم عدم إنكائه. كانت تحتاج أوّلاً وقبل كل شيء للحنان، لكثير من الحنان، لِكَوْنٍ من الحنان، لنظراتِ حنانٍ تحرقُ الأخضر واليابس... كنتُ مثلَ واثقٍ لِسبب مجهول أن بينها وبين الحُزنِ علاقةً قدَريّةً أزليَّة. ثمّة ينبوعٌ خفيٌّ من الحُزنِ يسيلُ في قرارة نفسها. جذوةٌ دائمة من الحُزن. (لعلَّ خطيئتي الكبرى، فشلَ حياتي الوحيد، الذريع، المُطْلق، هو أني لم أنجحْ في اكتشافِها سريعاً، أو استقصائها والوصولِ إليها وإخمادِها وإطفائها قبل فوات الأوان...)

لم أغازلها بشكلٍ مكشوفٍ أيضاً حتى لا أُربك إيقاع هذه العلاقة التي تنمو ببطءٍ هائل، بقوَّةٍ هائلة، ولذَّةٍ هائلةٍ أيضاً. كنتُ أشعر في الحقيقة أن كلَّ لقاءٍ لنا يفتح أبواب ونوافذ جديدة، مزيداً من الانسجام والتقارب. كان بريقُ عينيها الرطبتين وهي تُحدِّثني، وبريقُ عينيي المتوهِّجتين وأنا أراها، يكفيان لرؤية كم كنّا نتأجَّجُ على شفيرِ العشق، وكم خُلِقْنا لنحيا شيئاً ما أكبرَ من العشق، أقوى من العشق، أعظمَ من العشق...

كنّا نقترب من بعضنا جسدِيّاً مليمتراً واحداً في كلِّ لقاء: كانت أصابعُ أيدينا تلتقي بشكلٍ خاطف عند عبورنا طرقَ السيّاراتِ السريعة، تتلامسُ لُحَيْظاتٍ مُرتَجِفةً قليلةً كافيةً لِمرور رُزمةٍ من الميجاواطات المُباركة، ثمَّ تفترقُ بعد عبور تلك الطرق مباشرة! يزدادُ طولُ التلامس ثانيةً في كل لقاء، تزدادُ شدَّتُهُ الكهرومغناطيسيّة والتحامُهُ الجسديّ نانومتراً واحداً [3] كلَّ مرة. أعرفُ أننا بهذه السرعة سنحتاج إلى ستة آلاف سنة قبل أن نتوحَّد، قبل أن نبلغ أعلى مقامات العاشقين... كنتُ أكتفي في كلِّ رحلةٍ أقومُ بها لِنَانْت بِضمان كسب ذلك النانومتر، وتلك

الثانية الإضافية. لكني كنتُ أشعر بالشقاء إذا مرَّ لقاءٌ دون ذلكما الإنجازين، وأحرص على تعويض حقوقي المنهوبة كاملةً شاملة في اللقاء القادم...

كانت إلهام تصغي لي بوَلع وسرور واهتمام شديد عندما كنت أحكي لها قصص حياتي في فرنسا. لاسيّما وأني كنتُ أحكيها معجونةً بالنكتة والسخرية. أتحوَّلُ طفلاً يهذي أمامها أحياناً. أُسكِرُها ضحكاً في كثيرٍ من الوقت... كانت تجرفني كثيراً أيضاً للحديث عن طفولتي في اليمن دون توقُّف، وكأنَّها تبحثُ عن طفولةٍ بديلةٍ لِطفولتِها. تجدُ لذَّةً كبيرة في ذلك. لعلها كانت تبحثُ عن شيءٍ ما عندما كانت تتركني أغرقُ في سردِ كلِّ تفاصيل حياة المنزل والشارع في عَدَن، مغامرات وشقاوات الطفولة، يوميات مدينتي المسكينة... جعلَتْني أسردُها يوماً يوماً، ساعةً ساعة. أستفيضُ في تقديم كلِّ صديق، كلِّ حكاية، كلِّ حدث...

أما هي فتكتفي فقط، بانتقائيةٍ عجيبة، بتفصيل أحداثٍ ثانوية من حياتها في اليمن: تتحدّثُ عن أذواقها في الوجبات اليمنية، تَصِفُ القرى، تتشعَّبُ في سرد المكان، تطيلُ كثيراً في وصفِ صديقاتٍ عزيزاتٍ لها، بعضِ مُدرِّسيها. لكنها تهرب من الاستغراق في رسم المفاصل الجوهرية لحياتها، في الحديث عن منزلِها، طفولتِها الأولى، علاقتِها بوالديها لاسيَّما والدها الذي أدركتُ سريعاً جسامةَ خوفِها منه وتحاشي ذكرِ اسمه أو الحديثِ عنه من قريب أو بعيد... كأنها تناضلُ من أجلِ نسيانِ طفولتِها تماماً! عندما أسألها عن حدثٍ ما في سنوات طفولتها الأولى، تجيب: لا أذكر شيئا من تلك السنوات!...

لم أجد صعوبةً في أن أستشفَّ من أوَّلِ لقاءٍ لنا أن حياتَها

السالفةَ في اليمن تركتْ في أعماقها جُرْحاً كبيراً، أَلَماً مُطلقاً، وأنها قدَّمتْ استقالتها بشكلٍ قاطع من تلك الحياة، إن لم تَكُنْ قد تَركَتْ عليها بَصْقَةً أبديَّةً... يكفي سماعُ نشيج آهاتِها الخفيّة ورؤيةُ انقباضِ جفونِها عندما تقتربُ من ذكرياتَ تلك السنين... لا تتحدَّثُ بإسهاب وشوق وشجن عن مخلوق تعطفُ عليه وتحبُّهُ بقُوَّة إلا عن: نَعِيم، أختِها الصغيرة الوحيدة. «توْأَمِي الروحيّ...» كما تُسمِّيها. أدركتُ أنها تَتَّصلُ بها تلفونيّاً بانتظام، تحكي لها كلَّ ما يدورُ في حياتها اليومية...

باختصارٍ شديد: عن تفاصيل حياتِها ويوميَّاتِها منذ أوَّلِ لحظات وصولها لفرنسا أعرفُ كلَّ شيءٍ تقريباً. كانت أحاديثُها عنها بلوريَّةً تماماً، تتدفَّقُ من روحٍ كريستاليةٍ صافية. أصغيتُ لها من كلِّ جوارحي... لكنني أجهلُ كلَّ شيء تقريباً عن حياتها في اليمن، لأنها كانت تُفضِّلُ، أغلب الوقت، الهروبَ من الاقتراب من تلك المواضيع الشائكة المُحرَّمة. لذلك، صارت حياة إلهام في ناظري أشبه بغرفتين متجاورتين يفصلهما جدارٌ زجاجي. إحدى الغرفتين تسبح في الضوء، تتلألأ شفافيةً وسناء: حياتُها منذ وصلت فرنسا. الأخرى تغوص في الظلمات. تصل منها أحياناً بؤرٌ مضيئةٌ صغيرة، نقاطٌ لامعةٌ هنا وهناك، تأتي من ضواحي الروح في الغالب، من محيط الدائرة. غير أن المركز، مركزَ الروح، بُحَيرةٌ مدلهمَّةٌ معتمة. متاهاتٌ ظلماء لا أعرف عنها شيئاً.

لم أحب أن أدعُكَها بتوجيه أيِّ سؤال لا تستسيغه. بالعكس، كان لديَّ إحساسٌ حتميٌّ أن إلهام قد نالت من الدَّعك والشقاء كلَّ قسطِها القَدريّ. أيقنتُ أن عليَّ بالمقابل أن أظلَّ كما أنا عليه منذ عَرَفتني: حارسُ ابتسامتها، راعي بهجتِها، ماكينةُ إسعادٍ لإضحاكِها، لإمتاعِها، لا غير.

منذ آخر لقاءٍ في إبريل 1990، بدأنا مرحلةً يحلو لي أن أُسمِّيها: مرحلةَ «الأحرف الطائرة»، التي تَلَتْ مرحلةَ «الأحرف المُكثَّفة»... بعد أن تعلَّمتُ من إلهام بلاغةَ التكثيف هاأنذا أتعلم أن أطير، أن أُحلِّق، أن أحلم... تدشَّنَتْ هذه المرحلة الجديدة ذات يوم ربيعيٍّ جميل كُنَّا نسير فيه وسطَ طريقٍ مُكتظٍّ بالسيارات، قربَ شابٍّ وشابَّةٍ يسيران مشتبكي الذراعين بإيقاعٍ متوحِّدٍ جميل. انسابت في بريقِ عينيي إلهام ابتسامةٌ لامِعةٌ مُغَلَّفة. تَلَتْها ضحكةٌ خفيفةٌ، قبل أن تقول:

_ ما أحلاهما! يبدو أنهما قضَّيَا، كلَّ أيام لِقاءاتهما عابرَين الطرقَ المكتظَّةَ بالسيّارات ذهاباً وإياباً فقط!... أكثر مِنَّا بالتأكيد!...

لم أتجرأ أن أبوحَ لها بأنني أتمنى أن نُقَضِّي كلَّ يوم لقائي بها في نانْت نعبرُ الطرقَ المكتظَّةَ بالسيارات ذهاباً وإياباً فقط! الحقُّ أني كنتُ أتمنى ذلك فعلاً لأنها اللحظات الوحيدة التي نتلامس فيها لُحيْظاتٍ تطولُ أكبر فأكبر. صرتُ، في أعماقي، أشتعلُ رغبةً لِمُلامستِها، ومُلامستِها، ومُلامستِها... لاحتضانها طويلاً جدّاً... وإن ظللتُ أخشى رغم ذلك دعكَ إيقاعِها أو دفعَها أسرعَ مما ترتأيه.

غير أني منذُ بدءِ مرحلةِ «الأحرف الطائرة» صرتُ أشعرُ أن إلهامَ مِلْكِي وحدي، وأننا نهرول في مزلقةِ العشقِ بشكلٍ أصم، لا رجعة فيه... كنتُ مثلَ واثقٍ أننا منذ أوَّل أيام تعارفنا نضطرمُ ببطء بجمراتِ الرغبةِ واللوعةِ ونتعذَّبُ في رمضاء الشوقِ الطويلِ القاتل، لكي نحيا بعدَها سعادةً ونشوةً وتلذُّذاً أشدَّ تدفُّقاً وتفجُّراً وكثافةً وقوَّة. كنت أحسُّ أنني حتماً، في لحظةٍ ما قريبةٍ جدّاً، سأتوحَّدُ جسدِيّاً مع هذه الآلهة الإغريقية، سأتوحَّدُ فيها مع الملكةِ بلقيس والملكةِ أروى في وقتٍ واحد...

في زيارتي لها في بداية مايو التي تَلَتْ لقاءَ «الأحرف الطائرة» مباشرةً حدثَ شيءٌ لم أبرمجه إطلاقاً. كان ذلك في حانةٍ بَحْريّةٍ رومانسية. مقاطع موسيقية عذبةٌ حالمة، مملوءةٌ بالحريّة، كانت تنبعثُ من ركنٍ خافت: فيفالدي، «الفصول الأربعة»، التي أذوبُ عند سماعها... وجدتُ نفسي فجأة أنفجرُ بُكاءً دون شعور! لم أبك كما أذكرُ قبل ذلك إلّا مرّتين:

1) عندما توفّى والدي في حادث سيَّارةٍ وأنا في العاشرة من العمر. بكيتُ حينها ثلاثة أيام متواصلة، أفرغتُ خلالها كلَّ دموع عُمري دُفعةً واحدة... 2) في نهاية السبعينات، بعدَ فِراق: أليْسَ، معبودتي الأولى، معبودتي الخالدة، التي سأضطرُ أن أتحدَّثَ عنها بإسهاب لاحقاً...

كنت أبكي أمام إلهام بِقُوَّةٍ وتلذُّذ. أبكي كَطفل! قلتُ لها بالحرف الواحد: أشعر بالضياع الكامل منذ تعارفنا!

ردَّت بنوع من الاستغراب: لم أفهم!...

أجبتُ: أسألي كلَّ المقالات العلمية التي لم أعد أستوعبها! اسألي رسالةَ «أطروحةِ قيادةِ الأبحاث» التي أَضْحَتْ تتقدَّمُ بسرعةِ السلحفاة منذ عرفتك! اسألي كل طرق المواصلات التي صرتُ أخطئُ في أخذها على الدوام! اسألي كلَّ السيارات التي أوشكُ على الاصطدام بها أثناء قيادة سيارتي أو أثناء المشي على الأقدام! اسألي كلَّ أصدقائي البعيدين جغرافياً الذين صاروا يلومونني لعدم الاتصال بهم تلفونياً على غير عادتي! اسألي كلَّ أصدقائي القريبين جغرافياً الذين صاروا يلومونني لعدم الإصغاء لهم أو مشاركتهم أفراحهم ومعاناتهم! اسألي كلَّ زملاءِ العمل الذين يلاحظون أنني أهربُ منهم أو أهيم بعيداً عنهم أثناء اجتماعات العمل المشتركة!...

ثمَّ أضفتُ بكلمات عفويَّةٍ متقطِّعةٍ مثلومة: لم أعد أطيق أي مسافة تفصلنا بعد الآن، لأنّي... لأنّي... أعشقُكِ... بجنون!...

أخفيتُ بعدها رأسي بين راحَتَي يَدَيْي على سطح المنضدة كي أحبسَ دُموعاً حرَّى ونشيجاً أثار انتباه نادلِ المقهى وزبائنه. ثمَّ رحتُ من جديد أبكي كالطفل!

وَضعَتْ إلهامُ يدَها فوق رأسي بحنان. تغلغلتْ أصابُعها لِثوانٍ قليلة في شعرِ رأسي، هدْهدَتْني بعذوبة. ثم لامَسَتْ أطرافُ أصابعِها راحةَ يدي، داعَبَتْها ذهاباً وإياباً برِقَّةٍ وعطفٍ وحِنِّية. دعتني للخروج والمشي على الشاطئ. تغيَّرَتْ تماماً بعد بكائي. لعلها باختصار كانت تحتاجُ أن يبكي رجلٌ أمامها، كما بكيتُ، لتقتنعَ أنه يعشقُها فعلاً! كانت تنتظرُ أن يتفجَّرَ بكاءً أوّلاً! تنتظرُ ذلك منذ الأزل!

بعد أن خرجنا، أخذَتْ هي نفسها راحةَ يدي اليمنى، شبكَتْها براحةِ يدِها اليسرى، رغم أنا كُنّا بعيدَين عن طرق السيارات المكتظَّة. لم تشتبكْ أيدينا هذه المرَّة بشكلٍ طارئ، خاطف، مارق، مُغالِط، مُناوِر، ماكر، مؤقَّت، هارب، زائل، لذيذ... لم تَشتبكا لِمُدَّةِ نسمةٍ عابرة، لِمُدَّةِ حُلم جميل، لمدَّة بضعة ثوانٍ كثيفةِ السعادة... رَفَعَتْ إلهام رَاحتَي يدَينا المتعانقتين لِتضعَهما أمام وجهينا. رفعتْهما قرب وجهي المتلألئ المنذهل، ثمَّ قالت بعد ذلك بقليل هذه العبارة الرقيقة، الخالدة:

- كنتُ أتمنى لو كان معطفُكَ بدونِ كُمٍّ في اليد اليمنى، ومعطفي بدونِ كُمٍّ في اليد اليسرى!...

شعرتُ هنا أن حياتنا المشتركة ستبدأُ في هذه اللحظة التي عبَّرَتْ فيها، هي نفسها، عن رغبتِها بأن نَقُصَّ بعضَ أردان معاطفنا! بأن تتلامس بشرتَي ساعدَيْنا المتواشجين... أن نتلامس!... ثمانيةُ أشهر احلمُ فيها أن نتلامس! هاهو ضوءُها

الأخضرُ إذن! هاهو يأتي مُضَمَّخاً بالظرافة والإدهاش! مُعطَّراً بأشذى وأروع وأنبلِ وأجملِ وأحلى وأعظمِ خفّةِ دمٍ ورقّةِ روحٍ سمعتُها في حياتي!...

المجدُ والخلود للعبارات الطائرة!

كنتُ أخرَس غيرَ قادرٍ على التعبير أو حتّى الابتسامة وأنا أشاهدُ عينيي إلهام تتلألآن ببريقٍ شديد الصفاء والعُمق والسعادة، وهي تقول عبارتها تلك، على بعد خطوات من زُبدِ الأمواج المنكسرةِ عند أقدامنا... ربَّما صرتُ لذلك عاشقاً للبحر بشكلٍ مغناطيسيٍّ أصم. مُجرَّدُ رؤيتهِ يُفَجِّرُ في لاوعيي الدفين ذكريات تلك العبارة، سعادتَها المطلقة، غنجَها الخالد... في فضاءِ الشاطئ تشكيلاتٌ متنوِّعة من «أوراق طائرة» تُحلِّق في سماءٍ مُمَلْطَطَةٍ بسُحبٍ أميْبيَّةٍ متكاثرة: تنِّينٌ هائل، «أبو الهول المُجنَّح»، تصميماتٌ معماريةٌ وقصورٌ طائرة، دعاية لِشوينجم «هوليود»، تركيباتٌ هندسيّةٌ حُرَّةٌ بأشكالٍ سوريالية عبقريّةِ الابتكارِ والإخراج، فاقعةِ الألوان غالباً...

انعقدَتْ لِساني فعلاً! غرقتُ في غيبوبةٍ جميلة. لم أصغ لها جيِّداً وهي تقول لي بعد ذلك:

- لعلّك اخترت بمحْضِ إرادتك أن تنتقِلَ إليكَ عذاباتُ «طائرِ الخراب»! أنت مسئول وحدك عن قرارك... اللهم إني بلَّغْت! اللهم إني بلَّغْت!...

أضافتْ أيضاً بعد ثوان:

_ من أنذرَ فقد أُعذِر!...

كنتُ في عالمٍ آخر! لم أهب غير قيمةٍ مجازيَّة لما قالته. أو ربما لم أفهم ما قالَته تماماً. لم يخطر ببالي حينها بشكلٍ أو بآخر أن هذه الهيفاء الجبليّة التي تمرَّدَتْ على القبيلة وهربتْ من سجنها إلى هذه الديار البحريَّة النائية، هذه المُلهِمة المُلهَمة

التي لم أتصور أن جبال ووديان ومراعي ومدن وقرى اليمن بإمكانها جميعاً أن تُنجب فتاةً مثلها بهذه الألمعيّة والروح المدنِيَّةِ وهاجس التمرُّد والتحرُّر والشموخ، هذه الغيداء التي قضَّتْ حياتها ترفضُ كلَّ من يتوسّلُ ابتسامتها ثمَّ منحَهَا القدرُ لي وحدي كي أعبدها كما أشاء، هذه الحسناء ذات الصوتِ الرقيقِ الشجيِّ المُسكِر الذي أذوب عند سماعه، ذات العينين اللامعتين الواسعتين والوجهِ العذب القاتل، ذات الجسد الأسطوري الذي تغزَّلَتْ به قبلي – منذ عرَفتْ إلهامُ نفسَها – كلُّ نساء عائلتِها وجاراتِها اللواتي طالما قطَّعْنَ أيديهنَّ في السرِّ وهنَّ يَعبُرْنَ بنظراتهن الغيورة تقاسيمها الإلهية... هذه الحورية ذات الصفاء الرقراق المطلق... ستكونُ في حياتي: «طائر الخراب» الذي سيغرسُ مَخالِبَهُ الجبَّارة في أحشائي. طائرَ خرابي الفاتن! هاويتي الخالدة! هلاكي الرائع! دماري الأثير! كارثتي المقدَّسة! جهنمي الحبيبة!... أو أنّها ستكونُ في حياتي: طالعَ نحسٍ يحمل لي «طائرَ خرابٍ» يدمِّرُ حياتي... كنتُ في عالم سعيدٍ آخر. لم أسألها: ماذا يعنيَ «طائر الخراب»؟ من هو «طائرُ الخراب»؟...

بدأَتْ حياتُنا الواحدةُ بعد عبارتِها الخالدة التي استخدمَتْ فيها رمزَ المعطف ذي الكُمِّ الواحد. عرضتُ عليها بعدها مباشرة قضاءَ أيام معاً، «واحِدَين»، في فِيلَّا على البحر في جنوب فرنسا. وافقتْ علَى التو!

وصلنا إذن إلى هذه الفِيلَّا معاً في ضحى 22 مايو 1990. هي، في الخامسة والعشرين من العمر وأنا في الرابعة والثلاثين! أكبُرها بتسع سنواتٍ كاملة (وُلِدتُ في يونيو 1956)! لم أكن أتصوَّرُ أو أودُّ قَبْلَ معرفتِها – لأسباب أيديولوجية محضة! – أن أرتبط بإنسانةٍ أتجاوزها أو تتجاوزني أكثر من خمس سنين

فقط!... لكن ما العمل؟! هذه هي الحياة: غابةُ مفاجآتٍ ومطبَّاتٍ قلَّما تؤدِّي متاهاتُها إلى ما نصبو إليه أو ما نتوقَّعهُ مسْبَقاً!

تركنا حقائبنا في الردهة. فتحنا كلَّ النوافذ على مصراعيها، وانغمسنا في البحر.

لم أحتَضِنْها بعدُ منذ بدءِ تعارُفِنا، لمْ أُقبِّلْها حتَّى قُبْلةً صغيرة، وإن كنتُ قد قضّيتُ الثمانيةَ أشهر التي انقضَتْ أحلمُ بهذه القبلة، أتخيّلُ هذه القبلة، أرسمُ هذه القبلة...

عزمتُ أن تكون أولى قُبلاتِنا هنا في البحر، تحتَ سماءٍ مفتوحة، بعد قليل، عندما تتوقَّفُ إلهامُ قليلاً عن السباحة وتقترب مني.

في هذا اليوم الخالد.

في هذه اللحظات الملائكية.

هي، تسبَحُ دون توقُّف، بأشكال هندسيَّةٍ متداخلة. البحرُ لها، مِلْكُها. تسبَحُ حولي كحوريّةِ الماء، كعروسِ البحر: «الفاتنة الأسطورية التي تغوي الملّاحين وتسبب هلاكهم». تسبَحُ كسمكة، تتعرجن كطائر سنونو يُحلِّقُ في الفضاء.

تسبَحُ في البعيد...

بانتظارِ أن تكُفَّ إلهام عن السباحة وتقترب مني، بانتظارِ أن أحتضنها أخيراً هنا وسط الأمواج الرقيقة، حدَّقتُ بعيداً في البحيرات الشاطئية والأحواض المائية المتاخمةِ لِلبحر التي يُستخرجُ منها المِلْح. لعلَّ طيورَ النحّام (الفلامنجوس) والبَجَع التي ترتعُ فيه هي نفسها تلك التي تملأ أحواضَ «مِمْلاح عَدَن»، لاسيما من نوفمبر إلى مارس، قبل أن تهاجر معظمُها عندما يزيدُ اشتعالُ قيظِ عَدَن الجَمْري... إلى هذه الديار، من يدري؟ لماذا لا تكون هي عينها هذه الطيور؟ أَلَسْنا، إلهامُ وأنا، مثلها تماماً، عصفورَين يبحثان عن أرضٍ رقيقةٍ حُرَّة هادئة؟...

سرحتُ قليلاً أتذكَّرُ أحواض المهْدِ في عَدَن التي قضَّيتُ طفولتي أراقبُ طيورَها برفقةِ أحدِ أروعِ أصدقاءِ طفولتي وأكثرهم ألمعيّةً وتمرّداً وعبقرية: شهاب. عادت لي ذكرياتٌ عميقةٌ، جوهريَّة... أنوي أن أسردها بعد قليل لإلهام. عزمتُ أيضاً أن أزورَ معها بعد يوم أو يومين أحواضَ الماءِ المتبخِّر، على يميننا، لأحكي لها ما أعرفُهُ عن طقوس العصافير التي اكتشفْتُها في طفولتي العدنِيَّة.

عَدَن، يلزمني أن أوضِّح أوَّلاً لمن لا يعرفُ جغرافيتَها الفريدة: قُطبان [4] متباعدان يفصلهما طريقٌ بَحْرِيٌّ طويلٌ يخترقُ أحواضَ مياهٍ شاسعة.

ما يهمُّني هنا هو أن تلك الأحواض الضخمة محميّةٌ

طبيعيةٌ نموذجيةٌ للنحّام والبجع. مملكةٌ رغدة للطيور المهاجرة. هي وحدها في الحقيقة ابنةُ قلبِ عَدَن، ابنةُ المركز، ساكنةُ الدرجة الأولى! أما البشر فيقطنون الضواحي، محيط الدائرة، يسكنون السُّدُم المشتَّتَةَ والأطراف البعيدة.

مع صديقي شهاب كُنَّا نقضي ساعات نراقب هذه الطيور بِمُتْعَةٍ هائلة. نبدأ في ساعة العصر. ننطلقُ من الأحواض الجنوبيةِ التي تتراكم فيها أصقاع الملح. نتقدَّم رويداً رويداً نحو الشواطئ الشمالية الملتصقةِ بميناء كالتكس. نُحَدِّق بتمعُّنٍ في تلك الكُتلِ الطائرة البيضاء المتألقة وهي تُعَرْبِدُ في ذلكَ الفردوس الأزرق بِسعادةٍ وانشراحٍ مُطلَق. نسلو كثيراً ونحن نراها تسرحُ وتمرح، تلعَبُ، تركضُ، تَتزاحمُ، ترقصُ جذلى في حفلات بهيجةٍ دائمة... نلاحظها تتوزَّعُ في شُلَلٍ، من 4 إلى 20 تقريباً، تتغذَّى بالجمبري والقواقع والرخويات، تَهيمُ، تُغنِّي بأصواتٍ بُوقِيَّةٍ عشوائيةٍ احتفالية... نُخفِي أنفسنا قليلاً لئلا نُعكِّرَ مزاجها أو نربكَ إيقاعَها، لأنها كانت قلقةً حذرةً دائماً مثل غراب عدَن، مثل عُقاب عدَن...

كان يثيرني بشكل خاص طائر النحّام بسيقانه الطويلة، باللون القرمزي أسفل أجنحته الذي يبدو جليّاً عندما ينطُّ هنا وهناك. يعجبني كثيراً عندما يستريح قليلاً واقفاً على رِجْلٍ واحدة، «يُعطْورُ» رقبتَه الطويلة ويخفي رأسه أسفل ريش جناحه. إلا أن أكثر ما كان يجذبني هو طريقته في الطيران التي لا تُنسى: سيقانُهُ الطويلة تتمدَّدُ بشكل أُفقيٍّ في الخلف، ورقبتُهُ الطويلة تتمدَّدُ أفقيّاً يَتقدَّمُها الرأسُ في شكلٍ فريد يُشبهُ طائرةَ الكونكورد، أو بالأحرى تشبهُهُ طائرةُ الكونكورد...

كُنَّا نراقب أيضاً طيوراً أخرى كثيرة تعجُّ بها شواطئ

عدن: أسراب النورس الغفيرة، مالك الحزين، أبوملعقة... وفصائل أخرى لا أعرف أسماءها. كُنَّا نلاحظها وهي تتنقل من جرف إلى جرف، تختفي بين الصخور على إيقاع المدِّ والجزر...

أُدِينُ لصديقي شهاب بأنه غرس فيَّ عشقَ العصافير. لعلِّي من كثرةِ مراقبةِ طقوسِها والتحديقِ في حركاتها وسكناتها «تَعَصْفَرْتُ»، نبَتَتْ فيَّ أجنحةٌ غير مرئيّة! تحوَّلتُ عصفوراً بجسدِ إنسان! لكني أدِينُ لصديقي، قبلَ وبعدَ كلِّ شيء، بلحظةٍ جوهريَّةٍ في حياتي، سأحكيها الآن، صرتُ بعدها إنساناً آخر. لولاها قطعاً لما كنتُ أسبحُ الآن هنا في تقاطُعِ الأطلسي والأبيض المتوسِّط، بجانب ملكة العصافير، إلهامِي الخَالدة...

حتّى قبيل الثالثة عشر من العمر كان رأسي مُستوطَنةً للأشباح والكوابيس وقبائل الجن. جنٌّ عورٌ، كسحٌ، معلَّقون في كل مكان، مختفيون خلف كلِّ شيء، بعضهم عمالقة، بعضهم بأَرجُلِ بَقَر، بعضهم بأعين رمادية بيضاويةِ العدسات... شياطين؛ عفاريت؛ مَرَدَة؛ غوْل: يلتهمون الأطفال كما يقول البعض، يحفرون القبور في الليل لِالتهام جُثثِ الموتى كما يقول الآخرون؛ «جَبَرْت»: يشربون دماء الأطفال؛ «زوَّار البيوت»: يأتون لكل منزل في قلب الليل وقد نام أهلُه، يمارسون نفسَ حياةِ هؤلاء، يطبخون، يأكلون، يتناكحون، يتراكبون، يمشون ويتحركون... ثمَّ يُعِيدون كلَّ شيءٍ إلى وضعِهِ الطبيعي ويغادرون المنزل قبل أن يصحو أهلُهُ من النوم!...

امتلأ رأسي حتّى ذلك السنِّ بجيوشٍ مُجَيَّشةٍ من هذه المخلوقات المتنوعة! كنتُ أتوجَّسُها في العتمة بشكلٍ خاص، أشعرُ بوجودها عند أدنى صوت أو حركة، عند أوَّلِ سوءٍ طالع، أسمعُ قصصَها وأخبارَها ودسائسَها ومؤامراتِها وحفلاتِ فجورِها

وعربدتِها وتضاجُعاتِها الجماعيّة... أسمعُها كلَّ يوم، في البيت، في الشارع، في المدرسة...

حتّى ذلك السنّ كنتُ أعيشُ حالةَ استنفار دائم من مليار «غاسقٍ إذا وقب» يترصَّدُني كل ليلة. فيالقُ وميلِيشيّاتٌ لا تُعدُّ ولا تُحصى كانتْ هَوَسِي القاتل، خَوفِيَ الأزرق، بعبعَ أيامِيَ ولياليَّ المضطربة! كم داهمتني عندما كنتُ أغمضُ جفني قبل النوم! كم أفسَدَتْ ليالي طفولتي! كم أيقظتني مرتجفاً أكثر من مرَّة! كم دعوتُ اللّه بسببها، في مساءاتي الحزينة لاسيما قبل السابعة من العمر، بأن يُحَوِّل هذا الكون، في أقلّ من لمحة بصر، إلى عَدَم! كم توسَّلْتُهُ أن يختفي كوكبُ الأرض، بكلِّ أناسه وحيواناته وجماده، بأقلّ من ميكرونٍ من الثانية! أن يختفي الكونُ تماماً ذات ليلٍ وأنا في عُمق النوم، أن يعود كما كان عليه قبل بدء البدايات: فراغٌ سرمديٌّ كامل.

نعم، كانت نهايةُ العالم هي حلمَ طفولتي! لم أكن أتمنّى أن أعيش حرباً عالميةً ثالثة أو أشهد سقوط قنبلة نيترونية؛ لم أكن أودُّ أن أشاهد القمرَ يسقط على الأرض أو أن أحيا انهيار التوازن المغناطيسي للمجموعة الشمسية؛ لم أكنْ أحلمُ أن ينطحَ ثَوْرٌ كونِيٌّ الكرةَ الأرضيّة، يُدحرِج بها في ظلماتِ الفضاءاتِ اللانهائية؛ لم أكن أطمحُ أن أعاصرَ طوفانَ المحيطات وغضب الآلهة، أو أن أسمعَ «نَفْخ الصور ونقر الناقور» وأرى «العادياتِ ضَبْحاً والمورياتِ قَدْحاً» وبقيّةَ أفراح يوم البعثِ والنشور... كلّا، كنتُ أريدها نهايةً كونيّةً رقيقةً كاملةً ناعمة، very soft، بسرعة البرق. أردتُ أن ينتهي الكون والزمن من الوجود، كشمعةٍ تغرق في المحيط، كفيلم انكتبَتْ على شاشتهِ هذه الكلمة: FIN، النهاية، The END. أردتُ أن يصيرَ اللاشيءُ كلَّ شيء، في أقلّ من ميكرون من الثانية. نعم، كان حلمُ طفولتي هو فناءَ الكون،

لا أكثر ولا أقل! لأنه كونٌ مرعبٌ مملوءٌ بالكوابيس والخوف والآلام والكائنات غير المرئية التي تثير هَلعي ورجفتي الدائمين. كونٌ لا راحة فيه ولا أملَ منه...

لسبب خاص جداً، سأحكيه بعد قليل، لم أستطع أن أتحرَّر من وطأةِ عذابِ هذه الكائنات الميتافيزيقية، رغم أن بوادرَ «ثقافةٍ جديدة» بدأتْ حينها تُقرْقِرُ فعلاً في النخاع الشوكيِّ لِعَدَن! ثقافةٌ علميَّةٌ واعدة تُقلِّلُ من أهمية هذه الكائنات غير المرئية، تكبحُ جماحها، تخنقُها، بل تنسفُها تماماً. لم تكُنْ واعدةً بالنسبة لي أو مفيدةً في شيءٍ يُذْكَر كلُّ الأسماءِ والكلماتِ المتوهِّجةِ التي لَوَّحتْ بها هذه الثقافة الثوريّة الجرّارة (والتي تهرب عند سماعها مع ذلك أبشعُ الجنِّ وأشرسُ الشياطين): العقل، العلم، السَّبَبية، التنوير، النقد، كارل ماركس (بلحيتهِ الكثّة ونظراتهِ الثاقبة التي لا يعشَقُها لصوصُ رأسمالِ الإنسانية ومخدِّرُو الشعوب) اينشتاين، داروين، المادية الديالكتيكية، المادية التاريخية، «المادة لا تُفنى ولا تُخلقُ من العَدم»، هيجل، محمود أمين العالم (بعُذوبَةِ ابتسامتِهِ كإنسان، كمُفكِّر، كمُناضل، كجذوةٍ دائمة...)، صادق جلال العظم!...

ثمّةَ سببٌ رادعٌ منَعَنِي أن أفتحَ نوافذَ رأسي لِهذهِ الأفكارِ الجديدة التي بدأتْ ترفرفُ حينها بقوّة في سماء عَدَن. هاهو: «الجدرانُ تُسَبِّحُ في الليل!»، كما تَردُّ جدَّتي عندما نسألها عن أسباب أصوات الأزيز الذي نسمعهُ ليلاً من جهة الجدران الخلفية لمنازلنا، المُطِلَّة على «الجَلِّي» [5].

كنت أسمع هذا الأزيز الحاد المتواتر يثقبُ طبلةَ أُذْنِي، يقرعُ وسطَ رأسي كلَّ ليلة، يُطنطنُ كَخليَّةِ نحل... كان يُشبِهُ تسبيحَ جدَّتي قبل النوم وهي تتلو أوراداً ليليّة وتعاويذ متواترة،

بِصوتِها المخروطيِّ السريعِ الحاد، الذي تزداد سرعته تحت سمائنا الليليةِ المفتوحةِ من طرفِها إلى طرفِها على عجيج حشودِ الملائكةِ والشياطين. كنتُ أسمع في بعض الأحيان هذا الأزيز يتَّحِدُ بتسْبيْح جدّتي، يذوب فيها، في صوتٍ مُزدَوَج تتداخلُ فيه نبراتٌ إنسانيةٌ-جدرانيةٌ غير أليفة لا تستطيع محاكاتها أحدثُ وأجودُ كمبيوترات الموسيقى الإلكترونية...

كان مَنْطِقي بسيطاً لا غبارَ عليه: طالما أن الجدران تُسبِّحُ فكلُّ قصص الجنِّ والعفاريتِ وزوّار الليل منطقِيّةٌ تماماً، ممكنةٌ جدّاً... كانت ثمّة في قرارة نفسي علاقةٌ سبَبِيَّةٌ ضمنيَّةٌ غامضةٌ، علاقةُ عِلَّةٍ بمعلول، لا أعرف تفسيرها، بين تسبيح الجدران ووجود تلك الكائنات.

باختصار شديد: الجدران تُسبِّح أو لا تُسبِّح: It's the question!

كان رائِعي وملاكي الحارس شهاب في نفس صَفِّي في نهاية المدرسة الابتدائية. كنا نهيم أحيانا معاً في بدايات المساء فوق الخلاءات الرمليّةِ المحيطةِ بالشيخ عثمان، تحت نجوم سمائها التي تربطُنا، أبناءَ عدَن، بها علاقةُ عشقٍ أبديّة: كم نُمنا على الشرفات وفوق السقوف، في ليالي صَيْفِنا الخانق الطويل، شاخصِين أبصارنا نحوها، سائلين مدَدها، بردَها وسلَامها!... كم أَصغَتْ دَوْماً لأدعيتنا وأحلامنا وآمالنا. كم دثَّرتْ بحنانٍ أُموميٍّ ليالي سدَرِنا وهيامِنا وضحكِنا وتأمُّلِنا ورعشاتِ غرامِنا الأَوَّل!...

كان شهاب يبوحُ لي بمشاكله العائلة، بكلِّ صغيرة وكبيرة في حياته. وجدتُ نفسي، في تلك الأجواء الحميميّة، أفضي له، أنا أيضا، بمأساتي: تسبيح الجدران! ابتسمَ. لم يَرُد عليَّ قائلاً بأن الجدران لا تمتلك حسب عِلمهِ (وعِلمِي أيضاً) أدمغة وأفواهَ وحناجر... فضَّلَ لُغةً أخرى: قال لي إنه سيأتي لزيارتي

للمنزل هذه الليلة في العاشرة مساءً!

وصل فعلاً! وصَل بخطواتٍ هادئةٍ خفيفة. في عينيهِ بريقٌ ألمعيٌّ لا يمكن أن أنساه أبداً، وفي ثغرِهِ ابتسامةٌ ماكرةٌ خفيّةٌ لم يستطع حَجْبَها عني تماماً. عندما لاحظ أنه فاجأ أُمِّي وجدّتي بوصوله المتأخر، قال لهما إن علينا واجباً مدرسيّاً صغيراً نحتاج لِعشرةِ دقائق لأدائه معاً، قبل عَودتِهِ لمنزله... كانت أمي تُحِبُّه وتثقُ به كثيراً...

بعد دقيقتين، صعد لسقف منزلنا فوق المطبخ. كان شهاب طويلاً، رشيقاً، سريعَ الحركة. أخرج من جيبِه مصباحاً يدويّاً صغيراً جاء به من منزله. نزل متسلّقاً من السقف بمهارة ملحوظة نحو «الجَلّي»! نحو غياهب هذا الرواق النتن الذي نخافُه ولا نطيقُه في النهار، فما بالكم في دياجير الليل، في أوجِ معمعات صراصيرهِ وفئرانِه وخفافيشِه...

توقَّفت الجدران عن التسبيح بعد قليل! توقَّفَتْ تماماً! لم أفهم شيئاً!

ما هي إلا خمسة دقائق في أكثر الأحوال، عادَ بعدها نحوي حاملاً حجرةً جاء بها من «الجلّي»! ثبَّتَ عليها... حشرةً صغيرةً، لطيفة المحيا، تُشبِه الجراد إلى حدٍّ ما، اِسمها الجُدجُد أو صرّار الليل، لا أدري كيف قبض عليها... لم أحتج لدليل آخر أكثر سطوعاً وتوهُّجاً: هاهي الحشرة التي تطلق في الظلام ذلك الصوت الذي تُسمِّيهِ جدتي: تسبيح الجدران. «حشرة تسبيح الجدران»، كما سأُسمِّيها حتى آخر العُمر.

كانت تلك اللحظة ذات أهميّةٍ حاسمةٍ قُصوى في حياتي: سقطَتْ بعدها كقَصْرٍ من ورق كلُّ خرافات الشارع. أجزمتُ إثرها، كيما أنتقمَ من ألف قرنٍ من الرعب الذي أذكاهُ أزيزُ هذه الحشرة المسكينة، أنني لن أُصدِّق بعد الآن، مدى العمر، إلا ما

في تلك الليلة الخالدة بالتحديد، في الثانية أو الثالثة فجراً حدث شيء لن أنساه أبداً. هاأنذا أتذكَّرُه الآن، قرب إلهام التي أتلهَّفُ لِتقبيلِها وقد بدأت تعودُ نحوي مستلقيةً على ظهرها، تشعُّ سناءً وسعادةً وقد نالت قسطها من السباحة والاسترخاء. أستعيدُهُ في ذاكرتي ثانيةً ثانيةً، كما لو وقع البارحة فقط.

نزلتُ من غرفتي في تلك الساعة وحيداً. كان المنزل غارقاً في العتمة. توجَّهْتُ نحو أَرَتٍّ غُرَفِ منزلنا التي تتراكمُ فيها الكراتين والنفايات القديمة، الكراسي التي فَقَدتْ بعضَ سيقانها، الصحون المثلومة، الكؤوس المشروخة، الملايات المثقوبة، وبقايا دولاب عتيق أعرج تنبثقُ منه آخر الليل أصواتٌ غريبةٌ كانت تُرعبني بشكلٍ خاص. جلستُ في الظلام أمام الدولاب، وجهاً لِوَجه، أتحدَّى الجنَّ وزوار الليل: لا أحد! نظرتُ نحو الدولاب، العينَ بالعين، دقائقَ طويلة في قلب الليل الحالك: لا أحد! انتقلتُ إلى المطبخ أبحثُ عن طريقي فَي الظُّلْمةِ الدّامسة، بَوْصَلَتي: شخيرُ جدَّتي التي تَنامُ في غُرفةٍ متاخمةٍ للمطبخ. درتُ على بلاطِه المهترئ بلاطاً بلاطاً. وقفتُ ساخراً متحدِّياً في وسطه، اتكأتُ متحدِّياً أيضاً على دولابه الموشَّح بالسواد والذي تصدرُ منه ليلاً أصوات غريبة أيضاً: لا أحد!...

لن أنسى أبداً تلك اللحظات الجِذْريَّة في ذلك الغسق المُدْلَهِمِّ المُلْهِم. انخلعَ شيءٌ ما خلالها مِن دماغي إلى الأبد! تحوَّل خوفي رغبةً عاتيةً في الضحكِ والسخرِّية. كدتُ أنفجرُ ضحكاً كالمجنون من مهزلةِ مأساتي! من هشاشةِ الممالكِ الوهميَّةِ التي ملأتْ دماغي. من شَرَك تصديقها. ذلك «الشَّرَكُ الشاهق»، حسب تعبيرِ الشاعر اليمنيّ شوقي شفيق. شَرَكُ الانبهارِ

أمام أمجاد اللاأشياء الصغيرة، «اللاأشياء الهوائية»، حسب تعبير شكسبير...

أنقَذَني شهاب من كلِّ الأشباحِ التي استباحت ليالي طفولتي. أدينُ لهُ بذلك مدى العمر. لعَلّي بفضله بدأتُ أُفكِّرُ، أتساءل، أتعلَّم، أستخدم عقلي، أتمرَّد، أرفض، أقول الكلمة الربّانية العُظمى، أقدسَ الكلمات: «لا»!... بفضلهِ صرتُ أتنقَّلُ اليومَ مدعوّاً من جامعة لجامعة، فيما هو... (اربطوا أحزمتَكم جيِّداً!)، فيما هو... مسجونٌ في صنعاء! أمامهُ عسكريٌّ قبيليٌّ أمّيٌّ أهوج، يَجِدُ لذَّةً مُتَميِّزَة في رَكْلِه، في تخريبِ أعضائه الجنسيّة... عسكريٌّ يمتلكُ قصراً ضخماً على أفضلِ شواطئ عدَن، بعد انتصاره في حرب 1994! يمتلك أيضاً قَطعةً أرضيّةً كبيرة اغتصبها هو نفسه من نسيج عضلات قلبِ عَدَن، من نسيجِ حويصلاتها الهوائية: أرض المملاح...

بفضلِ شهاب هاأنذا أَعومُ الآن، في أقصى جنوب غرب فرنسا، قُربَ موقعِ عناقِ الأطلسي بالبحر الأبيض المتوسط، على بعد خطوتينَ فقط من إلهام التي أصغتْ لكلِّ هذه القصص الطفولية عندما كنَّا نعبرُ شوارعَ نانْت. حكيتُ لها آنذاك كيف وصلتُ فرنسا في الثامنة عشرة من العمر، في 1974، بعد أن اتصل بي صديقٌ قديم، من أبناء شارعي في حيِّ الشيخ عثمان في عَدَن، مُقترحاً أن أرافقه لِفرنسا لِمساعدته بالقيام ببعض المهمات التجارية. كان يسكن في الكويت حينها ويعمل في التجارة. وافقتُ على التو عندما علمتُ أنه سيتولّى شراء تذكرتي وتكاليف الجواز، وسيدفع المبالغ اللازمة لأقرباء له في عَدَن لِيساعدوني على الحصول على كلِّ محتاجات السفر سريعاً، في

تلك «السنوات الثوْريّة» التي بدأ السفر فيها للخارج يتحوَّلُ ضرباً من المستحيل.

شرحتُ لها آنذاك كيف رفضتُ العودةَ مع صديقي بعد أن أنجز أعماله التجارية في فرنسا! حكيتُ لها تفاصيلَ حياتي منذ أن وجدتُ نفسي وحيداً في مدرسةِ الشارع، أرقى وأصعب المدارس. حكيتُ لها أيامَ التسكُّع والجوع، الأعمالَ الشاقة التي لجأتُ لها لكسب لقمة العيش، والتي بدأتْ ببيع الزهور وانتهتْ بالشغل في طلاء المنازل في شركة صغيرة يمتلكها يمنيٌّ يعيش في فرنسا، اِسمه: سامي علوان الدَّهْبَلِي، أدينُ له بِتغَيُّرِ حياتي رأساً على عقب...

حكيتُ لإلهام كيف قَدَّرني وأَعزَّني كثيراً «الكابتن سامي»، كما كنا نسمِّيه، منذ أوّل أيام عملي بِشرِكَتِه. كان يُنظِّمُ جدولَ أعماله بحيث يشتغل معي بالطلاء في نفس العمارة. كان يبتهجُ كثيراً في وقت الاستراحات والغذاء بِحَكْي وسماع ذكريات عَدَن، ذكريات شوارع طفولته التي أعرفها عن ظهر قلب. أيقنَ أيضاً أني من نفسِ مِعدِنه: أُفضِّلُ كسبَ حياتي بالعمل والمثابرة فقط. كان معجَباً بِإخلاصي، بِصدقِي، بِجدِّيَتي في الشغل، بِطموحاتي وذكائي كما كان يقول...

قال لي بعد أسابيع قليلة من الشغل المشترك إن العمل اليدوي ليس مملكتي الأثيرة! وإنه واثقٌ أني أمتلك مواهب أخرى وإرادةً قويّة ستسمح لي بتحقيق طموحات أكثر سُمْكاً وجلالاً وأهميّة. اقترح بأن يُخرج أوراق مزوَّرة تشهدُ أنني من أقاربه في اليمن! وجد لي بعد ذلك ضماناً صحيّاً، أوراقاً شرعيَّةً، ثمَّ مِنْحةً دراسية... لم يكن أنانيّاً الكابتن سامي، لأني كنت بالفعل جديراً بِثِقَتِه، مفيداً ومريحاً له في عمله، لاسيما وأني لم أكن أمتلك وضعاً مِهَنِيّاً شرْعِيّاً يُلزمهُ، كربِّ عمل، أن يدفع مبالغ شهرية

هامة لصناديق الضمان الاجتماعي والتقاعد...

سردتُ لإلهام في لقاءات نَانْت تفاصيل حياتي منذ ذلك المنعطف الحاسم. عشقي للدراسة التي وجدتُ فيها مخرجي وشَغَفي. سيلَ الصعوبات والمفاجآت التي واجهتُها...

بفضلِ شهاب هاأنذا أَعُومُ الآن قُربَ إلهام التي أكملَتْ سباحتَها واسترخاءها لتقتربَ مني. لِتَمُدَّ لي راحةَ يدِها اليُسرى التي دَمجَتْها قبل أسبوعين في نَانْت براحةِ يدي اليُمنى، كفاتحةٍ سوف تبدأُ بعدها حياتُنا الواحدة... التي تندلِعُ الآن، في هذه اللحظات الخالدة من نهار 22 مايو 1990!

ماذا أنتظرُ إذن؟ حان موعدُ قُبْلَةِ الأحلام!

لا أدري كيف تُقبَّلُ اليَمَنِيَّاتُ لأني منذ غادرتُ اليمن في الثامنة عشر من العمر، وقبلها بالتأكيد، لم أُقبِّل تقريباً يَمنِيَّةً واحدة! قبَّلتُ أخريات من عوالم متباعدة، لكني لم أقبِّلْ فتاةً واحدةً من اليمن حتى هذه اللحظة التي أقتربُ فيها من الرابعة والثلاثين من العُمر! لا أعرف كيف تُقبَّلُ اليمنيَّات!...

فجأة، وجدتُ نفسي أنحني، أُقبِّلُ بِتَشنُّج كَفَّ إلهام الأيسر بحرارةٍ وعفويَّةٍ وعشوائية، كما نُقبِّلُ أيدي أولياءِ أمورنا في اليمن! ثمَّ هاأنذا أنتَقلُ نحوَ خدِّها لا إراديّاً، بحركةٍ بدويَّةٍ، رعويَّةٍ، فوضويَّة، يُوجِّهُها «ريموتُ كونترولٍ» محشورٌ في أسفل الطبقات تحت الأرضية في لاوعيي الدفين، في قاع ثقافتي المطمورة. كنتُ «أُحبِّبُ»، كما تقول جدّاتُنا، خَدَّها العَبِقَ الناعم! أُقَبِّلُ خَدَّها الأبيضَ الفاتحَ الشهيَّ بهمجيَّة، كما نُقبِّلُ أهلَنا عند الوداع أو عند الوصول من السفر (مازال طَعمُهُ وطراوتهُ وعَبَقهُ في فمي حتّى هذه اللحظة!)... لم أكن قادراً أن أستهلَّ قبلاتي معها بِغيرِ هذه الطريقة البدوِيَّة، الرعويَّة، الفوضويَّة!...

كنتُ بعيداً جدّاً عن أناقةِ قُبَلِ السينما الفرنسية...

ثمَّ استقرَّتْ شفتاي على شفتيها! احتضنتُهُا، انتهت الربشة! بَدَأَتْ أخيراً لحظةُ البداية، بَدَأ التاريخ!...

عَفواً! حدثَ شيءٌ لم يكنْ في الحسبانِ إطلاقاً: لم يَسبَحْ لسانُها كسمكة، لم يتلوَّى ويَتَعَرْجَن و«يَتَعَصْوَر» كسنونو، لم يتأرجحْ، لم يُناورْ، لم يتماوجْ بحركاتٍ بَحْريَّةٍ ماهرة، لم يُطِلْ من قريبٍ أو بعيد، لم ينبجسْ منهُ رحيقٌ مِزَاجُهُ من تسنيم... لم ينفتحْ ثَغْرُها مثقال شعرة! كان صامتاً أخرَس مُغْلقاً تماماً!...

لم تتحرَّكْ إلهام، لم ترفضْ، لم تتفاعلْ... كانت كتمثال!

كنت أسمعُ مع ذلك دفقات شُعيراتِها الدمويَّة، أحسُّ بغليانها كخليَّةِ نَحْل، أستنشِقُها تتقطَّرُ عَرَقاً له رائحةُ الفلِّ والجوَّافةِ والجوز والرياحين: نَسَغُ جسدِها، عطرُ العطر! (سأظلُّ بعد ذلك أبحثُ وأفتِّشُ أبداً بين طبقات شانيل 5، عَطرِها المفضَّل الذي لا يفارقُها عَبَقُه لحظةً واحدة، عن رائحةِ هذا النَّسَغ: عرَقِ جسدِها، عطرِ العطر، رحيقِ الجوَّافةِ والفلِّ والجوز والرياحين).

كنتُ أسمع همهمات وآهات حميميّة، باطنيَّة في الغالب، تُطنْطِنُ في أعماقها. سمعتُ: «آه...» صغيرة، تسرَّبتْ بإعجاز من أجملِ أوتارِ صوتِها العذب، مازالتْ نبراتُها تُدوِّي بِقُدسيَّة في رأسي منذ ذلك اليوم...

لكن شفتيها كانتا مضمومتين تماماً.

ثمَّةَ شيءٌ مُغْلَق! ثمَّة سِرٌّ جوهريٌّ جداً!...

انسحبَتْ شفتاي كَجنْدِيٍّ مهزوم. شعرتُ بِخيبةٍ مفاجئة، بانكماشٍ وإحباطٍ كبيرين...

توجَّهنا لِنرتاح قليلاً على رمل الشاطئ.

صعدْنا السُّلَّمَ الحَجريَّ الطويل الذي يربطُ الشاطئَ بالفِيلاَّ. إلهام تصعدُ أمامي. جسدٌ صقلَهُ إلاه. قدمان حافيتان. خُطوةٌ جَبليَّة. ليس ثمَّةَ ما هو أعذبُ وأسمى وأشهى من الخُطوةِ الجبليّة. قَدٌّ ميّاسٌ رضع موسيقى الصعود منذ ولادَتِه فوق جبال ثُلا، المقابلةِ جغرافيّاً لِ«توأَمِها الروحيّ» الميثولوجي: جبال كوكبان التي يقعُ المرءُ، من أوَّلِ نظرة، أسيرَ عِشقِها إلى الأبد... ترتقي إلهام درجات السلَّم الذي يرفض أن ينتهي، بِمُتعةٍ وتلذُّذ، فيما كنتُ أجرجرُ نفسي وكأني أحملُ أثقال الأرض فوق كتفي. أستعيدُ في رأسي شيئاً واحداً: القُبْلَة الغريبة الأحاديَّة الجانب!...

في الرُّدهة، فَتَحَتْ إلهام حقيبتَها لتُخرِجَ كيساً من البنِّ اليَمَنيِّ الذي ترسلهُ لها من صنعاء بانتظام أختُها الأثيرة: نَعِيم. توجَّهَتْ للمطبخ لِعمل فنجانَي قهوة سنشربهما في الشرفة المُطِلَّةِ على البحر مباشرة.

منظرُ المحيطِ من هذه الشرفة الأولمبية يأسرُ النظر، يكتسحُه اكتساحاً. أزرق عارمٌ يتلألأُ حتى اللانهاية. الشمسُ في السَّمْتِ بَهيَّةٌ سخِيَّةٌ غير طافحة، في هذا الظُّهرِ الربيعيِّ الناعم. موسيقى الأمواج تختلط بزغاريد العصافير في سيمفونيةٍ كونيَّةٍ مدهشةِ الروعةِ والعبقرية والثراء. طائرُ نورس يُحلِّقُ بخمول، يهبطُ

عموديّاً، ينقرُ البحر بسرعةٍ خاطفة ثمَّ يهرعُ فرحاً بفريسته. آخرُ يتمرَّغُ بِلذَّةٍ في ماء البحر على بُعدِ مترين من الشاطئ...

الربيعُ فصلُ العصافير، فصلُ عشقِ العصافير. في حديقةِ الفِيلَّا الواسعة وحولِها مهرجان عصافير: عصافير الدوريّ، الشحارير، سنونو، عندليب، أبو الحناء، العقعق، أسراب نوارس، زوج من القرقف لا يفترق، قنبرات، حمام، يمامات... وأخرى لا أعرف أسماءها: مزيجٌ كاميريائي من الطاؤوس والببغاء، طائرٌ أرقطُ الجلد...

نباتاتُ وَوُرُودِ الحديقة تتآلفُ، تتنفَّسُ، تتعانقُ، تتوحَّدُ في نسيم عطْريٍّ عليلٍ يملأُ الشرفة، يفتحُ النفس: ياسمين، زنبق، ورد، خُزامى (آه، الخزامى يتألقُ كثيراً في هذه الديار!)، السنط، النرجس البرِّي...

هاهي ملكةُ العصافير تصلُ الشرفةَ بِكوبَين من البُنِّ اليمني المختوم بالهيل والقرفة، صنعَتْهُ على الطريقة التُّرْكِيَّة.

تذكَّرتُ زميلةَ دراسةٍ تُركِيّة، عزيزةً جداً، كانت تقلِبُ فنجانَ القهوة بعد أن أشربَه، تضعُهُ على عقبِهِ فوق الصَّحنِ الصغير، «السَّيْسَر»، بضعة دقائق لِيسيلَ الثُّفْلُ الثخين الراكد، «الرَّكْد»، من قاعِهِ نحو جدرانه الداخلية. كانت تُحملقُ بعد ذلك بتركيزٍ شديد في الأشكال الهلامية التي يتركها انتشار الثُّفل على جوف الكوب. تتفحَّصُ الكوبَ من كلِّ الاتجاهات كَفنّانٍ تشكيليٍّ يُراقبُ الشكلَ العام لِرسوماتِهِ التمهيدية. تربطُ بين ما تراه من أشكال ورموز. تُفسِّرُها، تجِدُ فيها شبكةً من الإشارات التي تسمحُ بقراءةِ الطالع والتنبؤ بما تحمله الأيام القادمة لي! تقرأُها حسب نظرياتٍ تنجيمية عتيدة لا تختلف كثيراً عن نظريات جدّتي العزيزة (التي لو كانت عائشةً اليوم لَسَبقَتْ الشيخ الزنداني باكتشاف علاج مرض الايدز، لَكتبَتْ على غرار داروين

«أصل الأنواع»، الخاصَّ بالجنِّ والعفاريت، ولَشَفَّرتْ وخطَّطتْ ودرسَتْ لِوحدِها كُلَّ «جينومها» وحالاتها النفسيّة!...)

ضحكتُ دوماً من تلك العادات الوثنيّة لاسيما وأني كنت لا أجد في الأشكال التي تريني إياها صديقتي التركيَّة غير خرابيش في خرابيش (وجدتُ مرَّةً واحدةً لا غير شذراتٍ من الشكل الهندسيِّ المُستَخْدَم لِبرهنةِ نظريةِ فيثاغورس في دروس الهندسة في المدرسة الإعداديَة، والمركَّب من مثلثٍ قائم الزاوية تتكئُ على أضلاعِهِ مربَّعاتٌ تتواصلُ بعضُ رؤوسِها بخطوطٍ مستقيمة!)...

الحقُّ أنهُ منذ أن أراني صديقي شهاب «حَشرَةَ تسبيح الجدران»، في تلك الليلة العدنيَّةِ المُلهِمة، صرتُ شديدَ النفورَ من كلِّ أنواع الخزعبلات والخرافات، مفرطَ الحساسية من تسرُّبِ فيروساتها وأفيوناتها... صرتُ علمانيّاً صارماً، مُتطرِّفاً أحياناً!

حدَّثْتُ إلهام بتهكُّم عن طقوسِ قراءةِ فناجين القهوة هذه. لم تسخرْ منها عكس ما تصوَّرتُ، هي التي قطعتْ علاقتها بالجذور الجوهريّة لِثقافة القبيلة وطلَّقَتْ خزعبلاتها بالثلاث!... لم تُشاركني آرائي الحاسمةَ القاطعة أيضاً! فَضَّلَتْ، كما يبدو، أن تترك في أقبية روحِها غرفةً صغيرةً مُنعزلةً مُظلمة لِلخيال، للَّاعقلاني، للأسطورة. غرفةً «تُسبِّحُ جدرانُها» وبلاطُها وسقفُها كما يروق لها...

قَلبَتْ إلهامُ الكوبَيْن على الطريقة التركيَّة، بنظرةٍ مازحةٍ رقيقة...

كانت نظراتُها لي حانيةً ونحنُ على الشرفة! زاد في رأسي غُموضُ قُبْلَتِها المُغْلَقَةِ قبل قليل، لم أفهم أكثر من أيّ وقتٍ مضى لماذا لم تتفاعل حينها قليلاً... همسَتْ لي أيضاً بكلماتٍ رقيقة ونحن نجولُ بأنظارنا في الجهة المواجهة من الأطلسي، خلف الأفق، وكأننا نشاهدُ سواحلَ أمريكا التي كانت حينها تستيقظ

في ساعة الفجر... همسَتْ لي بكلماتٍ رقيقة، لم أسمعْها منها من قبل! إحمررتُ قليلاً، ذُبْتُ، والحقُّ يقال، كرَعويةٍ خجولة. صار 22 مايو 1990، بسبب تلك الكلمات، يوماً خالداً بالنسبة لي...

أعادَتْ فنجانَي القهوةِ المقلوبَيْن إلى موضعِهما الطبيعي. ناولتني أحدَهما دون أن تلقي نظرةً في داخله. حدَّقَتْ في الآخر وهي تسألني بِحُبٍّ استطلاعٍ أن أصفَ لها ما أشاهدهُ!...

لم تكن هناك هذه المرة خرابيش مُمَلْطَطَة، أو خطوطٌ تقريبيّة متداخلة بلا مدلول، مثل أكواب صديقتي التركيَّة. كان هناكَ قَلْبٌ واضحٌ جدّاً! مرسومٌ بِتماثُلٍ هندسيٍّ دون أدنى نتوء، لا تشوبُ شكلَهُ شائبة!...

لم تُثِرْني تلك المصادفةُ من قريبٍ أو بعيد، رغم صفاءِ شكلِ القلب ونقائه الكامل! ليس لأني لم أكن عاشقاً، بالعكس! بل لأَني لا أجدُ في الحقيقة ما هو أسخفُ من رمزِ القلبِ للتعبيرِ عن الحب: القلبُ مضخَّةٌ ميكانيكيةٌ لِتوزيع الدَّم لَا غيرَ!

أما الحبُّ-العشقُ-اللذَّة فهي سيمفونيةٌ معقَّدةٌ جدّاً لا علاقةَ لها بالقلب أو البنكرياس أو الحويصلة الصفراوية من شقٍّ أو طَرَفْ... مؤَلِّفُها ومُلحِّنُها: صانعُ المشاعرِ والهوى والرغبةِ والذكرياتِ والتفكير، ومسرحُها البيولوجيُّ الفذّ، أقصدُ: الدماغ، المخّ!... عازِفُوها: مليارات الخلايا الحِسِّيّة في الغُدَدُ (الحَشَفةُ، الخصيتان، البَظْر... آه، البَظْر! ذو الثمانية ألف عقدة عصبيّة: ضعفُ عددِ ما يملِكُهُ الرَّجُل! العضو الوحيد في الجسد الذي خلقهُ اللّه للمتعة فقط! لِلَّذة فقط!...) وتوابعُها وملحقاتُها من قضيبٍ وفَلَق (لعلَّ إحدى تجليَّاتِ عبقريةِ اللغةِ العربيّة تكمنُ في أن هذه الكلمة تعني أيضاً: الفجر. فَلَقُ المرأة = فجرُ البشريّة!) وأنسجةٍ بيولوجية مطَّاطيةٍ-مُخاطية، قاذفةٍ-راجفة، داخلةٍ-

خارجة... ظامئةٍ أبداً لكلِّ أنواع الدغْدغَةِ والرغْرغَة، المُداعَبةِ والمُلاعَبة، الرَّهص والمصّ، الفحس واللحْس، وكلِّ أشكال القُبلات واللمساتِ الإبداعية العبقريَّةِ المتجدِّدة... قبل قذفِها النهائي لِلزبدِ الكثيفِ الأبيض الذي يتفجَّرُ نافورةً دافقةً تذوبُ شآبيبها في الندى النسائي المُخصَّبِ الرائق: آه، هذا الرَّحيقُ المُزدوجُ الجذريُّ الذي تُدِينُ لهُ البشريَّةُ بالحفاظ على نوعِها البيولوجي وبقائها على المعمورة!...

باختصارٍ شديد: تلك سيمفونيةٌ طويلةٌ متشعِّبة تَعزفُها كلُّ الحواسِ الخَمس، سائرُ العضلات، الصلبُ والترائب، الجَهازُ العصبيُّ والهَيكلُ العظمي، القفصُ الصدريُّ والنخاعُ الشوكيّ، الألياف العصبية، الغددُ اللعابية والحبالُ الصوتيّة... حتّى الغدَّة الدرقيَّة تُدلي بدلِوها فيها!... كلُّ أعضاءِ الجسدِ تقريباً... إلا القلب! ناهيك أنه يمكن هذه الأيام أن يحيا المرءُ حياتَهُ كاملة، عاشقاً ولهاناً إذا أراد، بقلبٍ مُدجَّج بالبطاريات الإلكترونية! أو ربما، قريباً جدّاً، بقلبٍ صناعيٍّ مطَّاطيٍّ خالص مصنوعٍ من البلاستيك والشرائح الإلكترونية!...

لم أجد أيضاً إعجازاً ما في الشكل الهندسيِّ للقلب الذي رأيتُهُ في جوفِ الكوب. ثمَّةَ مليارات الأشكال المُفْتَرضة التي يمكنُ لِثفل القهوة أن يرسمها خلال سيلانِهِ البطيء. أحدُها شكلُ القلب. مصادفةٌ إذن لا أقلَّ ولا أكثر! غيرُ مثيرةٍ جداً في الحقيقة لأن ذلك الشكل، كما اعتدنا رسمَهُ على الجدران وفي الرسائل الغرامية الطفولية، ساذجٌ جدّاً، تافهٌ جدّاً، مفرطٌ في التبسيط، أقلُّ إعجازاً في كلِّ الأحوال من شذرات مثَلَّثات برهان نظرية فيثاغورس التي وجدْتُها في كوبِ صديقتي التركيَّة!...

مع ذلك، مع كلِّ ذلك، أفضِّلُ أن أسمعَ ممن أعشق عبارةَ «أنت قلبي!» على «أنت رأسي!»... أجِدُها أكثر رومانسيةً

بالتأكيد!...

ثمَّ نظرتُ لِلجهةِ المقابلة للقلب في جوف الكوب. كانت هناك خرابيش كثيرة. خرابيشٌ إذا نُظِرَ إليها بشكلٍ جزئيٍّ مُتفرِّق، لكنَّها، في شكلِها العام، أكثرُ إثارةً، أكثرُ تعقيداً وإعجازاً، أكثرُ إرعاباً، أكثرُ كمالاً...

ثبَّتُّ نظري داخل الكوب، لأَتحقَّقَ من أني لا أحلمُ من قريبٍ أو بعيد. لم أكن أحلم في الواقع، أخذتُ الوقت الكافي للتأكُّدِ من ذلك...

كنتُ في الحقيقة في أوجِ تركيزي تماماً وأنا أرى: شكلاً مُهيباً لِطائرٍ كاسرٍ مَقِيت، مفروشِ الجناحين، مخالبُهُ جَليَّةٌ مُخِيفة، يعطِفُ رقبتَهُ نحو الأعلى، يَلْعَقُ السماءَ بلسانٍ طويلة وكأنهُ نُقِشَ بِدبُّوسٍ دقيق، بِيَدِ فنّانٍ ماهر...

طائرٌ يثيرُ الرعب!

طائرُ الخراب!

كنتُ مبهوتاً حقّاً، منذهلاً جدّاً! شعرتُ بِلكزةٍ قويَّةٍ في مؤخرة علمانيَّتي المتطرفة... بِصفعةٍ حادَّةٍ على خدِّ غروري العقلاني، شديد التعالي... داهمني مزيجٌ من القلقِ والقشعريرة...

سألتني إلهام من جديد: ماذا ترى؟...

أدْخلْتُ طرفَي سبَّابةِ ووُسْطى يدي اليمني في جوفِ الفنجان بِسرِّية. حرَّكتُهما بِشكلٍ لا إراديٍّ حركتين سريعتين خاطفتين خائنتين ليختلطَ الحابلُ بالنابل! لتختفي هذه اللوحةُ الجداريّةُ الغامضة المرعبة! لِتتوقَّفَ «جدران» الكوب عن «التسبيح»! لِينمحيَ آثارُ هذا الهجوم اللاعقلانيّ الغيبيّ الشيطانيّ المباغت!...

ثمَّ ناولتُها الفنجان، مُعقِّباً:

- أووووه، لا شيء، لا شيء... خرابيش لا أكثر ولا أقل!

لم يكنِ القَدَرُ معي نزيهاً واضحاً شفَّافاً أميناً لِهذه الدَّرجةِ، قبل هذا اليوم، وهو يؤشِّرُ لي بِسبَّابَتِهِ نحو عَدُوِّيَ الجذريّ، المُطلق.

عَدُوِّيَ القَدريّ: طائرُ الخراب!...

الجزء الثاني

نظريّةُ الشَّـهقة

لم يعُدِ البَحّارُ يرى غيرَ صخورِ جزيرتِهِ
غيرَ السمكِ الميْتِ
وغيرَ طيورٍ متوحشةٍ قد تأكلُهُ يوماً...
لكنّ البحّارَ يفكرُ ثانيةً:
أوَلستُ أرى الآنَ المِرآةَ؟
إذاً وَهْماً كانت سنواتُ الرِّحلةِ...
وهماً كان نشيدُ البحر!

سعدي يوسف

أخذنا الطائرة في صباح 30 ديسمبر 1999 باتجاه البتراء في جنوب الأردن!... كانت في رأسي نزوةٌ «صغيرة» أتلهَّفُ لِتحقيقِها منذ سنتين: قضاءُ آخرِ ليلةٍ في الألفيَّةِ الثانية في خيمةٍ بدويَّة، تحت نجوم صحراء وادي رم في الأردن!... بعيداً عن ضجيج «خطأ سنة 2000» الذي يُهدِّدُ كمبيوترات الكونِ وكلَّ مصانعه وإداراته وطائراته! بعيداً عن ضجيج الليلة الكونيَّةِ الكبرى! بعيداً عن «يوم القيامة الصغيرة» التي ينتظرها كوكبُنا المسكين! بعيداً عن «ليلة الكريستال» التي ستحرقُ الأخضر واليابس!... قريباً من مواطن السحر والأنبياء والمتصوِّفين، في نقطة تعانق الهلال الخصيب بالشام ومصر وشبه جزيرة العرب، في قلب تلك الديار الجغرافية التي ظلَّت أبداً عاصمة ثقافتي الأولى، شغفي وعشقي الأزلي!... قريباً جدّاً من معبودتي الخالدة إلهام التي ما زلتُ، رغم كلِّ سنين حياتنا المشتركة، أجهلُ كنهَهَا الغائرَ تماماً!...

مُرهِقٌ جدّاً، بل قاتلٌ جدّاً أن تحيى ليل نهار، منذ عَشرِ سنوات، مع فتاةٍ اخترقَتْ كلَّ أليافِكَ العصبيَّة، صارتْ قُطبَ حياتك، مرساها ومجراها، مركزَها ومحيطَها، لُبَّها وقشرَتَها، محورَها ووعاءَها، نسْجَها ونسَغَها... عَشرُ سنواتٍ لم تتوقَّف

أثناءها ثانيةً عن الإعجابِ والولهِ بها، عن عشقِها المتأجج دوماً، عن الوَلهِ والسعادةِ لِمجرَّدِ رؤيتِها واستنشاقِها... وأنت مازلتَ تجهلُها تماماً، تجهلُ الذكريات الأليمة التي تسكنُها وتلتهمُ قاعَ أحاسيسها الخفيّة، تجهلُ الأسرار الكبرى التي تقتلُها أمامك ببطءٍ أخرس...

قبيل الذهاب إلى البتراء اعتذَرْنا لكلِّ الأصدقاء الذين اعتادوا قضاءَ ليلةِ رأسِ السَّنةِ في منزلِنا الذي اشتريناه في ضواحي باريس، إلهامُ وأنا، عقب بدء حياتنا المشتركة بقليل. كان ذلك المنزلُ بجدارة الموضعَ الأثير لحفلات رأس السنة، للأعياد والمناسبات المختلفة... صمَّمَتْهُ إلهام ونظَّمَتْهُ وتفانتْ في ترتيبه وإعادة ترتيبه مليون مرَّة بعبقريّةٍ ومثابرةٍ وحسٍّ فنيٍّ مذهل، لِيصيرَ وطنَها الكبير، وطنَها الوحيد، وجنَّتِي الصغيرة، جنَّتِي الأثيرة. لِيُصبحَ جزءاً من توازني النفسيّ، من هدوئي الذهني، من جهازي التنفسيّ ومكوِّناتي البيولوجية. لِيُصبحَ فعلاً فردوسيَ اليوميَّ الذي أجدُ فيهِ بهجتي وسعاداتي الصغيرة...

عرفتُ وأنا أعيشُ تطوُّرات وتغيُّرات ذلك المنزل كم هي فنَّانةٌ حقيقيةٌ إلهام، كم هي دقيقةٌ في بحثِها عن الإتقان، كم تطلقُ لِخيالِها العنان في كلِّ الاتجاهات والأبعاد بِجرأة، بِقوّة، بِحُرِّيَّة! قلبُها مُتْرَعٌ بالموسيقى، بالتناسق والانسجام والإبداع!... («الجنَّةُ لِمنْ أُتْرِعَتْ قلُوبُهم بالموسيقى!»، كما يقول الحاج الرُّديني الذي بلغَ هذه الأيَّام من الدَّهرِ عتيّاً وباتَ ينسى أحياناً أنَّهُ هو نفسَه مؤلِّفُ عبارةٍ كهذه، مُصِرّاً أنها... «حديثٌ شريف»!).

لعلَّها أخطأَتْ في اختيار مِهنتِها: كان بإمكانها بالتأكيد أن تكون مُهندِسةً معماريَّةً رفيعة، مصمِّمةً فنيَّةً راقية، بدل أن تكون مُدرِّسةَ رياضيات في مَدْرسةٍ ثانوية!... صار ذلك المنزلُ،

منذ أن أوقَفَتْ دراستَها في نَانْتْ بعد البكالوريس مباشرة وجاءت للحياة معي في باريس، مشروعَ حياتِها اليوميّ، تُحفتَها الفنيّةَ التي تَنْصَبُّ على تجميلِها وترتيبِها وإعادةِ خلقِها بِشَغَفٍ يومِيٍّ مُتجدِّد...

عن أيِّ نزوةٍ «صغيرةٍ» كنتُ أبحثُ في هذه الرحلة للبتراء ووادي رم؟ لِأَقُلِ الحقيقةَ عاريةً مُجرَّدةً دون كَبْتٍ أو خجل، رغم كراهيّتي الغريزية للحديث عن حياتي الخاصة! (أليست الكتابةُ «تَعَرِّياً أمام الأشباح»، كما يقول كافكا؟)... كان في قرارة نفسي حلمٌ واحدٌ لا غير: سماعُ شهقةِ إلهام عند الثانية عشرة مساءً من ليلة الألفيَّة! في ساعة الصفر! شهقةٌ تتفجَّرُ من أغوارِ غُدَدِها، من صميم أليافِها العصبيَّة!... في تلك اللحظة التي ترتعشُ فيها كمبيوتراتُ الكون، أردتُها أن تشعرَ بلذَّةٍ كثيفةٍ عارمة! أن ترتعش! ربّما كان ذلك أفضلَ هديّةٍ نُقدِّمها لِلكون، للألفيَّة الراحلة، للألفيَّة القادمة، للحضارة، لِلصوفيّة، لِلعلم، لِلهواء، لِلحريّة... وأجملُ «طُززز! » أيضاً لعالَم مجنوون يلهثُ وراء الكسب السريع، عجولٍ جدّاً، لا يستطيعُ أنْ يحيا منذ فجر التاريخ دون حروب، يسحق الفقراء والجياع، يعتنقُ دِين الليبرالية الاقتصادية وأسواق البورصة، يُكرِّس استغلال الدول الفقيرة...

آه! عليَّ أن أُوَضِّحَ سريعاً: كلُّ هذه النزوات الصغيرة طيِّبةٌ بريئةٌ ورائعةٌ جدّاً، غير أنها صعبةُ المنال لِتلك الفتاة التي بدأَتْ حياتَها المشتركة معي بِقُبْلةٍ مُغْلَقَة! لِتلك التي ظلّتْ مُنغلِقةً أبداً، مسلوبةً أبداً لأسبابٍ غامضةٍ غائرةٍ في ثقافةِ ويوميَّاتِ طفولتِها! لِتلك التي تمارسُ أبداً ما أُسمِّيهِ «عشقَ الضواحي»، «عشقَ التفاصيل الثانوية»!...

أشعرُ أنهُ ليس ثمَّةَ ما يعكسُ خريطةَ الأغوار النفسيّة

للمرأة، لاسيّما إلهام، أفضل من طريقةِ وطقوسِ ممارستِها العشقَ مع معشوقها!... تمتلئُ طقوسُ إلهام أثناء ممارسة العشق بباقةٍ هائلةٍ من التفاصيل اللذيذة المبدعة: الملايات الورديّة الأرجوانية الحريرية، الروائح المتنوّعة العبقة التي تمشطُ كلَّ جزءٍ من جسدِها بتخصُّص وتكاملٍ وإتقان، الروائح العبقريّة التي تنبعثُ من الوسادات، الإضاءة بمنهجيَّة، والاختيار الموسيقي أحياناً... كلُّ ذلك في غرفة نوم مُدجَّجةٍ بكلِّ الهدايا التي أهديتُها لها، بذَرَّاتٍ من فُتاتِ أوَّلِ خبزٍ ذُقناهُ معاً، بمتحفٍ لأنواع الورودِ التي قدَّمْتُها لها منذ بدءِ علاقتنا والتي صارت هياكلَ عظميَّةً مُجفَّفةً مُحنَّطة، بعيِّناتٍ من عُلَبِ كُلِّ شوكلاتةٍ أهديْتُها إيَّاها، بأحفوريَّاتٍ مُتنوِّعةٍ لِكُلِّ رموزِ تاريخِ علاقتنا، لِتاريخِ تاريخِها، وتاريخِ تاريخِ تاريخها... غير أن العشقَ يَتمُّ دوماً في الضواحي: لحظةُ الجماعِ المركزيَّة ليستْ لحظتَها المفضَّلة! لا تبحثُ عنها أو تحاولُ تجديدَها والإبداعَ في اختراعِها. تتحاشاها، تهربُ منها، تنتظرُ نهايتَها بفارغ الصبر إن لم تُعجِّل بإنهائها عمداً... تتخشَّبُ خِلالها بشكلٍ ملحوظ، يغيبُ وجهُها، ينغلق، يفقدُ استرخاءَه! تبدو كأنَّها تخفي أوجاعاً بيولوجيةً غامضة! عيناها تغرقان في الفراغ، تُحَمْلِقان في البعيد، في شيءٍ مجهولٍ تماماً... صِمْتٌ عُضْويٌّ أصَم يجتاحُها حينذاك. ثمَّةَ ألَمٌ سِرِّيٌّ يندلعُ على حين غرّة!... تخمدُ إلهام، تتحوَّلُ سلبيَّةً عجولةً مقتضبةً جدّاً أثناء تلك اللحظات المركزيَّة، هي التي تتوقَّدُ أبداً خارج تلك اللحظات، تُعطي كلَّ ما تملكهُ بتفانٍ وكرم، دون حسابٍ أو تقتير.

تُعوِّضُ غيابَ رغبتِها عن الالتحام وجهاً بوجه، وعزوفَها الحتميَّ عن الجماع المركزيِّ الجبهويِّ الطويل، تُعوِّضهُ بالبهارات! بالاستغراق بالنوافلِ القِبْليَّة والبعدِيَّة، بالقفز من الأولى إلى الثانية دون الالتقاءِ الصميمي! تغمرُني وأغمرُها

أثناء تلك النوافل بباقةٍ من اللذّات الصغيرة... غير أن كلَّ ذلك يظلُّ بؤراً مضيئةً في الضواحي. أما المركز فيظلُّ هشّاً، معتماً، فارغاً، شاغراً جدّاً... كم يُشبهُ ذلك بدِقّةٍ خريطةَ سيرةِ حياتِها في الطفولة كما رَسَمَتْها لي عند بدء تعارفنا: بؤرٌ ضوئيةٌ قرب محيط الدائرة، لكن المركز كتلةٌ تسبح في الظلام!...

لم أفهم أسباب ورعِها عن التألُّق في المركز وميولِها إلى التجديفِ في البهارات! فكّرتُ عَبَثاً في ذلك منذ خيبتي يومَ القُبْلَةِ المنغلقةِ على البحر. كان يُزعجني ويُؤرقني عدمُ استيعاب ذلك. أحسستُ أن إلهام، بشكلٍ أو بآخر، ليست سعيدة! لأني أؤمنُ أنهُ إذا كانت هناك صيغةٌ رياضيّةٌ لقياس مقدار سعادة المرأة، فأحدُ أهمِّ روافدِها ومكوِّناتِها: نوعيَّةُ جماعِها بالرَّجُل، صدقُ وعمقُ تفاعلِهما، ودرجةُ ثراءِ لذَّتِها وكثافتِها أثناء ممارسة العشق...

كنتُ أعزي عزوفَ إلهام أو انقباضَها أثناء العشق إلى ثقافةِ الكبتِ الاجتماعيِّ في اليمن، والجنسيِّ بشكلٍ خاص! إلى ثقافة التحريم التي يرضعها المرء هناك، لاسيماً الأنثى منذ الطفولة... قرأْتُ كلَّ كتب نوال السعداوي حول ذلك، تذكَّرتُ عبارةَ رامبو حول بلادِنا التي أسماها «جهنَّمَ النساء!»... تذكَّرتُ كارل ماركس الذي قال إن مقدار التقدُّم الاجتماعي في أيِّ مجتمع يقاسُ بمدى تحرُّرِ المرأة فيه! أو بعبارةٍ أخرى: الترمومترُ الذي يقيس ازدهارَ حياةِ المرأة، نماءَها، حرَّيتَها، وسعادتَها... يقيس في نفس الوقت تقدُّم المجتمع!...

حاولتُ أن أربط بين كلِّ تلك المؤشرات لأُفسِّرَ معاناة إلهام. عبثاً! لم أفهم استمرارية انقباضها حتّى اليوم، هي التي قطعَتْ علاقتها كلِّيَةً بجذور الثقافات الظلاميّة، هي التي انسلخَتْ وانعتقَتْ عنها تماماً بمحْض إرادتها، وتمرَّدَتْ عليها بجرأةٍ وصرامةٍ يلزمُ الانحناءُ والخشوعُ أمامهما... كيف يمكنها

أن لا تنال من اللذَّةِ أكثر من امرأةٍ مسحوقةٍ يدوسُها زوجُها كلَّ يوم، يفترشُها بعَجَلٍ وأنانيّة، يفرغُ حاجتَهُ فيها سريعاً في الظلام دون أدنى رقّةٍ أو وُدٍّ أو إنسانية، عندما لا يُهمِلها دهراً كاملاً تحت تأثير المفعولِ غير الفحوليّ لِتناولِ القات الدائم... كيف يمكنُ لإلهامَ أن تظلَّ كذلك بعد كلِّ هذه السنين من التحرُّر؟...

كان ذلك هو اللغز الذي لم أستطع الإجابة عليه!

مع إلهام حُرِمْتُ من أبهج لحظات الحياة: رؤيةُ اللذَّةِ الأنثوية في أوجِ تفجُّرِها أثناء الالتحام الصميميِّ العميق بين الذَّكرِ والرَّحِمِ، أثناء المواجهة العمودية الإيقاعية الطويلة الرقيقةَ، أثناء البحث البطيء عن تفاعلِ الحواس، ذوبانِها، توحُّدِها، فنائها...

لا أقصدُ كما فهمتُم بالطبعِ شهْقَات الأفلام الإباحيَّة الأشبه بلهاث الذئاب أو صرير الصُّفَّارات! كلّا! تلكَ شهقاتٌ زائفةٌ مسرحيَّةٌ صُنعيَّةٌ مُزْعِجة. ليست أقلَّ تمثيلاً من «رياضةِ المُصارَعة» التلفزيونية!... وإن لم تخلُ هي أيضاً في بعض الأحيان من المواهب الفنيّة والملكات الاستعراضية... ما أقصدُهُ هو عكسَها النموذجيَّ تماماً: الشهقات الحقيقيةَ العاشقةَ النقيَّةَ، صامتةً كانت أم مُدَوِّية! تلك التي تُردِّدُها كلُّ ثنايا وأعطاف وجوانح الجسدِ بتناغم وتلذُّذٍ ونَهَم!... تلكَ التي يتحوَّلُ الجسدُ خلالها إلى خفقان، إلى روح، إلى أثير، إلى تفجُّرٍ وفناءٍ صوفيّ... أقصدُ بكلمة علميَّةٍ مختصرة: لحظة «الأورجازم»، لحظة النعوظ وهزَّة الجماع، لحظة الفناء الثنائي في السماء الثامنة للعشق!...

أعترف أني أعشقُ هذه الشهقَة عِشقاً عارماً، مطلقاً، لانهائياً... هكذا أُفكِّرُ في الواقع: ليس ثمَّةَ في الحياة ما هو أعظمُ وأنبلُ وأجملُ وأحلى من شهقةِ الجماعِ التقابليِّ، الشهقةِ القويَّةِ،

الصادقةِ، النابعةِ من قاعِ المياهِ الجوفيَّة لِلَذَّة، من كلِّ قنواتِ وجذورِ وعُقَدِ النخاعِ الشَوكيِّ... ليس ثمَّةَ ما هو أقدسُ وأروعُ من التحديقِ في تقاسيمِ وجهِ المعشوقة في تلك اللحظات، في نظراتِها الحميميَّةِ السادرةِ الثاقبة، في زيغِ عينَيْها، إيقاعِ ثغرِها، تَكوُّرِ حلمتيْها، تدفُّقِ غُدَدِها، تَندِّي مهبَلِها، تبلُّلِ غِمْدِها، تَفَجُّرِ روائحِها...

كلُّ ما عدا ذلك هوامش أدبيّة!

لن أتحذلقَ هنا وأقول إنني أعشق رؤيةَ هذه الشهقةِ لأسباب فلسفيَّة أو أيديولوجية محضة! لن أغالي بالقول «إن المرأة التي تُعطي أبداً، تُكابد، تُنجب، تُضحِّي، تَتعذَّب، تُكافح، تَتفانى في إسعادنا... تستحقُّ منّا على الأقل، نحن معشر الرجال، أن نواظب على إسعادها وتكريم جسدِها الرقيق المخلص!» وما إلى ذلك من شطحاتٍ ذكوريَّةٍ فضفاضة فارغة! لن أُزايدَ بسؤالٍ مغرورٍ بليدٍ من طراز: «ألا تستحقُ المرأة ذلك هي التي، رغم كلِّ آلامِها ومتاعبها، تُطارَدُ منذ الأزل بكلِّ الويلات والاتهامات واللَّعنات: هي رأسُ الكيدِ والشرّ، ذُبالةُ الفتنة، هي منبعُ الخطيئة الأولى يومَ أن قَضمَتْ تلك التفاحة الصغيرة التي هرْوَلتْ بنا عموديّاً من جنَّةِ الخُلدِ إلى أرض البوار؟...» آيْ يَايْ يَايْ! كلُّ هذه الشقاءاتِ الأرضيَّة غير المتناهية من حُروبٍ وبلايا ومجاعات... من أجلِ تُفَّاحةٍ بسيطة اَسالَتْ لُعابَ جدَّتِنا حواء!

نعمْ، كلُّ ذلك شطَطٌ مُفرطُ الادعاء وأطروحاتٌ ذكوريَّةٌ مُختالةٌ بالنفس ليس إلا. لأن الحياةَ ملكُ المرأة! المرأة ملِكةُ الحياة! هيَ، أوَّلاً وأخيراً، جذوةُ العشق، نبراسُه، وعاؤهُ وكِتابُه! سفينتهُ وقبطانه! إذ لا حول ولا قوَّة للرجل دون رغبتِها، دون

مددِها وتفاعُلِها، دون رطوبةِ أحاسيسها ورقَّةِ نظراتها، دون خلجاتِ شهوتِها وتَبَرْعُم رغباتِها...

كلّا! أعشقُ لحظةَ الشهقَة الأنثويَّة بشكلٍ جارف لأسباب أجهلُها تماماً. أجِدُ لَذَّةً هائلةً برؤيتها لا أكثر ولا أقل! أحتاجُها دوماً... أعترفُ: هيَ ما كنتُ أتوخّاهُ من غَسَقِ وادي رم القُدسيِّ المُهيب، في ديارِ الهلالِ الخصيب الميثولوجيةِ! تمنَّيْتُ أن يسمحَ ذلك الجوُّ الحميميُّ لإلهام بالاسترخاء والانبساط وصفاء السريرة، بنسيانِ جِراحِها وآلامِها الدفينة، بالتحرُّر من كوابحها، بخَلْعِ عراقيلها الأزليّة، بالتوحُّدِ الطويل، التوحُّدِ الكثيف الجارف... لاسيَّما وأنَّها في رحلةٍ أخيرةٍ في ذكرى تعارُفِنا العاشر في 20 أكتوبر 1999، لِمدينةٍ بَحْريَّةٍ (فضَّلَتْ هي دوماً أن نحتفظ باسْمِها: «م...» لِذاكرتنا الخاصة، لنا وَحدنا فقط!)، كانت أكثر انطلاقاً وتحرُّراً من قيودِها العتيدة. أكثرَ حُضوراً وتحليقاً. كادتْ تَقتربُ من مقامات تلك الشهقةِ الصوفيَّة، أكثرَ من أيِّ وقتٍ آخر! أيُّ سِحْرٍ تمتلِكُهُ مدينةُ «م...» التي لم أتوانَ عن دعوةِ إلهام للعودة إليها، في أغسطس القادم، 14 أغسطس 2000، للاحتفال بعيد ميلادِها الخامس والثلاثين؟... فرحَتْ كثيراً بالدعوةِ ووافقتْ دون تردُّد!... فرحتُ أكثر منها لأني أعشق مدينةَ «م...»، مدينةُ الميعاد، مدينة إلهام المفضَّلة، مدينة أجملِ شهقاتِها!... لستُ أدري لماذا عادتْ من جديد لِطُقوسِها المتخشِّبة بعد رجوعنا من تلك المدينة إلى المنزل؟ أيُّ سِرٍّ ينطمرُ في أعماقِها وماذا يدورُ في رأسِها وفي كواليسِ حياتها؟ أيُّ حدثٍ مجهولٍ كدَّرَها من جديد؟...

يلزمني أن أتجرأ كثيراً لِأُفسِّرَ كيف أصبحتُ أتوقُ بشكلٍ جنونيٍّ لِرؤيةِ تلك الشهقة في عينيي إلهام، ولماذا يُقهرني

بل يُعذِّبُني كونُها صعبةَ المنال بالنسبة لها، إن لم أقُلْ غائبةً تماماً... يلزمني إذن أن أغمضَ عينيي وأبوح ببعض المفاصلِ الهامَّةِ في حياتي العاطفية السابقة لِإلهام!

عشتُ غراميَ الأول، الأقوى، الأكمل... غراميَ الحرّ، الطائش، العاصف، النقيّ... مع أليْس، في بداية أوَّلِ سنةٍ جامعيِّة.

لن أتحدَّث عمّا قبل إليس: عشقُ ما قبل الميلاد! أقصدُ: عبير، عشقُ طفولةِ عدَن! عشقٌ بلا شهقات عدا شهقة الحرمان والأشواق والعذابات! عشقُ الدهاليز، الرسائل المخفيَّة، الإشارات السريَّة، الانتظارات الطويلة، مواعيد الأركان البعيدة وكثبانِ خارج المدينة... عِشقٌ مذبوح: هربَتْ عائلةُ عبير خارج جنوب اليمن، ذات ليلةٍ من ليالي بدايةِ سبعينات عدَن (التي جثَمَتْ عليها حينذاك قياداتٌ تدَّعِي الماركسية، قبليَّةٌ نصف أُمِّيةٍ في الغالب. استنزَفَتْ صراعاتُها وسياساتُها عدَنَ سنةً بعد سنة، وأوصلَتْها إلى أعلى درجات الأنيميا، لاسيّما بعد أبشع حروبِها وأكثرِها غدراً وشراسة في يناير 1986...) هربَتْ عائلةُ عبير عقبَ «السبع الأيام المجيدة» في 1972 التي حوَّلَت الحياةَ في عدَن وأريافِها إلى مرْقَصِ مجانين!... انتهتْ القصة!

لن أتحدَّث أيضاً عن نزوةِ لذّةٍ هاربة، هوائيةٍ محضة، دون أدنى شهقة إلا شهقة الفرَح! أقصدُ نزوةَ تلك الليلة التي وصلتُ فيها جيبوتي في 1974 مع صديقي الذي رافقتُهُ لفرنسا وأنا في الثامنة عشرة. كنّا شابَّين، تعوي فيهما ذئاب جوعِ الحواس،

يعيشان باكورةَ أيام الانطلاق والحريّة! هاهما لأوَّلِ مرَّةٍ في حياتهما دون رقيبٍ أوَ عتيد، يعيشان سكرةَ الحُريَّة الأولى التي لا يمكنُ مقاومتها!...

كانت أوَّلَ ليلةِ عشقٍ جسديٍّ لي! الفندقُ جميل، والفتاةُ الحبشيّةُ مليحةٌ جدّاً، عذبةٌ رائعة! شديدةُ الرشاقة والدلال! اسمُها: دُنْيَا، بنفسِ عمري... لم أعرف في تلك الليلة أكثر من لذَّةِ تنفُّسِ جسدٍ أنثويٍّ رقيقٍ شفَّاف، لَمْسِ بَشَرةٍ عارية، اكتشافِ جغرافيةِ الأعضاء الحميميةِ والولَهِ بجمالِ تكوُّرِ نَهْدَيْنِ فاتِنَيْن... قبل التمرُّغِ والالتحامِ المرتبكِ في ذلك الجسدِ الكريمِ الرائقِ المضياف!...

وهبتُها أكثر مما طلَبَتْهُ من نقود لأنها كانت في غاية الطيبة، في غاية المنهجيَّة، في غايةِ الأدب أيضاً! ناهيك أنها هي التي قادتْ وبَرْمَجَتْ ووَجَّهتْ كل شيء! مَدْرَسَةٌ حقيقية!... لن أستطيع شكرَها بما فيه الكفاية على رقَّتِها وإبداعِها أثناءَ فضِّ بكارةِ شابٍّ أُمِّيٍّ جائع يكتشفُ جسدَ الأنثى لأوَّلِ مرّة... وعلى قُبْلَتِها الأخيرة لي وهي تودِّعُني قرب باب الفندق! قبلةٌ جميلةٌ طويلة على الشفتين، أمام الملأ، وسط الشارع، شعرتُ بعدها أني إنسانٌ آخر! قبل أن تأخذَ تاكسي يقودُها للمقهى الذي وجدتُها فيه... بانتظارِ زبونٍ آخر!... لم أنس في قرارتي أن اشكر أيضاً الشابَ اليمنيّ، الذي رأيتُهُ في جيبوتي بالصدفة، والذي دَلَّني على مقهى أوروبيٍّ هادئٍ فاخر لمحتُ فيه فاتنتي الحبشيّة الصغيرة!...

كانت أليْس أجملَ طالبات الجامعة قاطبةً باعتراف الجميع، أجملَ طالبةٍ رأيتُها أثناء حياتي الدراسية، إن لم أقُل أجملَ من عرفتهنَّ ورأيتهنَّ في حياتي حتى اليوم!... كلُّ شيءٍ ذَهَبِيٌّ فيها: شعرُها الممتدُّ حتى الورك، نظراتُ عينيها الزرقاء،

رقَّتُها، نقاؤها، صوتُها، جفونُها، كلُّ جسدِها، براءتُها، أحلامُها، ابتسامتُها، ضحكاتُها...

لا أدري لماذا اختارتني أنا شخصيّاً من بين سرايا طلبة الجامعة الذين يمتلكُ بعضُهم كثيراً من المواصفات الجمالية والثرائية والفنيّة والرياضية التي لا أمتلكها... ربّما لأني كنتُ «العصفورَ النادر» في سنتِنا الدراسيَّة: شابٌّ من مدينةٍ بعيدةٍ مجهولةٍ تثيرُ لُعابَها: عدَن! لاسيّما وأن هدف حياةِ أليْس (ومأساتي الكبرى في نفس الوقت!) كان مغادرة فرنسا إلى الأبد، باتجاه الهند أو الشرق الأوسط أو أفريقيا أو جنوب أمريكا...

هي أيضاً، من أوَّلِ يوم، أحبَّتْ اسمي: نشوان! ثمّةَ أحلامٌ لذيذةٌ يوقِظُها هذا الاسمُ فيهنَّ جميعاً! ما أجملَ تشابهاتِ فتياتِ كُرتنا الأرضيَّة الصغيرة!... لِحُسنِ حظّي أن والدي لم يُسمِّني: طارش، صدَّام، راصع، غَشْمِي، جاعم...

كانت أليْس من جيلٍ انفتحَتْ مسامعُه في الطفولة على هتافات متارس ثورة 1968 الشبابيّة الفرنسيّة، على أصداءِ شعاراتِها بتغيير الحياة، بالتحرُّرِ والانعتاق... كانت تطنُّ في رأسها وتُسكِرُها تماماً رغبةُ التمرُّدِ والحياة الحرّة، دون وصايا وقيودٍ آتيةٍ في الغالب من ظلمات العصور الوسطى وجاهلية التقاليد الدينية الرجعيّة... كانت كما يبدو تعرف تماماً سيرةَ رامبو الذي عاش في عدَن والحبشة، وبول نيزان الذي هرب في العشرين من العمر من «جحيمِهِ البرجوازي» في باريس إلى... عدَن! لكنها كانت تثقُ أنها لن تعودَ مثلهما إلى فرنسا، لأنها تنتمي بشكلٍ عُضويٍّ، رَحِمِّيٍّ، أَبَدِيّ، إلى مجتمعات الشمس، إلى بلدان السماواتِ الزرقاء المضيئة دوماً!...

كانت تسكنُ في منزلٍ في شرق باريس مع جدَّتِها. لِوالديها اللَّذَينِ يعيشان قرب مدينة الهافر الواقعةِ على بحر

المانش في شمال فرنسا، ضَيْعَةٌ زراعيّةٌ كبيرة. لم تكن تحبُّ إطلاقاً حياتهما الريفية، ولا حياتها الباريسية أيضاً. كلُّ شيءٍ يُغيظها في بلدان الغرب: البرد، المطر، الفردانية والذاتية الشديدة، الأنانية البرجوازية، التعالي، موقِع السُّرَّة، الانطوائية، الإسراف والتبذير، جهل آلام العالم الثالث، أو عدم الاكتراث بها، أو نقاشها والدفاع عنها في لحظاتِ التمضمض بنبيذٍ أُرستقراطيٍّ فاخرٍ فقط... لا تُفكِّرُ إلا في الهروب من الغرب نحو الشمس، نحوَ النجوم المتلألئة، نحو الصحراءِ الناصعةِ السماء، نحو البساطةِ الخالصة، نحو الحياةِ الاجتماعيةِ الخصبة... لا تهفو إلا لاكتشافِ العالَمِ والحياةِ البوهيميَّة في كلِّ أرجاء الدنيا قبل الاستقرار النهائَي في «بلدِ عجائب» تختاره بمحض إرادَتِها، وليس لأنَّها وُلِدت فيه! «بلد عجائب» موقِعُهُ الشَرقُ بالتأكيد، حيث كلُّ شيءٍ رائعٌ وساحرٌ في نظرِها، بشكلٍ مسبق، وإن لم تزرْهُ بعد!...

عندما يبدأُ شابٌّ مثلي في العشرين من العمر، يحملُ فوق كاهلِهِ كلَّ حرمان اليمن، عندما يبدأُ حياتَهُ العاطفيّة مع ساحرةٍ رقيقةٍ مثل أليْس فتلك هاويةٌ لا محالة! لأنها كانت مرعبةَ الجمال حقاً! إلهي، كم كانت جميلةً فاتنةً قاتلة! كم كانت رطبةً عذبةً رقيقةً ليِّنةً ملائكية! مِعطاءةً بشكل مذهل لا حدود له، وكأنَّها قرَأَتْ المُتَنبِّي وهو يقول: «إذا أنت أكرمتَ الكريمَ ملَكْتَهُ!...»

بعد ثلاثة أسابيع من اللقاء المستمر، من التسَكُّع والهيام في معظم أنحاءِ وسط باريس، من دعواتِ المطاعم الرومانسية والمقاهي الجامعية، من تبادلِ الهدايا الصغيرة يومياً، صرَّحنا بالحبِّ لبعضنا بتلقائيةٍ مفاجئة!... غير أنها فاجأتني بعد ذلك

مباشرةً بقنبلةٍ انشطاريّة: «في نهاية العام الدراسي سأغادرُ فرنسا إلى الأبد لزيارةِ كلِّ أنحاء العالم، لاسيَّما الشرق!» لم تكن الدراسةُ في الجامعة هَدَفَها إطلاقاً مثلما اعترفَتْ! بطاقةُ الطالبِ الجامعيِّ تساعدُها فقط، كما قالت، على الحصول على بعض التخفيضات المالية وعلى بعض الأشغال التي ستُسَهِّلُ لها السفر بعد عام!

أضافت أيضاً، بثقةٍ ودون تردُّد هذا المُلحق الصغير: «إذا كنتَ تُحِبُّني فعلاً... فَستسافرُ معي!»... أجبتُها بأننا ننظر في اتجاهين مختلفين: هي في اتجاه الشرق وأنا باتجاه الغرب! ذكَّرْتُها أنني «سافرتُ وغادرتُ تماماً عالَمي الشرقي لأبدأ هنا حياةً أخرى! قرَّرْتُ بمحض إرادتي أن لا أعود لِديارِ طفولتي، مع الصديق الذي رافقتُهُ إلى باريس لِمهام تجارية»، دِيارِ طفولتي التي تشتاقُ هي لزيارتِها والهيام في فلكِها حتى نهاية العُمر!... حاولتُ مراراً إحباطها عن مشروعِها في السفر النهائي. قلتُ لها بالحرف الواحد إن مشروعها لا يخلو من «الطيش الكامل»! اقترحتُ لها أن تقوم بدلَ ذلك بزياراتٍ سياحيّةٍ طويلةٍ مؤقَّتة. عبثاً! حاولتُ أيضاً إقناعَ نفسي بأنها لن تتجرأَ كَفَتَاةِ السفرَ وحيدةً والتنقُّلَ بين قِفارِ العالَم وسِباعِه، ستستقيلُ من مشروعِها طوعاً في آخر لحظة، أو ستعودُ سريعاً من سفرِها خائبةً مُحبَطَة...

الحقُّ أننا كنّا فعلاً طائرَين ينظران باتجاهين مختلفين تتوسَّطُهما ساعةٌ رمليَّة! كنا نحيا كما يبدو لحظة لقاءٍ ينكمشُ قطرُها رويداً رويداً، تذوبُ أطرافُها، تضمحِلُّ، تتلاشى...

ذات صباح مبكِّر جاءتني أليْس على غير ميعاد إلى غُرَيْفَتي الصغيرة التي لم تزرْها قبل ذلك اليوم، والتي تقعُ في سطوح الدور الخامس في إحدى عمارات «الحيّ اللاتيني» بوسط

باريس! أصحتْني من النوم! مفاجأةٌ صاعقة! كانت تحملُ لي فطورَ الصباح الفرنسي الساخن: الفطائر الهلاليَّة (كرواسان)، فطائر الزبيب الدائريِّ، فطائر الشوكلاته، و«خبز القرية» الساخن الذي أموتُ تلذُّذاً في قرْقَشَتِهِ والتهامِه...

تناولناه مع شاي صنعْتُهُ بالحليب والجوز والهيل، على الطريقة العدَنِيّة. أعجَبَهَا كثيراً جدّاً. لعلِّي لو صنعْتُهُ بالثَّوم والفلفل والبسباس والزعتر فقد كان سيعجبُها أيضاً، لأنَّ كلَّ شيءٍ آتٍ من الشرق لذيذٌ بالضرورة! كانت لِفطورنا صُبْحَذاك لَذَّةٌ سحريَّة. كان أقدسَ صباحات حياتي! كان أخلدَ أيام حياتي قاطبة! أروعَها دون منازع! حتَّى نهاية العُمر!... مارسنا العشقَ فيه لأوَّل مرَّة، كالمجانين، وإن مارسناهُ بشكلٍ غير مِهَنِيٍّ تماماً، إن لم أقُل مارسناهُ أُمِّيَّيْن يتهجَّيان كلَّ شيءٍ تقريباً! لكنّا كنّا نتفجَّرُ حبّاً وعطاءً وصدقاً ورغبةً عنيفةً محتدمةً لانهائية في التوحُّدِ الدائم! نتفجَّرُ جنوناً وسكرة!... لم نغادر غرفتَنا إلا قربَ المساءِ لِنحتفلَ بولادةِ هذا العشقِ الصادقِ الشاهق، على مأدبةِ عشاءٍ في مطعمٍ رومانسيٍّ جدّاً، قبلَ أن نعودَ ونتمرَّغَ على بعضنا من جديد، متفجِّرَين نشوةً وطاقةً وسعادة!...

اكتشفتُ يومذاك فعلاً مركزَ البشريّة: الرَّحِم! عشقتُ على التو رائحةَ نسيم الفجرِ البحريِّ الذي تتدفَّقُ فيه! كان صعباً جدّاً البحثُ فيَ غابتِهِ الرائعة، في ظُلمتِهِ الجميلة، عن الجوهرةِ الدفينة: البظْر!... لم أكتشفْهُ بسهولة! لكنني تعلَّمتُ منذ ذلك اليوم أنه فعلاً أكثر مواقع الكرة الأرضية رقّةً وحاجةً للرقّة، للمداعبة، للمدح، للنظرات والقُبَلِ الطويلة العاشقة...

مثل كلِّ يوم تقريباً، ذكَّرَتْني، ونحنُ نتناولُ عشاءَنا، بمشروعِ سفرها وأنها تعتقدُ أو تأملُ بأنني سأسافرُ معها! كنتُ

أكرِّرُ، مثلَ كُلِّ يوم تقريباً، التذكيرَ باستحالة ذلك، وأحاولُ إحباطَ مشروعِها بشكلٍ أو بآخر...

بعد ما يقربُ من سنةٍ كاملةٍ من الحياة المشتركة المفعمةِ بالشغفِ والعشق العارم، عرفتُ معها اللذَّةَ الجسديَّةَ الكثيفة الحقيقية! لعلَّ سببَ تأخُّرِ ذلك هو الخللُ الإيقاعيُّ الذي تتركُهُ الممارسةُ المفرطةُ للعشقِ الفرْديِّ الانطوائي الذي أدمنْتُهُ، مثل معظم شبابِ جيلي، منذ بدء سنوات مراهقتي في اليمن! أقصدُ ممارَسةَ «التبذيرِ الوطنيّ للثروةِ المَنَويَّة الشعبية»، كي لا أقول: «الاستمناء» بشكْلٍ جاف!... كان عليَّ أن أتعلَّمَ إيقاعاً جديداً، عملاً ثُنائياً، موسيقىً أخرى! أن أُلاينَ جسدي برقصات «فَالْس» أكثر فأكثر تماوُجاً، أكثر فأكثر منهجيَّة! أن أبحثَ عن منظومةٍ جسديَّةٍ لميكانيكا حركة الجسد تنسجمُ مع تردُّدِ موجات جسدها، تتلاءم مع مزاجها! أن أتعلَّمَ كيف أعزف معها سيمفونيَّةً جسديّةً واحدة!... مرَّ التيّارُ منها ونحوها في نفس الوقتِ تماماً! مرَّ سريعاً جدّاً. اجتاحتني واجتحْتها بنفسِ الشدَّة، بنفس العمق، بنفس المدى...

شجَّعَتني وشجَّعتُها بكلِّ جرأة وحُريّة على اكتشافِ وترويضِ وتأهيلِ جسدَيْنا، على الذهابِ إلى أقصى نهايات رغباتنا، على تأجيج شهواتِنا ببطء، على تعلُّم قراءةِ لُغةِ وبلاغةِ أعضائنا الحسيَّة، على الاستجابة المتفانية لِنداءاتِ غُدَدِنا... تعلَّمْنا أن نُجِلَّ غُددَنا ونحتفلَ بها، أن نرسمَ من سوائلها سُحُباً وأوطاناً وكائناتٍ خيالية، أن نرتوي منها حتّى الثمالة...

عشقتُ بفضل أليْس سحرَ تلك الشهقةِ التي تحدَّثْتُ عنها، إكليلَ اللذة! صِرْتُ أبحثُ بتأنٍ وصبابة عن الوصولِ لذلك الإكليل كما يبحثُ الشاعر عن الكلمة المناسبة، وكما يبحثُ العالِمُ في الرياضيات عن برهانٍ أنيقٍ لِنظريَّتِهِ، وكما يبحثُ

العاشقُ الصوفيُّ عن لحظةِ الفناء الصوفِيّ... كم كانت أليْسُ في أوجِ رهافتِها وجمالِها عندما تذوبُ كاملةً في أتونِ تلك اللحظةَ. لِنظراتِ عَيْنَيْها الزرقاوتين، لِتقاسيمها السكرى، تعبيريةٌ يصعبُ وصفُها أو التقاطُها!... كانت تلك اللحظات، بفضلِ أليْس أوّلاً وأخيراً، غايةً في الجمال بحدِّ ذاتها، مُتعةً مكتملةً أموتُ رغبةً لِعيشِها بكاملِ حواسي، قبل أن تصيرَ هدفاً وجوديّاً، تحدِّياً شخصيّاً، إدماناً آسِراً، شَغَفاً جِذْرِيّاً، دغدغةً نرجسيّة...

لم يكن ذلك الإكليلُ سَهلَ المنال، بالعكس! كان دوماً خاتمةً لِروايةٍ طويلةٍ مُتعدِّدةِ الفصول. كتابتُها تتطلَّبُ كثيراً من الخيال وتنوُّع السيناريوهات، كثيراً من الشغف والعطاء والاستعداد والتفاني... تتطلَّبُ تعلُّمَ الإصغاءِ لِهسيسِ النملِ وَوَشوشةِ تفتُّحِ الورود...

لعلَّ ذَلك ما يفسِّرُ تعاستي وغَمِّي وقنوطي اليوم وأنا أرى إلهام محرومةً من ذلك الإكليلِ تماماً!...

في نهاية سنتِنا الدراسيّة الأولى لم تُوَفَّق أليْس. لم تمرَّ كثيراً من الامتحانات في الواقع. لم نبدأ العامَ الدراسي الثاني متواشِجَين في نفس القاعة كما كُنَّاهُ في العام السابق. لن نتواشج طويلاً لأنها بدأَتْ فعلاً تُحضِّرُ للسفر! كان كما يبدو تحدِّياً واختياراً وُجودِيّاً مُطلَقاً بالنسبة لها، مسألة حياةٍ أو موت!...

ذات ليلةٍ ليلاء تعيسةٍ جدّاً، لعينةٍ جدّاً، كانت أليْس تشعرُ بالتمزُّق، بالخوف، بالاضطراب النفسي الملحوظ!... توسَّلتْني السفرَ معها! كأنَّها كانت ستغادرُني فعلاً! لم أكن أُصدِّقُ مع ذلك، رغم بُكائِها الحاد المتواصل، أنني لن أراها بعد تلك الليلة... (أنا من قومٍ لا يُصدِّقون أن الكارثةَ ستحِلُّ على رؤوسهم

حتى لو كانت على بُعْدِ سنتمترٍ من أعينهم!... يعتقدون دوماً أن بروجاً حسنةَ الطلعة ستُغَيِّرُ مجرى الكارثة في آخر مليمتر، وأن سماواتهم السبع ستمطرُ مفاتيحَ فَرَج في آخر ثانية!...)

غادرَتْني في تلك الليلة الليلاء!... جسدٌ رقيقٌ يخرجُ من بابِ العمارة، يتوقَّفُ على بعد مترٍ مني! يستديرُ نحوي! يتوقَّفُ لِثوانٍ أخيرة!...

عينان زرقاوتان واسعتان شديدتا الجمالِ والحيرةِ تَتْرُكان نظراتٍ أخيرةً موجَّهةً نحو عينيي تحديداً. نظراتٌ هادئةٌ ثاقبة حتى في هذه اللحظات الوجودية الانشطارية!... تنطبعُ هذه النظرات بَصَمَاتٍ أبديَّةً في مركز الذاكرة...

سروالُ جِيْنس أزرق، فانيلةٌ بيضاء خفيفة، خصرٌ رهيف، جسدٌ ممشوقٌ من ذَهَب!...

تمثالٌ يديرُ قفاهُ من جديد بأعين حزينة، باتجاه المجهول. شَعْرٌ ذهبيٌّ حتى الورَك. وجهٌ ملائكيٌ في منتهى الدقَّة والروعة والنقاء. بَشَرَةٌ رقراقةٌ بيضاء تستدير، لا تلفتُ نحوي مرَّة أخرى! تذهبُ لا أدري إلى أين...

الحياةُ فريسةٌ مُطلقةٌ بيد الموتِ والأحزان!

كانت آخر عباراتها وهي تعودُ لِمنزلِ جدَّتِها قبل سفرها إلى... الهند، في اليوم التالي:

_ عاهِدْني أنكَ ستتبَعُنِي قريباً!...

كانت آخر عباراتي، وهي تُغلقُ البابَ بِصِمْت:

_ ...

عبارةٌ مكبوتةٌ أخرى لم تتجرأ حتّى أن تتحشرج:

_ عاهديني أنك ستعودين سريعاً!...

لم أبكِ تلك الليلة! لم أتوقَّع في الحقيقة أنها ستغيبُ طويلاً! غير أني أحسستُ وأنا أسترجعُ وأتمحَّصُ ذكرياتِها،

أحاديثَها، شخصيَّتَها، التزامَها بكلِّ وعودِها بشكلٍ مليمتريّ، وإصرارَها على ذلك السفر اللعين الذي لم يتماوجْ أو يتأرجح أو يتزعزع أو يذبل لحظةً واحدة... أنَّها لن تعود فعلاً! خِفْتُ عليها كثيراً من مفاجآت هذه المغامرة...

بعد أسبوع من غيابِها فقط استيقظتُ كهلاً عمرهُ ألف سنة. شعرتُ بالوُحْدَةِ الفظيعةِ تلتهمني... بكيتُ حينها فقط لأوَّلِ مرَّة مثلما بكيتُ وأنا في العاشرة من العمر عندَ وفاةِ والِدي! شعرتُ فعلاً أن حياتي دونها صارت جدباء كئيبةً قاحلةً مُملَّةً جافَّةً مُقرفَة... وأني لن أطيق فتاةً بعد اليوم! صار منظر وداعِها الأخير عند باب العمارة يسكُنُني ليلَ نهار...

أضحيتُ مستعدّاً لِعمل أي شيءٍ لرؤيتها! لِلِّحاق بها حتى لو كانت في جهنّم! أضحيتُ مثل «انتحاريي» حسن الصباح [6] الذين كانوا يذوقون مخدَّرين لَذَّةَ حورياتِهِ في مقصورات «الجنَّة الاصطناعية» التي اخْتَلَقَها خلف قصر «أَلَموت» في شمال إيران، ظانِّينَ أنهم قضَوا ليلةً مع حور العين في جنّات عدْن... ثم يفيقون تنهشهم رغبةُ «الاستشهاد» الانتحاري: طَعْنُ إمام أو سلطانٍ أو وزيرٍ سلجوقيٍّ بعد صلاة الجُمعة قبل قتل أنفسِهم مباشرة... على طريق العودةِ من جديد إلى أحضان حوريَّاتهم في دار الخُلْد!...

تَرَكَتْ أليْس جُرْحاً خالداً، بصماتٍ تخدشُ الذاكرة! ظلَّتْ غرفتي مسكونةً برائحتها أبداً! بالجوع لتلك الرائحة! ظلَّ جسدي مسكوناً بذكراها! مصنوعاً لأجلها فقط، لا يتنفَّسُ إلا بها، لا يتوثَّبُ إلا بها، لا يخفقُ إلا لها... ينتظرُها أبداً! لم أُغَيِّر شيئا من مواضع هداياها وأدواتها الشخصيّة حتّى بعد سنين من مغادرتها. كنتُ أنتظرها دوماً. لا أصدِّق أنها لن تعود بين اليوم والآخر! لكنها غابت وانقطعت أخبارُها دون أمل!...

بطاقةٌ بريديةٌ بلا عنوان تصلُ مرَّةً واحدةً فقط كلَّما

تَحُطُّ أليْس مطاياها في بلدٍ جديد! كنتُ أتَّصِلُ حينها تلفونيّاً بجدَّتِها التي تستلمُ بطاقةً مماثلةً في نفس الوقت. عبَرَتْ أليْسُ خلال سنتين ونصف الهند، شرق آسيا، تركيا، لبنان والأردن ومصر، شرق أفريقيا... ثمَّ توقَّفَ إرسال بطاقات البريدية منذ وصولها أرض كينيا...

بدأْتُ بعد زمنٍ طويلٍ من مغادرتها لي ما أُسمِّيهِ «زمنَ أنصافِ الجميلات»! علاقاتٌ فاترةٌ فاشلة كلُّ واحدةٍ أضجرُ من الأخرى! لعلِّي كنتُ أريدُ أن أؤكِّدَ لنفسي فقط بأنِّي مازلتُ أمتلكُ كلَّ حواسي كاملة، وأني لم أنكمش تماماً بعد، وأني لم أتحوَّلْ كَهْلاً وأنا في منتصف العشرينات!... كنتُ أبحثُ عن أليْس فيهنَّ على الدوام. كان معيارُ روعتهنَّ مقدارَ الشبهِ بها. لذلك كُنَّ دوماً غيرَ رائعات، تعيساتٍ في الأساس، بِشكلٍ جوهريٍّ حتميٍّ مُسْبَق!

لعلِّي بسببِ ذلك أيقنتُ أني سأجدُ صعوبةً في التنقُّلِ بين حور العينِ في دارِ الخُلد! تكفيني رائعةٌ واحدةٌ مثل أليْس مدى العُمر!... ربّما كان امتلاكُ سَرْبٍ من الجواري وخِدْرٍ من الحريم يثير لُعابَ الأعرابيِّ أيَّام الجاهلية، أما الآن؟!... ثمَّةَ صعوبةٌ ثقافيّةٌ في استيعابِ ذلك. أعترفُ أني، مثل كثيرينَ جدّاً، سوف أَجِدُ بسببِ ذلك كثيراً من الإحراج لاسيّما وأني لا أميلُ أيضاً لِمُعاشَرةِ الولدانِ المخلَّدين!... أخشى في الحقيقة أن تتعقَّدَ حياتي حينها. لأن تجربتي الشخصيّة في حياة الدنيا، خلال المرحلة الانتقالية بين أليْس وإلهام، لم تَكُنْ ناصعةً جليلة: تنقُّلاتها الجسديّة لم تكن سعيدةً إطلاقاً...

أُوْلَاهُنَّ عقِب أليْس، طالبةٌ استرالية، كادت تُصاب

بالجنون وهي تراني بعد ستَّةِ أشهر من ارتباطنا ما أزالُ أرفضُ أن أقولَ لها: «أُحبِّك!». الحقُّ أني لا أُجيدُ الكذبَ إطلاقاً! أمقتُهُ أكثر من أيِّ شيءٍ آخر! لعلّي لن أتجرأ البوحَ بهذه الكلمة السحريَّة لِفتاةٍ أُعشقُها فعلاً إذا كان ذلك التصريحُ سيهزُّ عرشَها الزوجيّ، سيدعَكُ إيقاعَ حياتِها وارتباطاتِها الغرامية أو الأُسَريّة! لكن يستحيلُ أن تنبثقَ هذهِ الكلمة من العَدَم، أو أن أفوهَ بها من فوق اللسان... لا يمكن لِمقاطعِها وذبْذَباتِها أن تتسرَّبَ من فمي خافتةً خجولةً مُشوَّشة. هي تخرجُ لِوحدها من خياشيمِ الروح، دون طلبٍ أو استئذان، أو لا تخرجُ أبداً...

مع أخرى، أمريكية، كانت العلاقةُ أكثرَ كارثيَّة! بعد أقلّ من 3 أشهر فاجأتني بالقول إنها حامل! خنقْتُ حينها في قفصي الصَّدريِّ هذه الصرخةَ المُدَوِّية: «أمُّ الجنّ!». فجيعةٌ لم تخطر ببالي يوماً! منطقةُ مطبَّاتٍ هوائيةٍ مفاجِئة! كِدْتُ أفقدُ أعصابي لأني لم أكن أحبُّ كثيراً هذه الأمريكية المسكينة!... لزمَ اللجوءُ لِكلِّ الوسائل والأساليب للإجهاض. ياللمسكينة حقّاً! صرتُ بين عشيّةٍ وضحاها أشعرُ بالخوف منها، وبكثير من الذنب. تعقَّدَ كلُّ شيء بعد ذلك! لم أحتمل بقاءنا طويلاً معاً. فرَرتُ بشكلٍ أو بآخر منها، كجبان، ك«سارق برَأسِهِ قُشاشة»، بدون كثيرٍ من الكياسة والأخلاق الرفيعة يجدرُ أن أقول!...

كدتُ أنسى هذه الحلقةَ المحمومة من حياتي لولا أنَّ ذكراها عادتْ إلى السطح بشكلٍ مُقرفٍ ومثيرٍ للرثاء بعد سنين من حياتي المشتركة مع إلهام. لأن الحياةَ أعاقَتْ إلهام من إمكانية الإنجاب حتّى الآن... لِتُضيفَ لآلامنا بُعْداً جديداً صار مع مرور السنين أكثر إثباطاً وضغطاً وكآبةً ومأساويّة... لم نعد نحتمل أن يظلَّ منزلُنا خالٍ من طفلٍ يملؤه ضحكاً وحبّاً وسعادة. أو من خمسة أطفال بالأحرى، كما كانت تحلمُ إلهام! صار ذلك

يضغطُ على أعصابنا، يؤزِّمُ حياتَنا أكثر فأكثر. تساءلتُ إن لم يكن في ذلك انتقامٌ من القَدَر لتلك الأمريكية المسكينة!...

أخرى، برازيلية، كانت تُحضِّرُ الدكتوراه في نفس سنواتي، وفي نفس المختبر. التقينا مرَّةً في إحدى صالات العمل عندما قالت لي إنها تريد أن نقوم بـ«بحثٍ عِلْميٍّ مشترك»! تناقشنا كثيراً، تناولنا العشاء معاً في غرفتي، واصلنا الحوار العلميّ والثرثرة الجانبية... ما أثارني في مواضيع حديثِها وتعبيراتِها وسلوكِها هو درجةُ عشقِها للُعبة كرةِ القدم وهوسِها لمتابعةِ أخبارِها اليومية، ومدى هيمنةِ هذه اللعبة على كلِّ شيء في حياتِها!... ترى كلَّ شيءٍ في الدنيا من منظور مباراة كرة القدم: طريقةُ تفكيرِها وعملِها، فلسفتُها، تفاعلُها وعلاقتُها بالآخرين، تفسيرُها للظواهر العلميَّة والأحداث اليوميَّة البسيطة... لاسيّما «البحث الجسديّ المشترك»! وَصلتْ لِهدَفِها هذا في نفس تلك الليلة، بهجوم مباشر على خطِّ المرمى!

التسخين، التدريب، البهلوانيَّةُ الجسديَّة، السيركُ الجسديُّ، الضرباتُ التمريريَّة المتوالية، ضرباتُ التَّماس، القلْبُ، الرفعُ، الركلات المباشرة، غير المباشرة... تجيدُها كلَّها بإتقان! تأتي كلَّ لقاءٍ جسديٍّ مدجَّجةً بسيناريو مُحدَّدٍ تُفكِّرُ به مسبقاً، بخطَّةٍ استراتيجية هجومية أو دفاعية... معها يلزمُك الرضوخُ كي لا تُخرجَ بطاقةَ الإنذار الحمراء وتطرُدَكَ من الملعب! معها يلزمُ قبولُ خَطّةِ اللعب حتّى وإن فضَّلْتَ المباراةَ المفتوحة، اللعبَ الكرويّ الحُر...

تبدأُ بعدَها مباراةُ كرةِ قدم حقيقيّة! تستخدمُ مصطلحات وبلاغةَ كرة القدم أثناء اللقاء الجسديِّ بوَعْي أو بلا وعي، لاسيّما «التسلُّل إلى خطّ المرمى» الذي تُعَاقِبُ عليه. تستبدلُ مواقعَ المرمى بين الشوطين! تميلُ كثيراً إلى تمديد

الشوطين! تحسبُ اللقاءَ الجسديَّ أهدافاً، تُعلِّقُ عليه، تناقشُهُ فنّياً، وتُحلِّلُهُ نقدِيّاً!... لم أكن أدري إذا كان يلزمني أن أضحكَ أم لا، وأنا ألاحظُ أن نبرات شهقتِها لم تكن تختلف كثيراً في بعض الأحيان عن رنينِ صُفارة الحَكَم، المتداخلِ مع صرخات أليفةٍ تُكرِّرُها أثناء مشاهدةِ المباريات: جووووووول! جووووووول! جووووووول!...

أفرغْتُ طاقاتي بالدراسة المُكثَّفة بين كلِّ علاقةٍ وعلاقة. تصوَّفتُ، تورَّعتُ، انصببتُ على التحصيلِ والتثقُّف والقراءةِ الدائمةِ! أهملتُ تماماً دراسةَ «نظريَّةِ الشهقة»! اعتبرتُها لن تأتي من جديد كما أبحثُ عنها، لأنَّها رديفٌ للعشقِ الصادقِ الجارف. لأنها ظِلُّ أَلَيْس لا غير... تناسَيْتُها تماماً قبل أن تعودَ اليوم هاجساً وهوَساً عارماً وأنا أعيشُ من جديد عِشْقاً صادقاً جارفاً! عِشْقاً مقصوصَ الجناحين مع صاحبةِ القُبلةِ المغلقة، إلهام. مع تلك التي تملأُ المنزلَ حبوراً وفرحاً وسعادةً ودفئاً، لكنها مسكونةٌ في أعماقها بِصقِيعٍ قُطْبيّ، بألمٍ داخلي، بوجعٍ عميق!...

إلهام جالسةٌ فوق صخرةٍ عالية في أحدِ سفوحِ جبال البتراء، في هذا الضُّحى الأخير من الألفيَّة الثانية. قامةٌ مَمشوقةٌ كتمثالِ «أُضحيةِ النيل» في المتحف المصري، تزدادُ مع مرِّ الزمنِ سحراً وجمالاً وجاذبية... بجانِبها حقيبةُ ظَهْريَ الورديَّة المكتظّةِ بقنّينةِ ماءٍ باردٍ وترموستٍ مملوءٍ بالشايِّ بالنعناع المُثلَّج.

وَضعَتْ إلهامُ على رأسها لأَوَّلِ مرَّةٍ منديلاً أحمراً فاتحاً أخفى جدائلَها اللولبيَّة ذات الخصلات الدائرية، وأضفى على طلعتِها نوعاً من الحزن. لاحظتُ دمعةً خفيفةً تُبلِّلُ عينيها، كما اعتدتُ عليهِ بين الحين والآخر منذ عشر سنوات دون أن أعرف السبب. تبدو إلهامُ لي حينها وكأنَّها أضحيَةٌ أبديَّةٌ بِيدِ الحزن! وحدُهُ القاهرُ الظافرُ في حياتها!...

غير أنَّ ابنةَ جبالِ ثُلا كانت هنا بين عناصرها الأوليّة. لِرشاقة «خطوتِها الجبليّة» فوق هذه السفوح أناقةٌ ونبلٌ وعذوبة. أشعرِ بالخجل وأنا أُرَاكِمُ وأجرجرُ نفسي خلفها عندما يلزمُ التسلُّقُ أو المشيُ على الصخر، أو الهيامُ في المتاهات البعيدة... هاهي تتنفَّسُ بِعُمق، تُثرثرُ في الهواءِ الطلق... تبتسمُ، تُحدِّقُ في أرجاء هذه المدينةِ المحفورةِ في صخورِ سلسلةِ جبالٍ عاليةٍ مُتراصَّة. مدينةٍ شبهِ أسطوريّة هائلة بنى فيها الأنباط حضارةً زاهرةً قبل ألفين عام. أضحتِ اليوم أحدَ أبدع «عجائب الدنيّا

السبع»، بجانب أهرام الجيزة ومعابد الأقصر، إن لم تكن أجملها إطلاقاً.

وصلنا البتراء في فجر آخر يوم من الألفيّة الثانية. تناولنا قبل دخولها فطوراً شعبيّاً في أقرب مَطعم صغير من بابها، أعاد لنا ذكريات الفول المصري، «الطعميَّة»، «الشكشوكة»، المُقبِّلات الشاميّة... بدأنا نخفق ذهولاً وإعجاباً بعد أن تجاوزنا الباب الرئيس للبتراء ووصلنا معبر «السِّيق». مشينَا فيه، وكأننا وسط ساندويتش، كيلومتراً من طريق ضيِّق، يمرُّ وسط صفائح من صخور جبليَّةٍ هائلة تكاد أن تتلامس... قبل أن نصل إلى مبنى «الخزنة» الضخم الرائع المحفور على واجهة جبل ضخم.

واصلنا السير: قصور، معابد، هياكل، أضرحة، قرابين، دير، أروقة، أقواس، متاهات صخرية، حمامات، صهاريج، قاعات احتفال، أسواق، صفوف من مدرجات مزخرفة، بوابات، ردهات، شوارع... كلُّها محفورة في أحشاء الجبال!

صخورٌ ورديَّةٌ تتماوج عليها ألوانٌ متعدِّدة: حمراء، صفراء، زرقاء... البتراءُ مدينةٌ ورديَّةٌ تسبح في الظلال. يتسلَّلُ هنا وهناك شعاعُ شمس يخترق بعضَ الشقوق والصخور ليرسم فسيفساء، لُوَيْنَاتٍ متباينة، ظلالاً متماوجة...

إلهام غارقةٌ في الصمت والذكريات المكتومة. أوَّلُ رحلة لها لدولة عربية منذ مغادرتها اليمن أيقظَتْ فيها مشاعر كثيفة لم أستطع سبرها أو إدراك اتجاهاتها. كانت مفتونةً، حائرة، سعيدةً، حزينة، هادئةً، مضطربة، قريبةً، بعيدة...

أحبُّ هذا الخلاء السيريالي! ثمّة أماكن على هذه المعمورة يلزم أن تكون كعبةً يحجُّ لها سائر البشر: وادي الإنسان في سرينجيتي، وادي الملوك وأهرام الجيزة في مصر، البتراء...

البتراءُ أفضلُ موقع لِحجِّ الجنّ أيضاً! إذا كان هناك جنٌّ وعفاريت وكائنات غير مرئيّة فعلاً فالبتراء أجمل موقع لمؤتمر سنويٍّ لها! كم أتمنى أن أحضر هنا، كعضو مراقب، مؤتمراً دوليّاً للجنّ والعفاريت! هاأنذا في ديار الأساطير. الأساطير حولي تتراكم بكميّات تجارية. قبر هارون أمامنا فوق أحدِ جبال الأنباط. قرية موسى. جبال سيناء ليست بعيدة من هنا حيثُ: ألواحُ النبيِّ موسى وعصاه، قبرُه (أو أحدُ قبوره، على الأحرى!)، الطريقُ الذي عبرَها ماشياً فوق الماء، طريقُ القوافل نحو الشام ومصر الذي عبرَتْه هوادجُ الملكة بلقيس حاملةً كثباناً (بحجم «سوق الملح» بصنعاء) من الكمون والفلفل و«حوائج الشِّرْكة» والبسباس والبخور والنَّد والعطور للملك سليمان (الذي كان لديه 700 زوجة و300 صديقة، كما يقول الكتابُ المُقدَّس...)، الطريق الذي مرَّ فوقه الجِنِّيُّ الذي اقتلع قصرَ الملكة بلقيس من مملكة سبأ وحملهُ إلى القُدْس، بأسرعِ من غمضةِ جفنِ الملكِ سليمان كما يقول القرآن الكريم. بأسرعِ من الضوء! ضارباً باينشتاين و«نظريّةِ النسبيّة» عرض الحائطَ...

أحبُّ هذه الديار المضرَّجة بالرموز والأساطير، القريبة من أهم البؤر المحمومة على كوكب الأرض: المسجد الأقصى، جدار الغفران، كنيسة القيامة، جبل الزيتون، الكعبة، بابل، أرض الفراعنة، وادي الرافدين، أرض الفينيقيين... القريبة جدّاً من توراة البحرِ الميّت، من سوق عكاظ، من غار حراء... هنا ازدحمت طرق الإسراءات والمعارج، هنا مرَّ كلُّ الأنبياء والشعراء والصوفيين، عشّاق الليل، الحكماء والمجانين... الأرضُ مُخْضَلَّةٌ هنا، دافقةٌ، مُثخَنةٌ بالتاريخ. كلُّ مترٍ مُربَّع معجونٌ بالذكريات، بالأشواق، باللوعات، بالصبابات، بالحرمان، بالحروب التي لم تتوقف، بالجراح التي لم تندمل... هنا الأطلال، التراب الأمغر، البحر الأحمر ذو

الزرقةِ الناصعة والشُّعُبِ المرجانيّة الساحرة. هنا الصحراء... التي نتوجَّهُ إليها الآن، إلهام وأنا، لِقضاء ليلةِ نهاية الألفيَّة، في خيمةٍ في وادي رم!

توجَّهنا باللاندروفر نحو وادي رم لِنصلَهُ قبل ساعة الأصيل. السيارة تمخر وسط هذا الخلاء السعيد. السماء شديدة الزرقةِ والنقاء، كما نعشقُها تماماً. إلهام تغرقُ في سحرِ المكان، يأسرُها، يعيدُها بِقُوَّة إلى أجواء طفولتها التي هربَتْ منها، يسحرُها، يملؤها رغبةً في الحديث عن ذكريات وأحداث قديمة طالما تحاشَتْها منذ أكثر من عشر سنين.

غمرَتْها الرغبةُ بالغناء! لست أدري لماذا تتفجَّرُ فيها هذه الرغبة دوماً عندما نرحل معاً في سيارةٍ وسط مناظر طبيعية فاتنة متلاحقة! غير أنها لم تتوقَّفْ عن الغناء هذه المرَّة. هاهي تُغَنِّي بِصوتها الرقيق العذب الذي يُسكرني دوماً ويوقظ كلَّ غدد آذاني، كلَّ غددي الحسيّة. تُغنِّي: «بنتِ الشلبيَّة»، «حبَّيتك في الصيف، حبَّيتك في الشتاء» لفيروز، «أنت عُمري!» لأم كلثوم التي لا أدري لماذا تغادرها دمعتان دوماً عند مقاطعها الأولى. (تغادرني عندهما دمعتان داخليتان، لا تراهما إلهام، وكأنهما إرجاعٌ لِصدى دمعتيها). غنَّتْ عدداً من أغاني فرقة «ناس الغيوان» المغربية التي تشجيني وتُخَدِّرُني على الدوام. غنَّتْ «وترْحَل!» لِطلال مدّاح الذي لو سمعها في قبرهِ لتنازل عن كل حقوقه في هذه الأغنية لإلهام. غنَّتْ «يا باهي الجبين!» لمحمد صالح حمدون، «يا مُكَحِّل عيوني بالسَّهر!» لمحمد مرشد ناجي، «أنت ساكن وسطَ قلبي!» لِمحمد سعد عبدالله (ذكَّرتني روعةُ أداءِ إلهام لِهذه الأغنية بروعةِ أدائِها لأُغنيةٍ شبيهة: Carry me like a fire in your heart! لِكريس دو بورج! كم خُلِقتْ

إلهامُ لأغاني القلبِ والمناجاة العميقة، لأغاني الحزنِ أيضاً...)
غنَّتْ «وامُغرِّد!» لعلي الآنسي، ثم «عليك سَمُّوني وسَمسَموني!»
لِمحمد حمود الحارثي، التي عرفتُ قصَّتَها من إلهام لأوَّلِ مرَّة!

عرفتُ أن مؤلِّفَها شاعرٌ من إحدى أكثر مناطق اليمن عذوبةً وتشرُّباً بالفن: كوكبان، اسمه محمد شرف الدين (توفّي في القرن السادس عشر، يُطلقُ عليه: عمرو ابن أبي ربيعةِ اليمن، لِحياتِهِ المُكرَّسةِ للشعر والعشق). كان شاعراً رومانسياً رقيقاً، بخلافِ بقيّة عائلتِه الارستقراطية التي انشغلَتْ بالحروب والصراعات السياسية. انتقلَتْ حياتُهُ من حُضنٍ لِحُضن، من عِشقٍ لِعشق... شاعتْ ذات مرَّةٍ إحدى قصصِ مغامراتِهِ الغراميَّة مع غادةٍ من ذوات الجمال، ووصلَتْ لِمسامعِ زوجتِه. رأت زوجتُه صحَّةَ ذلك «من صفحاتِ وجههِ ومن زلَّاتِ لسانِه»، كما قالت. أرادتْ إطفاءَ شكِّها باستحلافِه بالمصحف العظيم. حلف! ونظَّم بعد ذلك هذه القصيدة الغنائية مخاطباً عشيقتَهُ:

عليك سَمُّوني وسَمْسَمُوني
وبالـملامة فيك عذَّبـــوني
وجرُّوا المصحف وحلَّفُوني
وقصــدُهم بالنار يحرقوني!
حلفت: «ما احبك!» فكذَّبوني
وقبـــل ذا كانوا يصدقوني

لم تُنقِذهُ هذه القصيدة من ورطتِهِ بالطبع، بالعكس! «فضَحَتْ» عشقَهُ الجديد وقَسَمهُ الكاذب، وكشفَتْ براءَته وعُذريَّتَهُ وعدمَ مقدرتِهِ على إخفاءِ مشاعرِه عندما يُحب، أو بالأحرى عجزِهِ عن فهم عدم فهم الآخرين له! كان محمد شرف الدين، بامتياز، كما شَرحَتْ ليَ إلهام وهي تتذكَّرُ نُتَفاً من شعرِهِ العاميِّ أو الفصيح، شاعرَ الهوى والرقّةِ والجمالِ والعشقِ والمنادمة!...

غنَّتْ إلهام أغانٍ أخرى كثيرة أذكرُ منها أيضاً: «يا مُنْيَتِي، يا سلا خاطِري» لطه فارع، «مستحيل أنساك والله مستحيل!» لمحمد صالح عزّاني... قبل أن تُنهي أغانيها عند الاقتراب من وادي رم بأغنية أثارت دهشتي وطربي وشهيَّتي بِشكلٍ خاص: «هذه ليلتي!» لأم كلثوم...

أعشقُ السفرَ دوماً، أعشقهُ لِمجرَّد السفر! لِمجرَّدِ سيلانِ المناظرِ وتَدفُّقِها وتنوُّعِها! أمَّا سفرٌ كهذا، في يوم كهذا، في مناخٍ كَهذا، سفرٌ يهبطُ من قمم البتراء باتِّجاهِ رَحِم التاريخ ومنابِع الأساطير، على أجنحةِ صوتِ إلهام الملائكي، وسَط بريقِ السعادَةِ التي يتلألأ في عينيها... فهو سَفرٌ يترُكني مسطولاً مسحوراً إلى الأبد!...

الأصيلُ في وادي رم يتفجَّرُ أرجوانيةً وسحراً. هانحن في أوج سعادتِنا ونجومُ الصحراءِ تبدأُ تألُّقَها في جوٍّ ربانيٍّ مهيب. تَوجَّهنا نحو الخيمة التي حجزناها في مُنتجع سياحيٍّ قبل عام من الآن. كانت خيمةً بدويَّةً واسعة، جيّدةَ التَّدفئة والإنارة، مُطَرَّزةً بالخُدورِ والملايات المغزولةِ من صوف البادية. خدورٌ أصيلةُ الصنع تُوحي لي كأننا في هودج! قطائفُ بدويَّة، تُحفٌ وفسيفساء مَحليَّة، رفوفٌ تَنْتَصُّ عليها قنِّيناتٌ صغيرة مملوءةٌ بطبقات من مسحوق حِجارةِ جبال البتراء المُلوَّنة. تتداخلُ الألوان لِترسمَ أشكال وزخارف مُتنوِّعة.

استرعَتْ ناظري خمسُ قنِّيناتٍ مُتراصَّة، نُقِشَتْ في كلِّ قنِّينةٍ كلمةٌ واحدة، بهذا الترتيب: All you need is Love (كلُّ ما تحتاجُهُ هو العشق). في وسط منضدةِ مائدةِ الخيمة سُفْرَةٌ كريمةٌ من العسف مشحونةٌ بالتمر واللوز والمقبِّلات الشرقيَّة والفواكهِ الجَافَّة اللذيذة. وأخرى مكتظَّةٌ بالحلويات

الشرقيَّة والفواكه الطازجة.

خارج الخيمة ليلٌ صحراويٌّ قمريٌّ كثيف يأسرُ اللب، يريح النفس، يسري بالدماغ نحو سماوات بعيدة، نحو عوالم مجهولة، نحو رغبات بالهروب النهائي من هذا العالَم... هذا العالَمُ الذي يرتجف في الخارج خوفاً من كارثةٍ غريبة يمكنها أن تنفجرَ بعد ساعات قليلة من الآن، رغمَ مليارات الدولارات التي كلَّف تلافيها، اسمُها: «صِفْر الألفيّة»! لها سببٌ مثيرٌ للدهشة، غيرُ اعتياديٍّ في تاريخ الكوارث: مبرمجو الكمبيوتر كتبوا غالباً، في نصوص برامج الكمبيوتر، أربعةَ أرقام سنوات القرن الذي يوشك أن ينصرم برقمَين فقط، مُهْمِلين رَقْمَيِ الألف والتسعمائة! ناسِيين تماماً أنَ الزمن لا يحبُّ العَجَلة والاختزال، «يُمهِلُ ولا يُهمِل!» كما تقول جدَّاتنا الحبيبات...

كنتُ في غاية اللذّة! غمرتْني سعادةٌ مفاجئة أثناء دخولي هذه الخيمة، في هذه الليلة بالذات. حقَّقتُ نزوةً غالية! تضاعفَتْ أحلامي ورغباتي ونزواتي وأنا أُحدِّقُ في تفاصيلِ الديكورِ الساحرِ الذي يحتضِنُنا، في هذه الخيمةِ المغروسةِ في قلبِ باديةٍ رومانسيةٍ تُحيطها كثبانٌ من الرَّملِ الناعم الذي طال اشتياقي للتمرُّغِ فيه...

إلهام تبدأُ بعد وصولنا الخيمةَ بفاتحة فاتحاتها: العطر. تضع في طَرَفَي الخيمة شمعدانين جاءت بهما من المنزل. تولعُ شمعةً في أسفل كلِّ شمعدان، تصبُّ على الصحنِ الزجاجي الصغير الذي يعلو الشمعةَ الأولى قليلاً من عطر الفلّ، وعلى الثاني قليلاً من عطر العنبر. تولع الشمعتين. تنبعث على التو رائحةٌ عطريَّة دافقة يُؤجِّجُ سحرَها اتقادُ الشمعتين المتواصل... ثمَّ تَضعُ شمعتين كبيرتين وسط منضدة المائدة.

تلي ذلك بالتحضير لمهرجان عشاءِ الألفيّة التي أعَدَّتْ تفاصيلَ برنامجه قبل السفر: تخرج قِنّينةَ الشمبانيا، علبةَ كافيار، عُلبةَ «كَبد البطّ المسمّن»، قطعَ سمكِ السلْمُون، قِدْراً من وجبة «المنسف» الأردنية التي اشتريناها من أحد مطاعم البتراء، قنّينةَ نبيذٍ فاخرٍ جدّاً تعتَّقَ منذ زمن طويل بانتظار هذه الليلة...

هذه إلهام كما أعرفُها أبداً: جذوَةٌ دائمة! هي، في الخيمةِ أيضاً، نفسُ تلك الجذوةِ التي صمَّمتْ وطوَّرتْ منزلنا في فرنسا ليكون جنَّةً حقيقية: حديقةٌ عامرةٌ صارت كعبةً للعصافير، زرعَتْ كلَّ أشجارها ودوحاتِها المتنوعة بيديها الرقيقتين. روائح ورودٍ عبقةٌ تضخُّ في كلِّ أرجاء الحديقة، تتنوَّعُ في كلِّ مقاطعها. ساقيةٌ بديعة في ركن الحديقة... نفسُ تلك الجذوةِ التي قرَّرت أن تُحاطَ كلُّ الغرف الأرضية للمنزل بـ«فيراندات» (غرفٍ زجاجية تتواصل مع الغرفِ الأرضية) ليشتطَّ المنزلُ بالضوء الذي نشتاق إليه كثيراً في شمال فرنسا، نَشربهُ شُرباً، هي وأنا، أبناءُ المدنِ المضيئة. صمَّمَتْ ووجَّهتْ بناء تلك الفيراندات بنفسها. ملأَتْ كلَّ غرفِ ذلك المنزل بالضوءِ والعطرِ والموسيقى، بالتحفِ النادرة التي جلبناها من عشرات البلدان التي طفناها خلال سنوات حياتنا العشر المشتركة... كم ذبتُ إعجاباً طوال تلك العشر سنين وأنا أملأُ نظري، الذي لا يشبع، بها تتنقَّلُ بين الفيراندات والحديقة، بقامتها المشرئبة وخطوتها الجبلية، تدخل، تخرج، دون توقّف أو كلل، لتصميم شيءٍ ما، لتنظيف شيءٍ ما، لإضافة شيءٍ ما... تغمرُ ذلك المنزل جمالاً وعطراً وسعادةً دائمة!

ذهبَتْ للاستحمام. وضعَتْ فستاناً حريريّاً أبيض، رقيقاً جدّاً، شديدَ الجاذبيّة، يُخلِّدُ هذه الليلة الكونيّة التي لن تتكرَّر...

_ أتذكَّرُ اليوم أختي نعيم، بشكلٍ خاص!، قالت فجأة...
_ تتذكَّرينها كلَّ يوم كما أشعر! لا تتذكَّرين إلا هي...
_ أتذكَّرُها اليوم بشكلٍ خاص، لأننا كنا نرقص مع بعض في كلِّ رأس سنة!...
_ لم تخبريني بذلك من قبل! لم تخبريني أنك كنت تحتفلين برأس السنة مع أختك في صنعاء! لم أظن يوماً أن هناك من كان يعرف مناسبة رأسِ السنة أو يحتفلُ بها في صنعاء في تلك السنوات... لم تقُولِي لي حتى اليوم شيئاً ذا أهميّةٍ حقيقية فيما يتعلَّقُ بكلِّ تلك السنين...

تشعرُ إلهام بالانقباض عندما أواجهها بهذه الطريقة. لكنها أضافَتْ هذه المرة:

_ نفسي أن أرقص معها غياباً، الآن، هنا وسط الخيمة، كما كنا نرقص معاً في تلك الأيام!...

أخرجَتْ أشرطةَ موسيقى يمنِيَّة وشرقيَّة وغربيَّة متنوِّعة من حقيبةِ السفر، أراها لأوَّلِ مرّة! لا أدري إن وصلَتْها يوماً مع أحد الطرود التي تصِلُها من شقيقتها نعيم، أو إن كانت تمتلِكُها وتُخْفِيها دوماً! لا أدري لماذا لم تُسمعني إيَّاها من قبل أو تخبرني بوصول ذلك الطرد!...

عاد إلى ذهني لغزُ صندوقِ البريدِ القابع على مدخلِ حديقةِ منزلِنا: لاحظتُ مؤخَّراً كم تحرص إلهام أن تفتحه لفرز البريد من الصبح الباكر. كم تحرص أن لا يكون له غيرُ مفتاح واحد بحوزتها دائماً! تضع على مكتبي ما يهمُّني من البريد فقط. لا أدري ماذا يصل إلى ذلك الصندوق خارج ذلك!...

أعرف أنها قبطانُ المنزل، دماغُه ونبراسُه. «القيادة العامّة»، كما يحلو لي أن أُسميها من باب الإعجاب والمزاح.

غير أني لاحظتُ أنها قلقةً كلَّ صباح عند مقدم البريد. كما لو كانت تكتمُ شيئاً ما... يُحرجُها كثيراً إذا طلبتُ منها مفتاحَ الصندوق، أو نسخةً منه. تعرفُ كيف تُغيِّرُ موضوعَ الحديث حينها سريعاً جدّاً، أو تماطلُ في ذلك... ولأني أكرهُ تكديرَها، فقد أهملتُ الحديثَ عن ذلك الصندوقِ ومفتاحِه تماماً، وإن أيقنْتُ أكثر فأكثر أن سِرّاً ما يكمن في ذلك الأمر...

سألتُها: «متى وصلَتْ هذه الأشرطة؟» لماذا لم تسمعيني إيّاها من قبل؟ لماذا لم تخبريني بوجودها؟...» لا تحبُّ إلهام هذه الأسئلة الهجومية، وأنا لا أُحبُّ دَعْكَ مزاجِها في شيء إطلاقاً، أو رؤيةَ دمعتيها الصامتتين، المجروحتين...

بدأَتْ بِشريطٍ موسيقيٍّ صنعانيّ. إيقاعاتٌ جبليَّةٌ راقصةٌ بهيجة تخرجُ من أمغال الزمن، تملأُ الخيمة. إلهام في وسط الخيمة، شعلةُ جمال! تتوجَّهُ لِترقصَ مع توأمِها الغائب عن الحلبة: نعيم! تخلعُ حذاءها لِترقُص حافيةَ القدمين. فستانُها الحريريّ الأبيض الذي ارتدَتْه قبل قليل صُمِّم للرقص، صُمِّمَ لِجسدِها العبقريّ، صُمِّمَ لِلَّيالي الرومانسية الخالدة...

خارجُ الخيمةِ ليلٌ دامس، ظلامٌ عميم...

جسدٌ جبليٌّ مستقيمُ الظهر، بديعُ الخطوة، ليِّنُ التمايل، ميّادُ الاهتزاز، يكشفُ، لأوَّلِ مرّة بعد عشر سنين، أنه مَدْرسَةُ رقص! ذُهِلْتُ منذ البداية: إلهام تربطها بالرَّقْص، مثل السباحة، علاقةٌ عضويّةٌ حميمة! ترقصُ مثلما تسبح: بأَناقةٍ عالية. بَدَتْ سريعاً مِهَنيَّةً جدّاً، كأنها قضَّتْ كلَّ طفولتها ترقص! ما أتعسني وأنا أكتشف الآن فقط أني أجهل تماماً هذا البُعْدَ الجوهريَّ في هذه التي تملأ حياتي منذ عشر سنوات! من يدري: لعلّي أجهلُها تماماً هذه الحسناء الجبلِيَّة!...

لم أكن أُحبُّ الرقصَ الصنعانيَّ بشكلٍ خاص قبل ذلك. لأني اعتبرْتُه ذكورياً، شديدَ الانضباط... ناهيك أني لا أطيق منظر «الجَنْبية» الصنعانية المغروسة في حزام البطن، لاسيّما عندما أراها وسط حلبةِ رقص. لا أُحِبُّها إلا مُسَمَّرةً على الجدران، للزينةِ فقط. أعشقُها حينذاك. حينذاكَ فقط. أعترف مع ذلك أني أحبُّ الرقصَ الصنعاني كثيراً عندما أراه في أفلام الأصدقاء، فوق الجبال أو في المدن الجبليّة. هو رقصٌ نابضٌ يتفجَّرُ قوَّةً وفخراً، رقصُ مُحاربين وغُزاة. رقْصٌ جَبَلِيٌّ خالص، ينسجم مع القمم والبيئات الشاهقة، لا يجيده إلا ذوو الجذوع المتينة المستَوية، ذوو القامات العموديّة المسبوكة، من شكَّلتْ ولَايَنَتْ الأعالي أجسادَهم ومَنَحتْهم «جِيْنَات» الخفّةِ والرشاقة...

لذلك لا أستسيغُهُ كثيراً في جوٍّ بَحْريٍّ، أو قرب الشاطئ. هو لِلْجِبال مثل رقصة «الْلِيْوَه» (رقصة يمنيّة ذات جذورٍ مشتركة مع رقصات سواحل شرق أفريقيا) للبيئاتِ البَحريَّة. لكُلِّ مقام مقال: لا أستسيغُها هي أيضاً في مسرح جبليّ. لأنها رقصةُ الأمواجِ والكثبان، لها إيقاع البحر والشواطئ، لها رخوة الماء والرمل، حركات المدِّ والجزر... رقصةُ بحَّارةٍ يسبحون في الرمل، تتمايلُ أجسادُهم على إيقاع موجات البحرِ وهديرِه وأشيشِهِ الافتراضيّة.

الحقُّ أني لم أكن صائباً جدّاً فيما يتعلَّقُ بالرقص الصنعاني: لم أر فتاةً ترقصه قبل اليوم، لذلك ظننتُ أنه رقصٌ ذكوريٌّ بحت. غير أنه لا يصل إلى قمَّةِ حلاوته وعذوبته إلا عندما يكون أنثويّاً! آه، لو لم ترقصه إلا المرأة! يتغيَّرُ كلُّ شيءْ عندما ترقصه الأنثى، مثلُ بعض التجارب الفيزيائية التي يكفي تغييرُ شروطها الأولية لتتغيَّرَ نتائجُها تماماً: معادلةُ ذلك الرقص تختلفُ جذريّاً عندما يُستبدَلُ الانضباطُ والغزوُ الذكوريُّ بالغنجِ

والعطاءِ الأنثويّ!... أما عندما تكون الراقصةُ ذات جسدٍ جَبَلِيٍّ وبَحْريٍّ في نفس الوقت، مثل إلهام، فلِلمعادلة «جذرٌ تربيعيٌّ» يخرجُ من دائرة «الأعداد الطبيعية» إلى «الأعداد الخياليَّة» الخالصة! ثمَّةَ حينها بُعدٌ خرافيٌّ لذيذ، ثمَّةَ جمالٌ يخرج عن نطاق المقاسات البشريّة! ثمّة سناءٌ عبقريٌّ، إلهيٌّ حقّاً!

شعرتُ بالرهبة والدهشة وأنا أرى إلهام تبدأُ رقصَها الصنعانيَّ بمرحلة التمهيد، مرحلة «الدَّعْسة» كما تُسمَّى. نوعٌ من التسخين البطيء. كان جليّاً من تلك اللحظة أنها تمتلك مقدرةً هائلةً على تطويع جسدِها، على استرخائِهِ وتمويجِه. شعرتُ بالقرَفِ الشديد أيضاً لأني لا أفهمُ كيف تتحوَّل هذه الراقصة الصلصالية لَوحاً مُتصلِّباً على السرير! كيف يتحوَّلُ جسدٌ بلا عُقَدٍ كهذا إلى فوج من عُقَد... كم أجهلُ أسرارَها إلى الآن! كم هي باقةٌ من التناقضَاتِ والمفارقات!...

انتقلَتْ إلهام بعد مرحلة الافتتاح إلى إحدى أصعبِ مراحلِ الرقص الصنعاني، مرحلة «الثانية» كما تُسمَّى، التي تلي المرحلة التمهيدية. ينتقلُ الإيقاعُ البطيءُ الرتيبُ هنا إلى إيقاع التِحَامِيٍّ متسارع! حركاتٌ دقيقةٌ صعبةٌ متنوِّعة. ذُهِلْتُ وأنا أراها ترقُصُها على أُغنية «ليلُكَ الليلُ ياليل!» لِعلي الآنسي. شعرتُ أني أنتقلُ إلى عالم آخر! شعرتُ أيضاً بالخجل وأنا أراها تمتلكُ كلَّ هذه المواهبِ التي أجهلُها تماماً!...

ثمَّ انتقلَتْ، لِتزيدَ ذهولي، إلى مرحلة «الثالثة» في الرقص الصنعاني، أو «السَّارِع» كما تُسمَّى، ذات الإيقاع والحركات السريعة التي تتطلّبُ مواهبَ وتجربةَ مُحترفٍ في الرَقص، بسببِ حركات دورانِها الصعبة، لاسيَّما الهبوط المفاجئ للجسد في نوعٍ من الجلوسِ المُتحرِّكِ مع الدوران في نفس الوقت... رقصَتْ كلَّ ذلك بِدلالٍ مُدهشٍ على إيقاع أغنيةٍ ميثولوجية نذوبُ لِسماعِها

معاً، إلهامُ وأنا: «خَطَر غُصن القنا!»...

ها هي إلهام التي أعرفُها تماماً، عاشقةُ الهواءِ الطلق، ترقصُ بحُرِّيَّة، تمزجُ حركات الرقص التقليديَّة بحركاتٍ شخصيَّةٍ بحتة. تخلقُ، من ناحية، تنوُّعَاتِها الخاصةَ بين الحين والآخر، وتلتزمُ، من ناحية أخرى، بقوانين الرقص الصنعانيِّ وهي تراقبُ قَدَمَي توأمِها الغائب: نعيم، وكأنَّها ترقصُ بجانبها. ركَّزْتُ بدقَّة: لا تنظر إلا باتجاهِ القدمَين الافتراضيَّين لِنعيم، مثلما تُمليهِ تقاليد الرقص الصنعانيّ!

أثارتْني بشكلٍ لا حدَّ له: غَنَجٌ لا نهائي، ليونةٌ ونعومةٌ بديعة، مِهَنِيَّةٌ خالصةٌ... كانت تتمايل قرب نعيم، تنسجُ وإيَّاها حركات تقارب وتباعد، تجاور ودوران... كِدْتُ ألتهمُها! لم أجدِ المقدرة على التعبير. غابَتْ كلماتي، تحشرجتْ، تداخلتْ، تآكلتْ، تلاطمتْ... زاد شعوري بالقهر لِجهلي لهذه الملَكاتِ الجوهريّةِ الخفيّةِ! ردَّدتُ في أعماقي: ثمَّةَ شيءٌ غيرُ طبيعيٍّ في علاقتنا حقّاً! ثمّة أشياء غامضة كثيرة!...

لم أفهم بكثيرٍ من الأسى كيف يمكن لهذا الجسد الليِّن، الطريِّ، الريَّانِ، المرنِ، الرخوِ، العبقِ، أن يتصلَّبَ على السرير! لم أفهم لماذا لم أسمعْ مرَّةً واحدةً على السرير أنَّةَ الدَّلع الأنيقة التي تسرَّبَتْ في إحدى استداراتها الراقصة؟ (كانت تلك طريقتها الخاصّة بإصدار صوتِ «الكَسْكَسْة» الذي يرافقُ الرقصَ الصنعانيَّ حيث تتحرَّكُ اللسانُ والشفاةُ لِتُصدرَ صوتاً لَذيذاً جدّاً...) ما أحلى أنَّاتها الصغيرة التي سمعتُها قبل قليل بِنبرات صوتِها الرقراق العذب! لم أفهم كيف يمكنُ لِجَسدٍ مثل هذا، رَقْصُهُ أغنية، سباحتُهُ أغنية، مُشيُهُ أغنية، أن يصير أخرس، خامداً على السرير؟... لم أفهم كيف يمكنُ لِجسدٍ كهذا ينتقلُ بِمهنيّةٍ

وعذوبة بين مراحل «الدَّعْسة»، «الثانية»، «السَّارِع» (التي تلخِّصُ أفضلَ ما تُلخِّصُ حركات عاشِقَين في تلاحُم جَسَدِيٍّ طَويل، مُنَدِّياً كلَّ ذلك بأنّاتِ «الكَسْكَسْة» الغنجة) أن يكونَ أعجف، خريعاً، مُتَجَمِّداً، ضَاوٍ، أهبل، «مُلَخِّجاً» [12] على السرير... غير أني أعرفُ بالمقابل أن ثقافةَ تلك الجبال قامعةٌ قاسيةٌ في كلِّ ما يتعلّق بالحبِّ والجنس...

الثقافةُ الجنسيّة تنحصرُ هناك في عباراتٍ يَسرقُها سمعُ البنتِ خلسةً من همسات الأمِّ وصديقاتها أثناء أحاديثهنَّ الجانبية المكتومة، إذا ما تَمْتَمْنَ يوماً نُتَفاً طائرةً من حياتهنَّ الحميمية. الثقافةُ الجنسيّة لا تتجاوز التساؤلات والتفسيرات الذاتية التي تدور في رأس الطفل حول أسرار الحركات والأصوات الغريبة التي يسمعُها تأتي في بعض الليالي من سريرِ الأب! ما يثير الطفلَ حينها، بشكلٍ خاص، هو أن أمَّهُ، التي تنام بالضرورة في غرفةٍ مختلفةٍ عن غرفةِ الأب، لا تكون في سريرِها في كلِّ مرَّة يسمعُ فيها تلك الأصوات الغريبة!...

أمّا دروس الثقافة الجنسيَّة الرسميّة فتتلقَّاها البنتُ عشيّةَ ليلةِ زواجها فقط! تتلقَّاها من أُمِّها دفعةً واحدة، مُلخَّصةً بجملةٍ واحدة: البنتُ تخضعُ للرَّجُل، يفعل بها ما يشاء، يُشكِّلُها كيفما يشاء!...

عدا ذلك، صمتٌ تحريميٌّ شامل لكلِّ ما يتعلق، من قريب أو بعيد، بالحبِّ أو الجنس. قمعٌ متواصل يقتلُ انتعاشَ الجسدِ منذ الطفولة ويُكبِّلُه بقيودٍ أبديَّة. حتى التسريبات الجنسيّة التي تسمعها بنت المدن البحريَّة في الأحاديث العامة، في اللغة اليومية، في التعليقات والنكت الشعبيّة، هي ممنوعةٌ تماماً في هذه الجبال الجَلِفَة. ثقافةُ الاهتمام بالجسد أيضاً، بتعطيرِه وتبخيره، الشديدةُ الانتشار في المدن البَحْريّة، لاسيّما عَدَن، غائبةٌ تماماً

في ثقافة بنات هذه القمَم المعزولةِ عن العالَم. مُحرَّمةٌ بشكلٍ قاطع. كلُّ ما تتعلَّمهُ الفَتاةُ هنا هو التالي: قَدَرُها أن يكونَ جسدُها مادَّةً خامَّةً بيَدِ الزوج يشكِّلُهُ كيفما يشاء!... لذلك ينمو ويشيخُ مسلوباً، بارداً، ميِّتاً...

أتلك مأساة إلهام إذن؟ لا أظنُّ ذلك تماماً لأنها تمرَّدَتْ على ثقافة الكبت والتحريم، رَمَتْ بها عرض الحائط! غير أن الجسد، كما يبدو، لا يستعيدُ حياتَهُ المنهوبةَ لِمُجرَّدِ ذلك! ربّما يعرفُ الجسدُ كيف يُقاومُ الجمود، كيف يتعلَّمُ السباحةَ والرقص عاجلاً أم آجلاً، كيف يَحْكُمُ الفضاء ويُشكِّلُ الأشياء... لكنّهُ لا يعرفُ كيف يقاومُ الخراب. لا يعرفُ بَلْسَمَةَ جراحِهِ الغائرة بسهولة: الجراحُ العميقةُ تحكمُ الجسد، تقهرُهُ وتدمِّرُهُ في الغالب!

لماذا لا تتحدَّثُ إلهام معي في كلِّ ذلك؟ لماذا تخشى الحديثَ عن تربيتها، عن حياةِ طفولتها، وبشكلٍ خاص عن والدِها الذي ترفضُ الاقترابَ من ذكرِه، وكأنها تخافُه إلى أقصى حدود الخوف. كلُّ ما أعرفه عنه أنه كان شيخاً مرموقاً في تلك الجبال، قبل أن يعلوَ مقامَهُ فجأة ويزدادَ نفوذُهُ القبليُّ والعسكريُّ بعد مؤامرةٍ حقيرة وأحداثٍ سياسيّةٍ دامية جرَتْ في أكتوبر 1977 في صنعاء وبدأتْ طبخَتُها الأولى من منطقة ثُلا نفسها!... كلُّ ما لاحظْتُهُ أن إلهام تهربُ من الحديثِ عندما يتطرَّقُ لِعلاقتها بوالِدها. تبدو قلقةً حينها. يغدو الحديثُ بالنسبةِ لها شائكاً، مؤْرِقاً...

لماذا لا تُفضي كلَّ ما يضطرمُ في أعماقها بِضربةٍ واحدة؟ أليست الحياةُ المشتركة قبل كلِّ شيء تعاضداً ودعماً، بَوحاً وإفضاءً، مشاركةَ الآخرِ في السرَّاءِ والضرَّاء؟... أم هل هناك

مشاكل أخرى حديثةٌ جدّاً، لا علاقة لها بالطفولة، تؤرقُ إلهامَ وتستحوذُها تماماً: لماذا أراها قلقةً كثيراً جدّاً في الآونة الأخيرة؟ لماذا ألاحظُ ارتباكها في ساعة بحثِها عن بريد الصباح؟ ما سرُّ مفتاحِ صندوق البريد الذي تحرصُ على الحفاظ عليه بِسريّة شديدة؟...

قرَّرتُ أن أواجهَها بكلِّ هذه الأسئلة بعد قليل في هذه الخيمة، في هذه الليلة!

لا أُصدِّق عينيي! تنتقلُ إلهام من شريطٍ موسيقيٍّ إلى شريطٍ موسيقي، تستعرضُ مواهبها الرقصيّة بنشوةٍ عارمة! رقصاتٌ جِدُّ مُعقَّدة تُخرِجُها بإتقان نموذجيّ! ستظلُّ إلهام في ناظري: سعادةٌ تتحركُ عندما تمشي، عندما تسبحُ، عندما ترقص، عندما تنام... ستظلُّ عروسة البحر، عروسة الجبل، عروسة الصحراء... ستظلُّ تلك التي تستطيعُ إذكاء كلِّ الحواسِ الخمسِ في نفس الوقت: رؤيتُها متعة، صوتُها متعة، رائحتُها مَتعة، لمسُها مُتعة، مذاقُها متعة... ناهيك عن كلِّ الحواسِ الباطنيّة الخفيّة...

تشعرُ بلذَّةٍ هائلةٍ وهي ترقصَ. ترقصُ لِتعويضِ كلِّ السنوات التي لم ترقص خلالها. يحرِّرُ ذلك لاوعيَها منَ بعض قيوده. تشعرُ أيضاً بالنشوةِ وهي تراني أحترقُ إعجاباً بملَكاتِها... تشعرُ برغباتٍ أكثرَ فأكثر استعراضية! تنتقلُ من رقصٍ يمنيٍّ إلى رقص يمنيّ: حَضْرَمِيّ، لَحْجِيّ (ما أبدعَها وهي ترقصُ على أنغام أغنيةِ: «يا فُل، يا ورد، يا كاذي!»)... تنتقلُ من رقصاتٍ شرقيّة إلى رقصاتٍ غربية... كلُّ ذلك وأنا مبهوتٌ، مأخوذٌ، غير مصدِّق... لماذا لم ترقص قبل ذلك؟ أعرف أنها قطعَتْ علاقتها بثقافة طفولتها، لكن ما جريمة الرقص؟ أما كان بإمكانِهِ أن يكون ملاذَها، دواءَها من آلامها الداخلية؟... ما جريمتي أنا الذي أعشق الرقصَ من عمق أعماقي؟...

هاهي ترقصُ، ترقصُ، ترقص... فيما تصعدُ من لاوعيي الدفين ذاكرةُ علاقتي بالرقص منذ الطفولة.

عشقتُ الرقصَ صغيراً. كنتُ أذهبُ خلسةً مع بعض أصدقائي في المدرسة لمشاهدة رقصات «الْلِيْوَة» التي تقام في الخلاءات الرمليّة المحيطة بالشيخ عثمان في أطرافِ عدَن، في الليالي المُقمرة، احتفالاً بزواج أو إنجاب... دائرةٌ كبيرةٌ من الراقصين المحترفين تتماوج، تتمايل بحركات فنِّيَّة مسترخيَةٍ بطيئة، شديدةِ التناغم والترقرق، على أنشودات: «هَيَّا لَوِيْ! هيَّا لَوِيْ! يامْلَنْجَه!» ذات الجذور الإيقاعية الشرق افريقية...

لعلَّ رقصات الإنسان الأوَّل، جدِّ البشرية الذي عاش في مهد الإنسانية: شرق أفريقيا، كانت شبيهةً جدّاً بهذه الرقصة. كانت دائرةُ الراقصين الأوَل، كما يقول الانثروبولوجيون، تحفرُ حفرةً كبيرة تحيطُها بالعشب لِتُشبِهَ شكل فَرْج المرأة، الذي كان يَرْمزُ، في مُخيَّلةِ أجدادِنا الأفارقة، للإخصاب والعطاء! يدور الراقصون حول الحفرةِ في الليالي القمريَّة مُردِّدين أغنية الإنسان الأوَّل القديمة: «ليست حفرة! ليست حفرة! إنها فَرْج!»، التي يحلو لي شخصيّاً أن أظنَّ أنها هي نفسها (من يدري؟): «هَيَّا لَوِيْ! هيَّا لَوِيْ! يامْلَنْجَه!»: رقصةُ الفَرح والاحتفال بالإنجاب والخصوبة، الاحتفالِ بالفَرْج، الاحتفالِ بالفَرَح، الاحتفالِ بالطبيعة والحصاد والعطاء واللذَّة...

في المدرسة الثانوية كنت أحرص أن لا أغيب عن رقصة لِيْوَةٍ واحدة. عندما أسمعُ أن ثمَّةَ حفلةَ لِيْوَة في خلاءٍ ترابيٍّ من خلاءاتِ الشيخ عثمان أبدأُ بمغازلةِ أُمِّي وجَدَّتي! أُمَهِّدُ لحضوري الحفلةَ بإهدائهما ما أستطيع شراءَه من باقات الفلِّ [11]: أُمارسُ الرشوةَ يجدرُ أن أقول، كي يسمحا لي بالذهاب إلى الحفلة!

كانتا تَعلمَانِ كم أعشق ذلك الرقص ولا تُحِبّانِ كسر خاطري بوحشيّة. كانتا تَثِقَان أيضاً بأصدقائي الثلاثة الذين يرافقونني ويعشقون الذهاب مثلي للرقص هنالك.

كنتُ أَجِدُ لذَّةً ما بعدها لذَّة وأنا أذوب في خضمِّ الراقصين. حركات اللِيْوَة المتماوجة الرقيقة تنسجم مع إيقاعي الداخلي تماماً، تدغدغُ أحاسيسى الدفينة، تلامِسُها بحنو، تُحرِّرُها من كلِّ منغِّصَاتِها وقيودِها... كنت أصلُ قمَّةَ سعادتي وأنا أرقص اللِيْوَة تحت القمر، حتى مطلع الفجر، قبل أن أعود إلى المنزل متحرِّراً من كلِّ كوابحي وانقباضاتي، مُحلِّقاً في عوالم هوائية شديدة الرقّة، مترنِّحاً، سكراناً من الإرهاق اللذيذ والنشوةِ العامرة.

صرتُ أعتبرُ منذ تلك السنوات أن الرقصَ يمنعُ تصخُّرَ الجسد، يَرْوِيهِ ويغسلُه. الرقصُ صلاةُ استسقاءِ الجسد! دواؤهُ من تَصَدُّئِه! أن لا تَرقُصَ يعني أن تحيى كسيحاً بشكلٍ أو بآخر!

ما إن وصلتُ فرنسا وبدأتُ الدراسةَ الجامعيَّةً حتّى تجدَّدَتْ علاقتي بالرقص. كنتُ أذهب مع شُلَّةٍ من الأصدقاء مرَّةً كلَّ أسبوع تقريباً إلى قاعات المراقص الجامعية. أعيشُ من جديد أقصى لذَّتي حينها وأنا أنصهرُ بين جموع الراقصين. أنسى نفسي تماماً في معمعان الرقصات الشبابيَّة الحُرَّة. أعشقُ عشوائيتَها، صخبَها، تفجُّرَها... أشعرُ بشكلٍ أو بآخر أني أغسلُ جسدي ودماغي بالموسيقى والإيقاع، أتقيأُ كلَّ همومي وترسُّباتِها، ألفظُ أدراني، أتحرَّرُ من قلقي وتصلُّباتي، أحلُلُ عُقد مفاصلي، أنسى العالَم، أنطلق...

مع أَلِيْسْ تحوَّلَ الرقصُ إلى بحثٍ عن التناغم وتعلُّم سرِّ الحركة واستيعابِ لُغةِ الجسد... وحَّدَنا الرقصُ، عزَّزَ منَ انسجامِنا ومن عشقِ جسدَيْنا. كم كنتُ أهوى أن أرقص «الرُّوك» معها! يمتلئُ صدري بهجةً وفخراً ونحنُ نُزاوِجُ حركاتنا السريعة

معاً، نُروِّضُ جسدَينا، نتبادلُ النظرات التشجيعيّة القوية، نلهثُ، نبحثُ عن لحظةِ الفناء الصوفيّ... كنت أشعر أني أُخلَقُ من جديد! كم كنتُ أعشقُ أيضاً أن نذوب مع بعض في رقصات «السُّلُو» الرومانسية! كنتُ أتلذَّذُ في تنفُّس عطرها، أنفاسِها، في احتضانِها وهي ترقصُ وكأنَّها زهرةٌ يدغْدِغُها النَسيم...

لم تتوقَّفْ حاجتي الجوهريَّة للرقص بعد مأساة مغادرة أَلِيْس باتجاه الشرق. بالعكس! تحوَّل الرقصُ مشروعاً للهروب من مأساتي، مثلُهُ مثلُ القراءةِ والمثابرةِ المتطرِّفة في التعليم... أردتُ أن أتعلم أسرارَ الرقص ولُغاتِه الأكثر تعقيداً: «الفالس»، رقصات أمريكا الجنوبية... أردت أن أدرسَها وأؤدِّي مناسكَها بمنهجيَّة وليس كَثَوْرٍ يُناطح، أو خنزيز «يَتَبرْطَع»...

توجَّهتُ من أجل ذلك إلى «مَدْرسة رقص». دفعتُ اشتراكاً سنويّاً. كنتُ أتلقَّى بعض الدروس مرَّةً كلَّ أسبوع... غير أني توقَّفْتُ بعد أقلّ من ثلاثة أشهر. ليس لأن عشقي للرقص بدأ بالذبول، ولكن لعدم انسجامي مع طلبة تلك المدرسة. كان لهم دِينُهم ولي دِين: كانوا في الغالب إمّا رجالاً محرومين أو معتوهين يبحثون عن تعلُّم الإغراء والاستدراج والغواية أكثر من تعلُّم الرقص، أو نساءً وحَيدات يُثِرْن نفورَ الرجال لأسباب عِدّة، يَبْحثْن في تلك المدرسة عن حلٍّ سحريٍّ لِمشاكلِهن الوجوديّة وعُزلتِهن القاتلة...

ثمَّ هاأنذا أكتشف أن أجمل معلِّمةٍ للرقص في الكرة الأرضية هي هذه التي أحيا معها ليلَ نهار منذ عشر سنوات ولم أرقص معها مرَّة واحدة! هذه التي أكتشفُ اليوم فقط أنها في الرقص أيضاً تزخرُ بِملَكاتٍ مذهلة!... شعرتُ بِدلْوِ ماءٍ ثلجيٍّ ينسكبُ في نخاعي الشوكيّ!... إلهي، ما أتعسني! لِتبتلعني ظلمات صحراء رم! لترمي بي في بحر العدم!...

ما إن توقَّفَتْ إلهام قليلاً حتّى وجَّهتُ لها السؤال التالي:

_ كم أنتِ ماهرةٌ، مِهَنِيَّةٌ جدّاً! كنتِ ترقصين مع نعيم في رأس السنة فقط؟ أو في كلِّ ليلة؟

_ كنّا نرقصُ كثيراً جدّاً... تعلَّمناه معاً. كان وسيلتنا لمقاومة الشقاء، للنسيان، للهروب!...

كانت أوَّل مرَّة تتجرأُ فيها بتسريبِ شيءٍ جوهريٍّ يمسُّ طفولتها... استغلْتُ ذلك لدفعِ سدَّادةِ القنِّينَةِ أبعدَ بقليل. سألتُها على التو:

_ لِنسيان ماذا؟ لِلهروب من ماذا؟، نطقتُ سؤالي بنبراتٍ مُبِيْنَةٍ تعبيريّة تكشفُ رغبةً حادَّةً عتيدة ورجاءً كبيراً بِسماعِ ردٍّ مُفصَّل!

_ لم نكن سعيدتين جدّاً نعيمُ وأنا!... لا أحبُّ أن أضيف أكثر من ذلك.

طلبْتُ بإصرار:

_ يلزم أن أعرف لماذا!

_ لعلَّنا وُلِدنا تعيستين! يربطنا بالتعاسة والخراب تعاقدٌ منذ لحظة ولادتنا على هذه الأرض! لا أحبُّ أن أقول أكثر من ذلك! أشعرُ بالإرهاق الشديد الآن!...

- ليس طبيعيّاً أن أجهل أسباب ذلك إلى الآن. لا أفهم علاقةً يملؤها الغموض والتعتيم حول ماضٍ انقضى قبل زمن، كعلاقتنا هذه! يلزمُكِ أن تُفسِّري لي أسباب ذلك...

- نسيتُ تلك السنوات تماماً، مسحتُها من ذاكرتي، كما قلتُ لكَ ألف مرَّة...

أجَبْتُها بإصرار أكبر:

- لم تنسِها تماماً! انظري كيف ترقصين! ألا تشعرين بالأسف

كوني اكتشفُ ذلك الآن فقط، بعد عشر سنوات! ماذا تعني الحياةُ المشتركة عندما يكتشفُ الإنسانُ أشياءَ جوهريَّة في شريك حياته بعد عشر سنين؟... أريد أن أعرف نسيان ماذا، الهروب من ماذا...

أغاضَتْها أسئلتي وإصراري هذه المرَّة على معرفة الردِّ التفصيلي، رغم تكرار أسطوانتها عن نسيانها ذكريات طفولتها. انفجرَتْ دموعُها، صرخَتْ بلا وعي:

- ثمَّةَ أشياءُ لا يمكنُ الحديثُ عنها! ما ذنبكَ أنت لِمجرَّدِ أن تسمعها، لِمجرَّدِ أن تتخيَّلَ فقط كيف وقَعَتْ. لا أريدُ أن أكونَ سبباً في تألُّمِكَ لِوقوعها!... ثمَّ أني كما قلتُ لك ألف مرّة: قَبَرْتُ كلَّ ذلك، نسيتُ كلّ ذلك، يُنهكُني النبشُ في تلك المستنقعات...

احتضنْتُها لتهدأَ قليلاً. ألبستُها معطفَها الورديَّ الصوفيَّ الذي يُجْلِي فرطَ رشاقَتِها، وشَالَها الأسود. وَضَعتْ من جديد منديلَها الأحمر... حدَّقتُ في عينيها الكحليتين الواسعتين. إلهي، كم أجهلُ غابَتَي الأسرارِ التي تختفي في نظراتِهما!... أخرجتُها خارجَ الخيمة وأنا أحيطُها بساعدي. كانت تحملقُ في التراب!...

الغسقُ القمريُّ في أوجِ سكينتِه وسنائِه في هذا الفضاء الصحراويّ المقدَّس... جلسنا على الرمل! عندما ينظرُ الإنسان نحو بساطِ الرملِ الناعم، في قلب الليل، يبدأُ بالإفضاء، بالبوح: نظريَّةٌ معروفةٌ إلى هذا الحدِّ أو ذاك! لكنّها لم تكن قابلةً للتطبيق مع إلهام. لم تتجرأْ المسكينة أن تفضي قليلاً من آلامِها! لم تتجرأْ فتحَ ثُقبٍ في السياج المنيع الذي يُغلِقُ أسرارَها الدفينة وجراحَها الغائرة! كانت تخشى أن ينُطَّ من ذلك الثقبِ نحو وَجْهي أربعون ثُعباناً في نفس الآن!... لم تستطعْ حتَّى مواصلةَ حديثِها. شعرَتْ بالتعبِ المفاجئ. كانت ترتجفُ خوفاً من شيءٍ مجهول... كرَّرْتُ

سؤالي بهدوء:

- ماذا تعني الحياة عندما يخفي النصفُ الآخر آلامَهُ وجراحَهُ، ملكاتِهُ ومواهبَهُ أيضاً؟...

كرَّرَتْ ما قالته هي أيضاً:

- حياتُك أنتَ صافيةٌ نظيفة! لم تعرفْ يوماً الجراحَ الحقيقية، لا يمكنكَ أن تتصوَّرها! لم تعرف الوحلَ والخراب. لن أُكَدِّر حياتَك اليوم بهما، لن أُكَدِّرها أبداً. لن أسامحَ نفسي إذا جَعَلْتُكَ تتصوَّر المستنقعَ الذي عِشتُ أنا فيه! أُفضِّلُ العذابَ والانهيار على أن أكون سبباً في إدخال الوحلِ إلى رأسك! ما ذَنْبُك حتّى تتصوَّر لحظةً واحدة سنوات طفولتي في دماغك؟ نسيتُ تلك السنوات، لا أريدُ إثارتها. أكرهُ هذا الحديث تماماً... دفعتُ للشقاء والخراب أكثر من قسطي الوجودي بما لا يخطرُ على بال!... كلُّ ما أبحثُ عنه الآن هو الحياةُ بهدوءٍ حتّى نهاية العُمر! أبحثُ عن نِسيانِ ذلك، عن قَبْرِهِ كُليَّة! هل تَفهم؟...

عيناها جاحضتان تماماً، تنظران في العَدَم. كأنهما تراقبان وَحْشاً يختفي في مكانٍ ما! كأنَّ «طائر الخراب» الذي ترهبُهُ إلى أقصى حدود الرهبة، الذي أرضعَها الذعرَ والهلعَ منه منذ أوَّلِ سنوات حياتها، أوَّل أشْهُرِها (من يدري؟) ينظرُ نحوها بعَينين جهنميتين!... يمنعُها من مزيدٍ من البوح، يوقفُها عن الإفضاءِ الكامل... (من لم يرضعْ إرهاب «طائر الخراب» منذ أشهرِ حياتِهِ الأولى، منذ فجرِ طُفولته، لا يُمكِنهُ أن يتصوَّرَ معنى الرُّعب الحقيقي، الرُّعب المُطْلق!...)

لم استطع كتمَ ما يدور في صدري. أضفتُ السؤالَ التالي:

- بعيداً عن الطفولةِ وأحداث الطفولة، أراكِ قلقةً مرتبكةً متنرفزةً كثيراً في الآونة الأخيرة. هل تُخفينَ شيئاً ما؟ أوعديني أنك لا

تخفين عني شيئاً ما؟...

كنتُ أريد فقط أن أختتم حديثَنا بهذا السؤال لتبدأ مأدبةُ الألفيَّة وسهرتُها الخالدة بعد ذلك مباشرة! كنتُ أظنُّ أن ذلك السؤال هو «المخرجُ الايجابي»، كما يقول السياسيون، من هذا الحوار المغلق... قبل بدءِ سهرةِ العُمْر! قبل التحضير لمهرجانِ الشَّهقة! غير أنهُ كان العكسَ تماماً! لمس منطقةً مُلَغَّمةً حسّاسةً شديدةَ الغموض! جَنَيْتُ بهِ على نفسي، على كلِّ أحلامِ ليلةِ الألفيّة...

لم تَرُدّ إلهام على تساؤلاتي! انفجرَتْ بكاءً! كانت ترتجفُ، تشعرُ بالبرد الشديد في ذلك الشتاءِ الصحراويِّ الجاف القارس. عُدْنا إلى الخيمة...

لم نتناول عشاءَ الألفيَّة بعد. أرادتْ إلهامُ أن تستلقي على الفراش أوَّلاً. لم تتواصل الليلة بشكلٍ احتفاليٍّ باهر، كما حلمتُ منذ أمَد! لم تكن إلهام بحالةٍ نفسيَّةٍ جيّدة إطلاقاً بعد هذا الحوار. لعلَّ الرقص أذكى فيها ذكرياتٍ مطمورةً مؤلمةً جدّاً. أسئلتي أيضاً لم تكنْ واحةَ راحةٍ تَستظلُّ بها. داهمَتْها من كلِّ مكان، أرْدَتْها مُنْهكةً مكدودةً مُفْرَغَة... كانت تشعرُ بالإعياء الشديد، بالألم، وبأشياء كثيرة أجهلُها تماماً...

هاهي تتقلَّبُ على الفراش. لم أستطع تَهْدِئتَها. كانت مضطربةً كما لم تَكُنْهُ أبداً. الألفيةُ الثانية تغادرُنا من بابٍ صغير! تتركُنا في وضعٍ غير محمودٍ إطلاقاً...

في منتصف الليل، في الدقيقةِ المفصليَّةِ التي تقفُ بين قرنٍ وآخر، بين ألفيَّةٍ وأُخرى، لم أكن أُفكِّرُ في أن أسمع إلهام تُغرِّدُ شهقةَ العشق التي طالما تُقْتُ لِسماعها. كنتُ بدلَ ذلك، أُفكِّرُ في انفعالاتها واضطراباتها، أخشى أن أسمع شهقةَ بكاءٍ حادٍّ من

جديد، أو شهقةَ صدمةٍ صحِّيَّة!...

نامَتْ دون وعي! كانت تتقلَّبُ في كلِّ الاتجاهات! لُمْتُ نفسي كثيراً، لَعنْتُها، لأني سببُ دَعْكِ مشاعرِ إلهام. حاولتُ تهدئتَها. كانت أعصابُها مرهقةً جدّاً. تَفْلُتُ من رجليها المنقبضتين هزّاتٌ لاواعية بين الحين والآخر، تُؤَكِّدُ بأنَها مازالتْ منفعلةً تعاودُ غليانَها من آنٍ لآن، وإن كانت نائمةً كما يبدو مع ذلك...

على المنضدة قنِّينةُ شمبانيا، علبةُ كافيار، علبةُ «كَبِدِ البطِّ المسمَّن»، قطعُ سمك السلْمُون، قِدْرٌ من وجبة «المنسف» الأردنية التي اشتريناها من أحدِ مطاعم البتراء، قنِّينةُ نبيذٍ فاخرٍ جدّاً تعتَّقَ منذ زمن طويل بانتظار هذه الليلة...

في الخارج، هزيعٌ أخيرٌ من ليلٍ صحراويٍّ شديدِ البهاء... بعيداً عنَّا عالَمٌ يُعربِدُ محتفلاً بألفيَّةٍ جديدة. الشمبانيا تغمرُ الشوارع والمطاعم والطرقات. زبدُ الشمبانيا يطفحُ في ثنايا وأعطافِ وثغورِ وأفخاذِ الفنادق والفيلات والمدن المشتعلة والجزر البعيدة. شهقاتُ عشقٍ سكرى تملأُ الأفق...

هي ترتجفُ قُربي. حوريّةٌ تعشقُ الهواءَ الطلق، تحيى في الهواءِ الطلق. كبَّلَتْها الحياةُ بحبالٍ فولاذيَّةٍ سِرِّية تُقيِّدُ رِجْلَيْها في ماضٍ غامضٍ مجهول... أراها تتقلَّبُ على سرير الخيمة، بين الحين والآخر، باضطراب ملحوظ. فيما أُحدِّق بجانبها في العَدَم، وفي ساعتي التي تقتربُ عقاربُها من فجر أوَّلِ يومٍ من الألفيَّة الجديدة...

الطفلُ الذي نحلمُ بوصولِه، إلهامُ وأنا، ليتربَّعَ على عرشِ حياتنا، الطفلُ الذي تَنْتظرُهُ أجملُ غرفةٍ في منزلِنا منذ سنين، لن يكون تصميمُهُ البيولوجي في ليلةِ الألفية الثالثة...

«الكلامُ يُفْهَمُ من أوَّلِ نبراتِه!»، «نهايةُ القصَّةِ في بدايتِها!»، «القرآنُ في فاتِحتِه!»... أقوالٌ مُتعدِّدة لا أعرف مدى صحَّتِها، لكنها في تجربة حياتي الخاصّة مضبوطةٌ إلى حدٍّ كبير: ألم تَكن قُبْلةُ البدء، القُبْلةُ المنغلقة لإلهام في 22 مايو 1990، نذيراً قَدَرِيّاً شديدَ التعبيريَّة بانغلاق أحدِ فصولِ حياتِنا الأكثرِ حميميَّة؟... بالمثل، ليلةُ رأسِ السنة الأخيرة، رأسِ القرنِ والألفيّة، كانت هي الأُخرى نذيراً قاتماً بعام جديد لن يَخلو من الخيبات والأحلام الجريحة، إن لم يكن عامَ الخيبات والأحلام المغتالة بامتياز!

لم تستهل إلهامُ العامَ الجديد، منذ عودَتِنا إلى المنزل، كما هي عليه أبداً: جذوةٌ متألِّقةٌ خالصةُ الروعة!... داهمَها بانتظام مزيدٌ من القلقِ والأرق، مزيدٌ من الصُداع اليوميّ، مزيدٌ من الارتباك عند بدء كلِّ صباح، مزيدٌ من الانغلاق... إلا أنَّ إلهام، كما صمَّمها القَدَر، سعادةٌ أبديَّة. يكفي أن أراها تعبرُ أمامي بخطوتِها الهوائية، بجسدِها العبقريّ، بعبَقِها الأبديّ... لأشعرَ بالسعادة! حَكَمَ عليها القدرُ بالجمالِ الشفّاف الدائم، أدانَها بالرشاقة المؤبَّدة، بالإشراق والرقَّة التي لا تذبل. بالعطاء الدائم: لا تتوقَّفُ أبداً، عندما لا تكونُ أسيرةَ أوجاعِها، عن تفجيرِ طاقاتها في صياغةِ لوحتِها الإبداعيّة الخالدة: منزِلنا وحديقتِه. تحترقُ رغم آلامها من أجلِ صيانتِهِ وتحسينِهِ وجعلِهِ قطعةً فنيّةً متجدِّدةً

من الأناقة والتناغم والإذهال والهناء...

لم أبدأ أنا أيضاً عامَ 2000 على أُسُسٍ جديدة! لم أحاول هتك كلِّ أسرارِ إلهام. لم «أدقّ على المنضدة»، كما يقولون، لِفهم كلِّ ما لا أراه طبيعيّاً: تفسيرِ ما أسْمَتْهُ «مستنقعَ» طفولتها، سرِّ مفتاح صندوق البريد، نوبات ارتباكِها وقلقِها بين الحين والآخر... كنتُ أبحثُ بالتأكيد عن عدمِ جرحِها ودَعكِها، لكني تركتُ بالمقابل ألف جرحٍ وجرح ينزف فيَ الداخل! كان ذلك خطئي المطلق، خطئي الجِذْريّ، دون شك!

لستُ أدري في الحقيقة إن كان هدفي في الجوهر أن لا أجرَحها، أو إن كنتُ لا أمتلكُ الشجاعةَ الكافية لِمواجهة أسرارٍ وأشباح خفيّة، لِمعرفة جذر الغموض، لِلنزول إلى ميدان القتال، لِلهبوطٍ إلى المنجم؟... كنتُ أهربُ، أهربُ أهرب... أهربُ في قراءاتي، في أبحاثي العلميّة، في كتاباتي، في صداقاتي الواسعة، في سفراتي الجامعية الدائمة... لعلَّ شعاري في الحياة لم يختلف كثيراً عن شعار جدَّتي: «سَيُفرِّجُها أرحم الراحمين!». أو لَعَلِّي كنتُ دوماً شديدَ البراءة والسذاجة: لا أرى أبداً جراحاً تنزف، لا أرى غموضاً في شيء، أقبلُ الحياة كما هي بانتظارِ أن «يَحُلَّها ألفُ حلَّال»...

ثمَّ كان هناك ذلك الطفل الذي طال انتظاره! عشر سنوات دون بشائر. عُشْرُ قرْنٍ من الفشل! إلهام في الرابعة والثلاثين الآن، وأنا في الثالثة والأربعين! يصعبُ الصبر أكثر من ذلك، لاسيَّما وأن إلهام لم تترك علاجاً حديثاً ضدَّ العقم أو متخصِّصاً كبيراً في «الإنجاب بالإخصاب الصناعي» دون اللجوء إليه...

لم تكن الحياةُ شديدةَ اللطفِ والكَرم معنا في هذا الجانب. لأن إلهام كانت تحلم منذ بدء حياتنا المشتركة بخمسة أطفال،

وأنا بثلاثة! هيَّأْنا لهم كلَّ شيء. الحياةُ بِدونهم مقفرةٌ جرداء، تزدادُ كلَّ يوم ضنكاً وسعيراً! لم ينقص إلا توافدهم الأوَّل بعد الآخر! أو حتّى الأوَّل دون الآخر، أو الأوَّل لا غير!... لم يَعدُ هناك متَّسعٌ بيولوجي في عُمرنا الآن لِتصميم السربِ الذي حلمنا به. لم يكن أمامنا غير التبَنِّي أو الانهيار!...

تغيَّرتُ كثيراً: لم أعد منذ سنين حاجزاً أمام مشروع التبنِّي! أشعرُ بالخجل أنِّي كُنتُهُ يوماً عندما قلتُ لإلهام قبل أكثر من خمس سنوات أنني «لن أقبل طفلاً إلا من صُلْبِي، من حيواناتي المنويَّة!» استغربَتْ حينها كثيراً من هذا النوع من النعرات «المافوق قبليَّة» على حدِّ تعبيرها! استغربْتُ في الحقيقة من استغرابها لأني كنتُ أظنُّ أنَّ ما أصبو إليه طبيعيٌّ تماماً. أذكر دائماً تعليقَها الغامض المُكَثَّف في نهاية حديثِنا حينذاك. قالت: «رأيٌ غريب لم يخطر ببالي! غريبٌ جدّاً!...» ثمَّ صمتَتْ بعُمْق، لِتتركني أترنَّحُ في مطبَّاتٍ ثقافية، وأغرقُ في تساؤلاتٍ وجوديّةً مُربِكَة.

أما الآن فلا أفكِّر إلا بِتبنِّي طفلَين معاً، من أيِّ بقعةٍ من بقاع الكون! طفلَين من مئات ملايين المحرومين الضائعين المُشرَّدين على هذه الأرض. من أولئك الذين إذا لم يتم إنقاذهم من حياتهم التراجيدية فأمامهم مصائر غير بهيجة: التسوُّلُ والجوع، العملُ منذ سنِّ السابعة في منجم بعيد أو أقبية مصنعٍ سرِّيٍّ أو جاراج قصيّ، العُهرُ منذ الطفولة، الاغتصاباتُ المتتالية... لعلَّ إنقاذَهماً من الفظائع والمصائب التي تنتظِرهُما، وغمرَهما بالسعادة في أحضان إلهام وملكوتها، في أحضانِ أبٍ سعيدٍ بهما ومثابرٍ على إسعادهما، هدفٌ أنبلُ وأعظمُ من البحثِ المستحيل عن كَتابةِ ملحمةِ أمجادٍ بطلُها حيوانٌ مَنَويٌّ بارع...

ياللمفارقة! إلهام، ذات التربية الصنعانيّة القبليَّة، لم

تمتشق يوماً عائقاً فكريّاً ضد التبنّي! تقيَّأَتِ القبيلةَ وثقافةَ القبيلة منذ أمدٍ طويل وبوعي كامل. في حين ظلَّتْ ترتعُ في لاوعيي الدفين، أنا ابن المدينة، أشباحٌ تحملُ حِراب قبائل عصرٍ حجريٍّ تليد... مشكلةُ إلهام الوحيدة أنها ما زالت تتردَّدُ في اختيار لحظة التبنّي! في رأسِها عوائق غامضة من نوع آخر تحتاج لِرفعِها أوَّلاً كما يبدو! تتردَّدُ كثيراً. قامت من ناحيةٍ بكلِّ إجراءات التبنّي الإداريَّة، المعُقَّدة جدّاً في فرنسا، لكنّها لم تختر بَعْدُ البلدَ الذي سنسافر إليه بحثاً عن الطفل، ولم تُقرِّر موعدَ السفر. تنتظرُ أشياء مجهولة، تتوسَّلُ، بِصِمْتٍ سرِّيٍّ وأدعيةٍ ربَّانية خفيَّة، معجزةً تسمحُ لِطفلٍ أن يتفجَّرَ في مبيضِها بين عشيّةٍ وضُحاها، أن يسبحَ في دفءِ رَحِمِها، أن يرقص على إيقاع خفقان قلبِها، أن يَنبتَ في أضلاعها، أن ينْهَلَ من خلاياها، أن يتغذَّى من عروقِها... لم تُقرِّر إلهامُ بعدُ ما العمل! السنوات تمرُّ! لم نعدْ نحتمل الانتظار طويلاً...

كم كنتُ سخيفاً وأنا أُصرُّ، في سنوات حياتي الأولى مع إلهام، على رفضِ النسلِ الذي لا يُكرِّرُ الذاتَ النرجسيّة، الذي لا يُخلِّدُ القبيلة!... آه، صفاء العرْق! ياللسخافة!... كثيرةٌ هي الأفكار التي انغرست في قاع أدمغتنا منذ الأزل. منذ مهدِ الإنسان في شرق أفريقيا قبل ما يراوح السبعة مليون سنة. منذ ثقافته الأولى التي تشكَّلَتْ في أوساط مجاميع بشريّة صغيرة تكافح سباع وضواري الطبيعة من أجل البقاء، تهاجم ديار القبائل الأخرى، ترفع راية «روح القبيلة»، تؤمنُ بأنَّها خيرُ قبيلةٍ أُخرِجت للناس، لُغتُها أعظم لغة، عاداتُها وتقاليدُها هي الأفضل!... ياللبلاهة! كثيرةٌ هي المعتقدات الموروثة التي تتعتَّقُ، تترسَّبُ وتتجمَّد، تتخثَّر، تأخذُ هالاتٍ أكثر فأكثر قُدْسيَّة مع مرِّ الزمن، نُكرِّرُها ونرتِّلُها بِشكلٍ أعمى منذ أبد الآبدين، قبل أن نكتشف في لحظةٍ

ما أنها صغيرةٌ جدّاً، غيرُ ذات أهميَّةٍ إطلاقاً، إن لم تكن مُضحِكةً أحياناً لا أكثر ولا أقَل!...

لعلَّ اللّه اختار المرأةَ ملكةَ الحياة لِتُعلِّمَنا ذلك! لِتكشف لنا بلاهاتنا وتَرَّاهاتنا الصغيرة!... أتذكَّرُ لحظةً شبيهةً تخلَّيتُ فيها أيضاً عن أحدِ ثوابتي القديمة، بفضل المرأة! كان ذلك مع معشوقتي الأولى: أليْس!... كُنَّا نتناولُ العشاء في أحدِ المطاعم الجامعيّة. جَرَّنَا الحديثُ حينها إلى موضوعٍ غير مُسَلٍّ أو بهيجٍ جدّاً: الموت!... بكلِّ هدوء، قالت عاشقةُ الشَّرقِ الأبديَّة، أَلِيْس، إنها ستوصي عند موتها بإحراق جسدِها ونثرِ رمادِه فوق ثرى أهرام الجيزة!...

جنَّ جنوني! أسمعُ ذلك لأوَّلِ مرَّة. صدمَتْني تلك الرغبة بترميد الجسد! صدمَتْ في الحقيقة موروثاً مترسِّباً عمرُهُ ملايين السنين. قلتُ لها حينها بِسُخريَّتِي السوداء التي تعلَّمتُها منذ الطفولة: «أنت مجنونه؟! أو لعلَّكِ تريدين إحراق جسدك من باب «التسخين»، كدَورَةٍ تدريبيَّةٍ ليس إلا، لِتمهيدِه وتعْويدِهِ على نار جهنم بعد ذلك؟»

لم تمتعض أَلِيْسُ من تعليقي لأنها (مثل كل أبناء فرنسا، حيث لا تعترفُ الدولةُ والمدرسةُ العلمانية، منذ حوالي قرن، بأيِّ دِيْنٍ كان، بما فيه المسيحية!) لم تسمع شيئاً عن نار جهنم! أو نَسِيَتْ هذا الاسم إذا كانت قد سَمعتْ به يوماً ما في حديثٍ خارج المدرسة! ضحكَتْ بكلِّ بساطة لأنها وجدَتْ في تعليقي نكهةً شرقيَّةً لها روائح الأساطير، تروق لها كثيراً! لكنها استغربَتْ لماذا تقزَّزْتُ من فكرة إحراق الجسد قبل الموت!... قالت لي بكل برود: «ثمّة مليارات من البشر في بلدان أخرى تتقزَّزُ بنفس الدرجة من طقوس تركِ الجسدِ مأدبةً للديدان! لو وُلِدتَ في تلك البلدان لَتقزَّزتَ مثلها، منذ طفولتك، من فكرة ترك الجسد

يَرِمُّ ويتحلَّلُ أسفل التراب، ولَوجدْتَ إحراقَ الجسد طبيعيّاً جدّاً! أنا باختصار أشعر بالغثيان مسبقاً لِمُجرَّدِ أن يتحوَّل جسدي وعينيي أشلاءً نَتِنةً تتراكض فوقها فئران الأرض وعقاربها، تقضمُ شراييِنها وتمتصُّ مخَّ عظامها...» ثمَّ أضافتْ: «لم أختر ذلك لأسباب عِرْقِيَّة، أو لأنها عادات بيئةِ مولَدي لا غير!...» قبل أن تضيف، بعينين ترقصُ فيهما ابتسامةٌ ماكرةٌ لذيذة، عذبةٌ جدّاً، مُصوِّبةً سبّابتَها إلى صدرِها: «اخترتُ ذلك لأسبابٍ شخصيّة، ذوقيّةٍ وثقافيةٍ مَحْضَة!...»

لم نتناقش حول ذلك الموضوع بعد ذلك اليوم!... لا أدري أين تعيشُ أليْس الآن، هل سأراها يوماً، لكني أعرف أني اعتنقتُ فكرتَها لِوحدي، بعد حوالي 15 سنة من مغادرتها. ربّما لأني أحيا في ظلِّ عاشقةِ الهواءِ الطلق، ملكةِ العصافير، إلهام! صرتُ لا أتصوَّرُ أن يُدفَن جسدي في الوحل، أن يتورَّم في مستنقعات الطين، أن يكون مائدةً لِصراصيرِ الأرض وجراذينها وجراثيمها... أُفضِّلُ أن يتطهَّرَ بالنار، أن يتَّحدَ بالريح، أن يشربَ الضوء، أن يحملَهُ الهواءُ إلى أطراف الفضاء، إلى مقبرتِهِ الحقيقية: أوطان العصافير... ناهيك أني أكرهُ المآتم والمراسيم الجنائزية واحتفالات النحيب وطقوس العزاء الثقيلة...

مناسبةٌ عظيمةٌ تنتظرُنا في 22 مايو 2000: عيدُ ميلادِ توحُّدِنا العاشر! حَدَثٌ مُقدَّسٌ انتظرتهُ هذه المرَّة أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، لا تفصلنا عنه غير أسابيع قليلة. سنتحدَّثُ فيه طويلاً حول طاولةٍ أنيقة تتوسَّطها شمعتان جميلتان، في مطعم رومانسيٍّ نعشقهُ معاً، لأننا نحبُّ الاختلاءَ والحديثَ الحميميّ الطويل في المطاعم الرومانسية. نضحكُ كثيراً، نتنفَّسُ، نتفاعل بقوَّةٍ دوماً أثناء ذلك. نتبادلُ الهدايا الغراميَّة والمفاجآت. نكونُ أكثر

إصغاءً لِبعضنا، أكثر تجرُّداً من مشاكلِ الحياةِ اليوميّة ومهامِها الصغيرة، أكثر حلماً وحماساً ورومانسية، أكثر جَذَلاً، أكثر هوائية... ناهيك أن عشر سنواتٍ كهذه مناسبةٌ عظمى يصعبُ أن تمرَّ دون حدثٍ جوهريٍّ جديد في حياتنا يرتفعُ لِنفسِ المقام...

حجزتُ منذ أكثر من شهر وجبةً خاصَّةً تعشقُها إلهام، في أجمل مطعم رومانسيٍّ تُحبِّهُ! قرَّرتُ أن ينبعث في ذلك اليوم قرارٌ حاسمٌ يقلبُ حياتَنا رأساً على عقب، يُخرجها من طريقها المسدود. في البدء: تحديدُ موعدِ التبنِّي السَريع لِطفلَين في نفس الوقت، واختيار بلدٍ نسافر إليه بحثاً عنهما وترتيب أمور العودة معهما. اختيارُ موعدِ السفر. الإلحاحُ القويُّ الصارم على إلهام بالإفضاء بكلِّ خفايا معاناتها وأسرارها القديمة. النقاشُ التفصيليُّ لكلِّ ما يبدو غامضاً، مؤرقاً، مُربكاً لها...

كنّا بحاجةٍ جوهريَّةٍ لِجديدٍ يغمرُ حياتنا، لاسيّما وأن ربيع 2000 لم يكنْ أسعدَ ربيعٍ لإلهام، حتّى لا أقول أسوأهم قاطبة! لأوَّلِ مرّةٍ لم نغادر فيه فرنسا، خلال إجازة الربيع في إبريل، لِرحلةٍ سياحيّة، لأن إلهام لم تكن في حالةٍ صحّية تسمح بذلك! كنتُ مع ذلك مرهقاً جدّاً، بِحاجةٍ إلى رحلةٍ سياحيّة تنقيهية.

دعوْتُ الطبيبَ في منتصفِ ليلةٍ في شهر إبريل. كانت إلهام تشعرُ بأوجاعٍ شديدةٍ مفاجئةٍ في الصدر والقلب! تتقلَّبُ على السرير، تُتمتمُ أحيانا عباراتٍ ملخبطة. عيناها جاحظتان في الفراغ. لم أرهما يوماً كذلك. خفتُ كثيراً...

لم يجدِ الطبيب شيئاً غير الإرهاق والقلق الشديد. أوصى بعض المهدئات والفيتامينات لا غير. حاولتُ تهدئة إلهام بطريقةٍ خاصَّةٍ أحبَّتْها في معاناتٍ صِحيَّةٍ شبيهة (جميعها أقلُّ وطأة من هذه المرّة): قبَّلْتُها بِرقَّةٍ وحنان في أطراف أصابعها، في جفنيها،

في عينيها، في محاراتهما، في جبينها، في آذانها، في صدغيها، في خدَّيْها، في ثغرِها، في جِيدِها، في صدرِها، في نهدَيْها، في كلِّ جسدِها... قبلاتُ عاشقٍ ولهان يُذكيهِ إعجابٌ غيرُ محدودٍ بجَمالِ معشوقته اللامحدودِ. لم تهدأ إلهام هذه المرّة على غير عادتِها عندما أحاصِرُها وأُطوِّقُ عليها بأغلال الرقَّةِ والعشق. رتَّلتُ أمامهما أجمل عبارات الغرام، أكثرها وُجْداً وفتكاً وإثارة! لم تهدأ أيضاً! كانت تبكي، تشعرُ بالاختناق، تعصفُ بها مشاعر متناقضة... كانت في وضعٍ محير، غير أليف فعلاً...

22 مايو 2000 على الأبواب!

عدتُ من الجامعةِ مبكِّراً يوم الإثنين، 22 مايو 2000. لم تكن إلهام في المنزل. وجدتُ مفتاح صندوق البريد، الذي لم أرهُ منذ سنوات، في وسطِ منضدةِ غرفةِ الاستقبال! لمحتُ ورقةً صغيرةً مجاورة. كانت مكتوبةً بخطِّ إلهام، بالحبر الأسود، على صفحةٍ بيضاء سميكة. كتبَتْها بِقلم الحبر الثمين الذي أهديتُها إياه غداة نجاحها في امتحانات مسابَقات تدريس الرياضيات، قبل أن تحصل على وظيفتها الثابتة كَمُدَرِّسةِ رياضيَّات في ثانوية باريسية. تقول أوَّل فقرات الرسالة:

«في هذا اليوم بالذات، ونحن في المطعم، لن أجد المقدرة على التمثيل أو الإخباء! لن أمتلك المقدرة على النقاش حول أحلامنا الكبرى على خلفيَّةِ منظر الخراب! نعم، الخراب! هاهو يقتربُ منك! حاولتُ قدر ما أستطيع أن أخفيه عنك، أن أحُوْلَ دون أن تراه! لم أستطع! هاهو يقتربُ بِخُطىً متسارعة! لن أمتلك الشجاعة لرؤيتك وأنت تكتشفُه! ستكتَشفُهُ لِوحدك إذاً...

أسألُكَ الصفحَ مع ذلك! لأن لعنةَ الخراب ملتصقةٌ بجلدي منذ مولدي! لأني وُلِدْتُ بِ «جِيناتِ» الخراب! يلاحقني منذ

الطفولة، منذ مولدي (من يدري؟)، كلُّ ما ألمسهُ يتحوَّلُ خراباً رغماً عنّي!... أسألك الصفح لكلِّ الشقاء الذي سأسبِّبُهُ لك!...

أين سأذهب؟ لا أعرف! هل سأعود؟ لا أعرف!... لا تنتظرني هذا المساء! ربّما لا تنتظرني أبداً. لا أعرفُ شيئاً! لا أستطيع مواجهتك هذه الليلة، وربّما أبداً!

أشعرُ بالغشاوة، بالألم! أشعرُ بالخجل منك! أشعرُ بالفشلِ الذريع!...

أشعرُ بالخجل، بالخجل، بالخجل...»

في الدقائق الأولى لا تفهمُ شيئاً مما حصل لك: مزيجٌ دائريٌّ من عدم الفهم، الاستغراب، الشكّ... ثمَّ تنظرُ حولك يساراً، يميناً، لا أحد... تمرُّ دقائق إضافية أخرى، تخرجُ، تتجوَّلُ خطوتين في حديقة المنزل، لا أحد. تعود، تنتظر، تتقدَّمُ عقارب الساعة بضعة دقائق أخرى تبدو لك طويلةً قاتلة، لانهائية... تعيدُ قراءة الرسالة عدّة مرّات، تحفظها عن ظهر قلب...

تجدُ نفسك وحيداً...

لا تُصدِّق ما حصل، تشعر بالقلق، وبنوع من البرد الداخلي المقيت. تشمُّ رائحةَ الخيانة! تخطرُ ببالك عبارات مثل: «آه، هؤلاء الآتون من الجبال البعيدة! يعرفون الخيانة، يجيدون الغدر، يستغلُّون براءتنا، طفولتنا الأبديّة... يختارون اللحظة غير المتوقّعة للطعن في الظهر! يجيدون ذلك!...» ثمَّ تمحو هذه العبارات الآتية من أغوار اللاوعي! لأنك تعرف أن الذهن، في اللحظات العصيبة، لا يتوقَّفُ عن خلق سيناريوهات متنوِّعة، بعضها مُدخِّنةٌ، آثمة، مثيرة للرعب!... تمسح مثل هذه التصورات والفرضيّات لأنك تعشقُ إلهام من أعماق أعماقك، لا تصدِّق شيئا مما حصل، لأنك تثق بها، تؤمن بها، لا تؤمن إلا بها...

ترتمي على السرير. تشعر بالمرارةِ تملأُ فمك، تصعدُ من الكَبِد. يضيق تنفُّسك. لا تستطيعُ أن تتقلَّب يساراً أو يميناً. عيناك

ملتصقتان بالسقف. تشعرُ بوجع في عينيك من الداخل! تشعرُ، دون أن تراهما، أنّهما أصبحتا شديدتي الاحمرار... تودُّ البكاء، لا تستطيع! تودُّ الصراخ قليلاً، لا تستطيع! لو استطعتَ لَجَأَرْتَ، لَصرختَ كالمجنون، لَزأرتَ من قاع أحشائك! لكنك لا تستطيع حتّى إخراج صوتٍ صغير!

تحاول التقاط كأسَ وقنّينةَ الماء المجاور للسرير. الكأسُ يرفض أن يرتفع كأنه ملتصقٌ بالأرض. تحاولُ رفعَهُ، لا تستطيع. كأنهُ جزءٌ من الأرض أو كأنك فقدتَ قواك. لا تفهمُ شيئاً، كأن هناك مؤامرة كونيّة ضدَّك. تهرعُ نحو كمبيوترِ غرفتِك، علَّك تجدُ رسالةً إلكترونية تجعلك تفهم ما يدور حولك. الكمبيوتر شاخص البصر! أمامك ملءُ الشاشة صورة إحدى واجهات شاشة «نظام ويندوز» المعروفة: منظرٌ جميلٌ لِجدارٍ كثيفِ الورديَّة تعلوهُ في الشمال الشرقيِّ نافذةٌ مُغلقَةٌ عميقةُ الزرقة. في وسط الشاشة أيقونة «فأرة» كمبيوترك ترفض تماماً أن تتحرَّك. تقبضُ عليها فوق المنضدة بخشونة، تُحرِّكها برعشات قويّة. عبثاً، الأيقونة جامدةٌ على واجهة الشاشة! الكمبيوتر سقط صريعاً هو أيضاً، قضى نحبه! هذه المرَّة، كلُّ شيءٍ مُغْلَقٌ تماماً، مثل النافذة الزرقاء على الشاشة... تشعر حينها أن هناك إضراباً كونيّاً شاملاً. هناك مؤامرةٌ كونيّةٌ حقيقية لِخنقك، لإنهائك إلى الأبد، لإحراقك، لِتحويلك إلى رماد...

تعودُ نحو السرير. تدركُ في طريقك أنك مهزومٌ تماماً، مهزومٌ حقّاً! مثلُ كلِّ مهزوم حقيقي تبحث عن قنّينة نبيذ في طريقك، تفتحها، تعرف أنكَ ستشرب الكأس الأوَّل وحيداً. لا يمكنك بعد الآن أن تُرَدِّد بفخر أنك لم تشرب في حياتك النبيذ إلا معها، أو مع صديق. تحبُّ النبيذ والأصدقاء كثيراً جدّاً. لذلك

لا تشرب إلا كأساً أو كأسين لا أكثر، من النوع الراقي جدّاً، في بعض أيَّام الأسبوع فقط، لكن بصحبةِ نديم أو رفيق عزيز على الدوام... هذه المرّة أنَت مهزومٌ حقّاً! كَلِصٍّ آثمٍ أو كطالبٍ يغشُّ في امتحانٍ وزاري، تفتحُ القنِّينةَ لِوحدك، تتناولُ الكأسَ الأوَّل لوحدك... تشرب، لا تعُدّ، لا تدري أين أنت، أين هي، ماذا حصل لِحياتها، لِحياتك...

بعد يومين أو ثلاثة، ربما أكثر، يفاجئُك داخل المنزل إنسانٌ يهزُّكَ، يوقظُكَ من غيبوبتك بصعوبة. تكاد تتمتمُ حالماً: «إلهام! إلهام!»... تنظر نحوه بأعين خامدة، تعرفه بالكاد. زميل عمل، تشيكوسلوفاكي الأصل، يكبرك بعشرين عام تقريبا!

لا تعرف ما يعملُ في غرفةِ نَوْمِك! تحاولُ اختراق غشاوة عينيك، تُحدِّق فيه من جديد. هو نفسه! ما زال كما هو أبداً: شديد الوسامة والثقافة والنبل. مهذَّبٌ إلى أقصى حدود الأدب والأخلاق الفاضلة! ماذا يعمل هنا؟... هو ليس صديقاً حميماً، وإن كان الحديث معه ذا شجون دوماً لِشدَّةِ ثقافتِهِ العامّة، نُبلِهِ، حساسيتِه الحياتيّة وذوقه العالي! ماذا يعمل هنا؟... لم يأت منزلَكَ من قبل إلا مرَّات تُعَدُّ بأصابع اليد...

يعرفك تماماً. يعرفُ أنك تحيطُ زملاءك علماً بمكان تواجدك بشكلٍ دائم، تردُّ على بريدك الإلكتروني في الحال، إلا إذا تواجدت في بلدٍ بلا أنترنت... أحسَّ، عندما لاحظ أن تلفون منزلك لا يجيب منذ أيام وأنك لم تترك خبراً أو تتَّصل بأحد ولم تذهب لِبعض مواعيدك الجامعية التقليدية، أن ثمّة شيئاً غير عاديٍّ في حياتك! ربما شعر أيضاً أن الأرض تخورُ تحت قدميك!... ليس هو أعزَّ أصدقائك وأكثرَهم حميمية، لكنه أفطنهم دون شك، أكثرهم جرأةً ومبادرةً وعمقاً في النظر...

دخل حديقة المنزل لِوَحدِه متسلِّقاً حاجزَ بابها الصغير. دقَّ جرس الباب. كلُّ شيءٍ مغلقٌ تماماً. صمتٌ جنائزيٌّ يخيِّم على الحديقة. العصافير هجرتها، الأزهارُ منكِّسةُ الرأس، الورودُ في مأتم!... عرف، من حديثك معه ذات مرَّةٍ زار فيها منزلك، أن ثمّة في الجزء الخلفي من الحديقة، التي تحيطُ بالمنزل في كلِّ الجهات، باباً مفتوحاً دائماً يؤدي لِجاراج المنزل. دخلَ الجاراج! عرف منك أيضاً، في نفس ذلك الحديث الذي ثرثرتَ فيه كثيراً عن هدوءِ وأمانِ وجودةِ المنطقة التي تسكنُها، أن في جدار الجاراج الداخلي بابٌ صغير، مفتاحهُ في الرفِّ المجاور، يؤدِّي إلى إحدى غرف المنزل. فتح الباب، دخل، فتَّش عنك غرفةً غرفة!... وجدَكَ أخيراً في غرفةِ النوم، غرفتِك الزوجية الحميمة التي لم يرها قبلهُ أحد!

فتحها. رآك. ربّما لن ينسى ذلك المنظر يوماً! أصحاكَ بصعوبة. لم تفهم ما كان يقولهُ إلا بعد جُهدٍ جهيد. كنتَ تشعرُ بوجعٍ شنيع في الرأس، بضعفٍ وألم ومرارةٍ وغشاوةٍ شاملة... شرح لَك كعادتِه، بكلماتٍ نظيفةِ النطقِ مُختارةٍ بعناية، أنه أحسَّ أن غيابك عن العمل ليس طبيعياً وأنك تتواجد حتماً في المنزل!...

سألك عمّا حدث لك. بكيتَ، تحوَّلتَ إلى طفل! كنتَ جريحاً مُهاناً مُستسلماً ضعيفاً جدّاً... لم يلزمكَ وقتٌ طويلٌ كي تتذَكَّر تفاصيل الرسالة! تحفظها غيباً رغم غيابك عن الحياة بضعة أيّام. «صورتُها الرقميَّةُ» المطبوعةُ بـ«سكانير» دماغكَ تملأ مُقلتَيْك، رغم دوختِك الكُليَّة. حاولتَ أن تشرحَ لهُ ما حدث. لم تجد الكلمات، كأنَّ اللغةَ هجرتكَ في غيبوبتك، تخلَّت عنك إلى الأبد. حكيتَ له ما جرى بكلماتٍ متحشرجةٍ تَصِلُ فمَك بصعوبة، تترابطُ ببطء، ثمَّ تخرجُ بِتَسارعٍ غير منتظم. تَلَوْتَ لهُ الرسالة عن ظهر قلب...

قلتَ له بعد ذلك:

- هربَتْ!... لا أدري لماذا!...

ردَّ:

- هل قالت لك يوماً إنها لا تريد الحياة معك، أو إنها لم تَعُد تحبُّك؟

- أبداً، بالعكس!... يُذيبُنا معاً عشقٌ عنيفٌ منذ أكثر من عشر سنين! كلُّ ثواني حياةِ الواحدِ منّا مُكرَّسةٌ للآخر، كأنَّهُ لا يحيا إلا بهِ، فيهِ، من أجلِه...

ثمَّ أَضَفْتَ:

- أشعر الآن أني أُهرولُ بشكلٍ حلزوني نحو قعر الهاوية...

ردّ صدِيقُكَ التشيكوسلوفاكي بهدوء:

- عموماً، هذه ليست رسالة فتاةٍ هاربة!

- ما أخشاه هو أنها عندما تغادر شيئاً فهي تقطعُ علاقتها به بشكلٍ كامل! هذا ما عملَتْهُ عندما هربَتْ من حياتها السابقة في اليمن! قطعَتْ علاقتها بتلك الحياة تماماً... عندما تغادرُ فهي تقطع حبل الاتصال كليّةً! تنسى ماضيها! عندما تهربُ فهي تهرب!...

خطر في بالك في تلك اللحظة أن هروبَ من تعشقُ هو قضاؤكَ وقَدَرُك! تذكَّرتَ «هروبَ» أَلِيْس نحو الشرق! هروبُ إلهام هذه المرَّة مختلفٌ تماماً، مفاجئٌ دون أدنى إشعار، بلا وداع أو موعد. ضربةٌ قاضيةٌ تقعُ على جمجمتِك قبيل لحظاتٍ فقَط من الاحتفال بـ«الذكرى اليوبيلية الأولى» للتوحَّد! تُسقِطُكَ صريعاً بسرعة البرق، تسحقُكَ نهائيّاً...

ردَّ عليك:

- واضحٌ جدّاً أن هذه ليست رسالةُ فتاة هاربة. هذه رسالةُ عاشقةٍ مُعذَّبةٍ مُمزَّقة. كاتبةُ هذه الرسالة في ورطةٍ وجوديّةٍ قصوى!...

ألم تشعر أنها تعاني من ضغوطاتٍ ما، من آلام معيّنة، أنها لا تطيق أشياءً ما تكادُ تُدمِّرها؟...

أسئلةٌ تنخزُ اللحم كدبابيس! أحسستَ بأنك صغيرٌ جدّاً، غيرُ ذي قيمةٍ حقيقية في أعينِ من تعشقه! تحيا معها، تُقَدِّسُها منذ أكثر من عشر سنين، لكنك لا تعرفُها حقّاً! هي قريبةٌ منك بشكلٍ لانهائي، وبعيدةٌ عنك بشكلٍ لانهائي! لم تستطع مساعدتَها لِتُفضي لك ما يدورُ في جوارِحِها، ما يعتملُ في أعماقها. تركتَ الألمَ ينخرُ في العظم دون مواجهة. لذلك تفجَّرَتِ العاصفة. ها أنت الآن تدفعُ الثمن: انهيارَك المعنوي والجسدي...

حكَّ زميلُك التشيكوسلوفاكي شَعرَهُ الفضيَّ في أعلى جبينه، فيما كنتَ غير قادرٍ على الإجابة. أضاف وهو ينظر في وجهكَ بعينيه اللامعتين وابتسامته الخفيفة: «من الأفضل أن تستيقظ الآن وتفكّر بالبحث عنها، على أن تظلَّ في هذه الحالة غير الايجابية جدّاً!...»

فتح نوافذ الغرفة لإزالة رائحة النبيذ وتجديد الهواء. لأنك تثقُ به جدّاً، تساءلتَ إن لم يكن على صواب في كلِّ ما قاله. تذكَّرتَ أنك بدون أب منذ العاشرة من العُمرِ! بدا لك زميلُك التشيكوسلوفاكي مرشَّحاً رائعاً لذلك الموقع الشاغر، لولا أنه لا يبدو أقلَّ شباباً منك بكثير، وكأن السنين لا تتجرأ أن تترك بصماتها على جبينِهِ المضيء...

طلبَ منك أن تصعد للاستحمام. نظَّف شيئاً أو شيئين في أرض الغرفة. أعاد أيضاً ترتيبَ بعض الأشياء الصغيرة التي لم تكن في محلِّها. أراد أن لا يظلَّ في الغرفة شيءٌ ما من أشلاء غيبوبتك. ثُمَّ ذهب لِيُعِدَّ القهوة في المطبخ...

رأيتَ منظرَك شنيعاً في مرآة الحمّام. عيناك مدعوكتان،

متورمتان، تحيط بهما حلقتان سوداوتان يجثم عليهما القلقُ والاكتئابُ والتذمُّر. تبدو صارماً قاسياً على غير سجيَّتِك. تبدو مقهوراً، تحيى قضيّةَ ثأرٍ مع الكرة الأرضية. وجهُكَ هاجمتْهُ تجاعيدُ جديدة تزيد من ضيق فجوةِ فارق العمر مع «أبيك» الافتراضي التشيكوسلوفاكي...

أفصحَ لك ذقنُك عند رؤيته أن غيبوبتكَ دامت على الأقل 3 أيّام! حاولتَ حلاقته. تحلقُ، تحلقُ، تحلق... عبثاً! الشَّعْرُ يرفض أن يقتلع من جلدك. في حياتك الأولى حلقتَ أحياناً ذقناً عمره أكثر من أسبوع، دون صعوبة. حدَّقْتَ هذه المرَّة في عُمْرِ موس الحلاقة لِتَحرِّي السبب: المُوسُ جديدٌ تماماً، شفرتُهُ لامعةٌ نظيفة! بدَّلْتَهُ رغم ذلك. مازال شَعرُ الذِّقنِ عنوداً عرزاً صامداً يرفض الانسحاب. حدَّقتَ في معجون الحلاقة: نفسُ القنِّينة الجيّدة التي تشتريها إلهامُ لك من سنين! لا تفهم شيئاً مما يحدث لك. ضاعفتَ كميَّةَ معجون الحلاقة. لا فائدة! اللعنةُ ما زالت جاثمةً عليك!... تشعرُ أن الجنَّ والعفاريت وبقيّةَ الكائناتِ اللامرئية تُقهقهُ الآن في الخفاء عند رؤيتك في هذه الحالة! لا تريدُك أن تتوقَّف عن هذا الدور التهريجي الممتع الذي يُغرِقُها في الضحك منذ 3 أيّام!...

تتناولُ القهوةَ مع زميلِ عملِك بعد الاستحمام. تشعرُ أنك تستيقظ وحيداً في عالم لا تعرفه، في حياةٍ أخرى. تعرفُ أن عليك أن تعود مع ذلك لأَداء الحدِّ الأدنى من مهامك المهنيّة في الجامعة. أن تحاول فهم الزلزال الذي حدث في حياتك. أن تنتظرَها إلهامَك «الهاربة» (حسب تعبيرك)، «المتوارية» (حسب تعريف زميلك التشيكوسلوفاكي). تؤمنُ أن عليك أن تبحث عنها حتّى لو كانت في طرف الكرَةِ الأرضية...

الأسئلة التي تسيطر فجأة على كلِّ أليافك العصبية وأنتَ تصحو رويداً رويداً: أين هي؟ ماذا لو أصابها مكروه؟ لماذا لم تَعُد بعد؟ هل ستعود؟...

تقودُ زميلَك نحو باب الحديقة لِتودِّعه. خطواتك ثقيلةٌ، شبهُ مترنِّحة. تشعرُ، وأنت ترى نفسك تسير بثُقل ومرارة، أنك ستبدأ مرحلةً جديدةً من عمرك، لم تكن مبرمجةً من قريب أو بعيد، لم تخطر ببالك يوماً!

ستبدأ مرحلة الخراب!

سيفاجئك زميلُك التشيكوسلوفاكي في مكتبك بالجامعة، يوم عيد ميلادك في يونيو 2000، بعد أسابيع قليلة، بإهدائك ألبوماً كتبَ عليه: «شخصيٌّ جدّاً»! ستفتحُ الألبومَ العريضَ الفخم... كلُّ صفحةٍ منه تحوي صورتين بالأبيض والأسود، من الحجم الكبير. 40 صورةٍ شديدةُ المهنيَّة، أخذَتْها عدسةٌ ماهرةٌ شغوفةٌ مدهشة من زوايا متعدِّدة...

تعرف أن زميلَك الرائع، إضافةً لكونهِ بروفيسور رياضيات شهير، هو عاشق تصوير! تُقام له معارض صور بين الحين والآخر في باريس، براغ، لندن، نيويورك... لا تفارقه الكاميرا في تنقُّلاته. لم يستطع، كمهنيٍّ حقيقي، أن يُحرِمَ نفسَهُ من «مُتعَةِ» تصويرك عندما رآك جثّةً هامدة في غرفتك. لكنه امتلك الأناقة والشهامة لِيُهديك الألبومَ «الشخصيّ جدّاً» مرفقاً بعلبة الفيلم الأصلي! استخدَمَهُ مرَّة واحدة فقط لإعدادِ صُورِ الألبوم... هو أنيقٌ ليس فقط في النظريّات الرياضية التي تحمل اسمه، المشهورةِ، لدى المتخصصين في أبحاث «الرياضيات الخالصة»، بأناقتها فِكْرةً وصياغةً وبرهاناً. هو أنيقٌ بشكلٍ كُلِّيٍّ تامٍّ عميم شامل...

ثمَّةَ بشرٌ تعجُّ كرومازوماتهم بِجِينات الأناقة!

تصفَّحتَ الألبوم. أمامك جثّةٌ منبطحةٌ وسط السرير، فاغرةٌ فاهَها لِلعَدم. الموتُ يُحلِّقُ في كلِّ أرجاء الغرفة. ليست نفس الغرفة التي طالما لامسَتْها وشكَّلَتْها واعتَنَتْ بها أصابعُ إلهام لِتجعلَها قُدسَ أقداسِ المنزل!... عدَّةُ قنِّينات نبيذٍ متناثرة، مبعثرةٍ على المنضدة وحول السرير. في كلِّ شيءٍ تطفو رائحةُ الخرابِ والمآتم: في مخدَّاتٍ وملاياتِ السرير المكفهرَّة، في الأريكتين المُشقلَبتَين المجاورتَين للسرير، في المنضدتين الصغيرتين الملتصقتين بالسرير، من جهة إلهام ومن جهتِكَ، اللَّتيْن تبعْثَرَتْ كتبُهما وتُحفُهما الصغيرة واعوجَّتْ فوقهما كُمَّتَا المصباحين الرومانسيين!...

أرضُ الغرفةِ والمنضدةِ الكبيرةِ المواجهةِ للسرير تمتلئُ بشكْلَين غريبَين مرسومَين من قطع النقود المعدنية، صوَّرَهُما زميلُك التشيكسلوفاكي جملةً وتفصيلاً بميكروسكوبيةٍ مذهلة! التقط منظريهما مقطَعاً مقطَعاً، بِشكلٍ جانبيٍّ أو جَبْهَويٍّ مواجه، بشكلٍ عموديٍّ أو مائل!...

على المنضدة شكلُ إنسانٍ مفروش اليدين أفقيّاً كمصلوب، رجلاه منفتحتان قليلاً، خائرتان تماماً. عيْناهُ مُكوَّرتان حزينتان... إنسان مجروحٌ كَوَحش، مرميٌّ كَجُثَّة، يحملُ فجائعهُ في عينيهِ كَغَريق... قِطَعُ النقود موزَّعةٌ على الساعد، على الصدر والمعصم وكلِّ أنحاء الجسد، بِتفنُّنٍ ودقَّةٍ وبحثٍ طويل عن التميُّزِ والتدقيق والمفاجأة. مئاتُ القطَعِ الصغيرةِ جدّاً تتداخل كأسلاك، كأنسجة، كألياف، لترسمَ لوحةً معدنيّةً مُرعبة، دقيقةً جدّاً. ترسُمُها بإبداعٍ فَنيٍّ وحسابٍ هندسيٍّ ملحوظ أثناء اختيار القطع النقديّة فيً هذا المكانً أو ذاك، حسبَ اختلافِ مساحاتِها. صوَّرَ زميلُكَ التشيكوسلوفاكي مفاصل الأصابع، نتوءات العظام، انتفاخ الصدر، عضلات الكتف...

في أرض الغرفة شكلٌ أبشع، أهول بكثير، أكبرُ حجماً وأغربُ وأدقُّ تصميماً: طائرٌ جارحٌ خياليٌّ مهيب! وجههُ قبيحٌ مرعبٌ مُشخَنٌ بالدمامل. عيناهُ في مقدِّمة الرأس، هائلتان، ثاقبتان، حادَّتان. ريشهُ طويلٌ مخيفٌ جدّاً، مُسنَّنُ النهايات لِيضمنَ طيراناً صامتاً لا يُمكنُ ترقُّبُه. مخالبُهُ غليظةٌ جسيمة، معطوفَةٌ كالقوس، يُحيطها ريشٌ صغيرٌ شوكيُّ النهايات. منقارُهُ صخمٌ فولاذي، يَنْفَتِحُ كأشداق التماسيح. جناحاهُ قويَّان منبسطان على مساحةٍ كبيرة في وسط الغرفة. لِسانُهُ الذي يلعقُ شيئاً ما مثيرٌ للرعب والفجيعة!... الطائر منسوجٌ في الغالب من قطع النقود الصغيرة المتداخلة بِدقَّةٍ وعنايةٍ فائقة، لا تنقُصُهُ إلا الألوان الفاقعة ليكون في أقصى درجات البشاعة...

طائرُ الخراب!

لا بدَّ أنك خلال تلك الأيام الثلاثة أخذتَ الصندوقَ الذي تهوى إلهامُ أن تُجمِّعَ فيه كلَّ قطع السنتيمات والفرنكات الفرنسية التي تعود بها من السوق، أو قطع النقود الصغيرة التي تعودان بها من رحلاتكما الخارجية. لابدَّ أنك أفرغتَ تماماً آلاف القطع الصغيرة المتراكمة منذ عشر سنوات في رسمِ لوحتيك المرعبتين!...

ما أثارك بالفعل هو أنك في لاوَعْيكَ كنتَ مصمِّماً تشكيلياً ماهراً، ترسمُ بِصبرٍ وإبداعٍ فائقَين أشكالاً يستحيل أن يخطر ببالك رسمُها في حياتك اليومية! يلزمكَ إذَنْ أن تتحرَّر من قيودِ الوعي لتمتلك هذه الموهبة! لأنّكَ في لاوعيكَ العكسُ النموذجيُّ لما أنت عليه: بليدٌ بالرسم، غيرُ ماهرٍ إطلاقاً في التشكيلِ والتخيُّلِ الجرافيكي. ترسم كلَّ شيء خَطأً...

لعلّكَ تحملُ جذورَ تخلُّفِكَ في الرسم منذ طفولتك. ألم يقل لك مُدرِّس الرسم في المدرسة الابتدائية أمام الطلبة

ذات يوم أنك «عندما ترسم سلحفاة تكون النتيجة جَمَل!»؟ ألم تكن حصصُ «الرسم والأشغال اليدويّة» في المدرسة الابتدائية عذابَ طفولتك؟ لاسيَّما عندما كان يطلبُ مُدرِّسُكَ من طلبة الصفِّ إحضار بعض الكراتين الفارغة الخاصّة بالملابس، بغرض تصميمِها وقصِّها لِصناعة أكواخ أو بيوتٍ صغيرة. تتذكَّرُ كيف كنتَ تذهبُ بعد العشاء بمضضٍ إلى «مُجمَّع دكاكين مسجدِ النُّور» في حيِّ الشيخ عثمان بعدَن، تعودُ بعد ذلك لقضاء لِيلةٍ كابوسيّة تفكِّر طوالها بِـ«حصَّةِ الأعمال الشاقَّة» التي تنتظرُكَ في الغد والتي كرهتَ بِسببها المدرسة لِزمنٍ طويل...

قضَّيتَ معظمَ غيبوبتِكَ إذَنْ ترسمُ هذين الشكلين! لو لم يصوِّرهما زميلك العزيز بدِقَّةٍ وعنايةٍ وأناقة، قبل أن يُكنِّس كلَّ آثار غيبوبتِك وانهيارك وموتِك من الغرفة عندما كنتَ تتَّجهُ دائخاً إلى الحمام، لَما خطر بِبالك أنك أنت الذي رسمتهما بيديك!

آه، زميلُكَ الرائع، صديقُكَ العزيز، والِدُكَ الافتراضي: بافل نامكين!

تقودُ زميلَك نحو باب الحديقة ضعيفاً، نصفَ دائخ. تخرجُ معهُ إلى فناءِ الحيِّ المحيطِ بالمنزل، تودِّعُهُ شاكراً إياه على كلِّ شيء... تقفُ ثقيلَ الخطوة، وحيداً كقُنفذٍ قابعٍ على قارعةِ رصيف، تستديرُ قليلاً...

تعودُ نحو الحديقة. ترى على طريقك صندوقَ البريدِ المحاذي للباب. آه، هذا الصندوق الذي لم تفتحه منذ سنين! تذهبُ بحثاً عن مفتاحِهِ الذي تَرَكَتْهُ إلهامُ قرب الرسالة في منضدةِ بَهْوِ المنزل، والذي طالما أثار انتباهَك تفرُّدُ إلهام واستئثارُها به بِحِرْص لا يخلو أحياناً من المناورة...

تفتحُ صندوقَ البريدِ لِتكتشفَ أوَّلَ بشائرِ الخراب!

فتحتُ صندوقَ البريد. رأيتُ رسالتين ظرفاهما أشبهُ بالإعلانات الدعائية. البريدُ، في هذا البلد، يهاجمكَ بأطنان مطنطنة من المطبوعات التي تدمِجُكَ في علاقةٍ وثيقةٍ مع سلَّةِ المهملات. كدتُ أرمي بهما في أقرب زبالة، لولا أنّهما كانتا موَجَّهتين لإلهام! فتحْتُهما من باب الاحتياط...

فاتورتان شهريَّتان لِقرْضَين مالِيَّين بِاسم إلهام، من شركَتي إقراض لم أسمع بهما من قبل. مجموعهما يُعادل حوالي الأربعين ألف دولار!... مفاجأةٌ غير سعيدةٍ جدّاً: لم أعرف أن إلهام مديونة، لم أدر متى استلَفَتْ ذلكما القَرْضين ولماذا استَلَفتْهما!

سألتُ عن اِسم هاتين الشركتين في محيط عملي. الجميع يعرفهما، إلا أنَا! عدَدٌ من أمثالهما يوجدُ بشكلٍ شبحيٍّ في كلِّ مدينة: ثمّة عنوان، رقم تلفون، موقع أنترنت لِلاتصال لا غير! لا تحتاجُ أبداً أن تُقابِل بِشكلٍ مباشرٍ أحداً في تلك الشركات! شركاتٌ قانونيةٌ مع ذلك، يلجأ لها الكثيرون غالباً في خِضَمِّ أزماتهم الماليّة! يكفي أن يُقدِّمَ المرءُ لها طلباً بِقرض، مرفقاً بِصورةٍ بطاقةِ عَمَلِه، لِيستلمَ منها مبلغَ القرض في أقلّ مِن 24 ساعة! بفوائد خيالية، بالتأكيد. وبتقسيطٍ استنزافي طويل المدى، خانقٍ جدّاً، يربط شرايين المديون بمضخّات شَفْطِ هذه الشركات بشكلٍ دائم! ناهيك عن الإلزام الإضافي بِدفعِ مبالغ

خيالية شهريّة موازية لِشركاتِ ضمانٍ خاصة بهذه القروض!...

قروضٌ تتباطأُ عَمداً، تجثمُ على رقبتك بإحكام، تضمنُ لك أنيمياء الدم بشكلٍ أكيد، تتكاثر لِوحدها بسرعةٍ «أُسِّيَّة»، كما يقال في الرياضيات. بسرعةِ تصاعدِ «دالَّةِ فيبوناشي» (عالم الرياضيات الإيطالي الذي وُلِدَ في القرن الثاني عشر) لِمَن سمع باِسم هذه الدالّة الممتعة ذات الخواص الرياضيّة المثيرة. أو بِسُرعةِ تكاثرِ الأرانب لمن لم يسمع بفيبوناشي ودالَّتِه...

شركاتٌ تهدرُ أوصالك ك«تاجر البندقية» لشكسبير، تلتوي على عنقكَ كأخطبوط! ربمّا أثار إعجابَك يوماً النظامُ الاقتصادي الليبرالي! أنت حرٌّ في ذلك. فيما يتعلَّق بي: أمقتُهُ تماماً! أمقتهُ من الأعماق!...

لم ينقضِ شهرٌ كامل من مغادرة إلهام، في 22 مايو 2000، إلا وقد استلمتُ 15 رسالةً من نفس الطراز! في كلِّ رسالةٍ فاتورةٌ شهريَّةٌ من نفس النوع، من شركةٍ مختلفة. حسبتُها فاتورةً فاتورة: مجموعُ ديونِ إلهام (اربطوا أحزمتكم جيِّداً!): ثلاث مائة وخمسين ألف دولار!

كنتُ أضحكُ بتشنُّجٍ مع توافد هذه الرسائل كلَّ يوم أو يومين! لم أخرج بعد منَ صدمة مفاجأة هروب إلهام، إلاَّ والمصائب الغامضة تتساقط فوق رأسي الأولى تلو الأخرى. لأن المصيبة، كما يقولون، لا تصل وحيدة. السماء تمطرُ مصائب منذ هروب إلهام! الأرضُ مهرجانُ خراب! أنتظرُ الكوارث في كلِّ لحظة. كلُّ شيءٍ في الحياة ممكنٌ جدّاً بعد أن تتركَ معشوقتُكَ المنزلَ، العملَ، كلَّ أدواتِها وممتلكاتِها، دون خبر، دون تفسير، دون اتصال لاحق... لذلك كنتُ أستغربُ عندما تمرُّ ساعةٌ دون مشكلةٍ صغيرة، دون خبر تعيس، دون نذيرِ شقاءٍ قادم، دون بصيص ألم... استغربُ أحياناً، وأنا أقود السيّارة، لماذا لا تغيِّرُ الحافلةُ المَواجهةُ

مسارَها لِتطحنَ سيّارتي بكلِّ بساطة. لماذا لا أعود للمنزل وأجد اجتماعاً سريَّاً لقادةِ المافيا فيه! لماذا لم أسمع بَعْدُ عن تهديدٍ باختطاف، بضرْب، بقتْل، بكارثةٍ كبيرة تنتظرني قريباً...

ربّما انكشفَ لي الآن سببُ ارتباكِ إلهام عندما كنتُ أسألُها أحياناً عن سرِّ تشبُّثِها بمفتاح صندوق البريد. غير أن أسئلة وأسرار جديدة توالدت في أتلاَم وتلافيف دماغي، جابَتْ مُخَّهُ ومُخيخه، استعمرت غددَهُ النخامية، اجتاحتْ كلَّ موادِه السنجابية والبيضاء: ماذا عَملَتْ إلهام بهذا المبلغ الكبير الذي يعادلُ قيمةَ منزلِنا تقريباً؟ هل بَنَتْ به قصراً هائلاً في اليمن؟ هل اشترت به شُقَّةً في باريس؟... كيف يمكن أن يحيا اثنان معاً يخفي أحدُهُما أسراراً كهذه على الآخر؟ كيف يمكن أن يمارس إنسانٌ كإلهام، شفَّافٌ بلوريٌّ صادقٌ نقيٌّ طاهرٌ كملاك، حياةً تحتَ أرضيّة، موازيةً مدخِّنةً غامضة؟...

لم يكن أمامي إلا أحدُ حلّين لا ثالث لهما:

1) اقتراضُ مبلغ ضخم من البنك، لإلغاء كلِّ هذه الديون دفعةً واحدة. (فوائدُ قرضِ البنك لا تُقارنُ بفوائد وشروط ومكائد تلك الشركات الفاحشة). بعد حساب رياضيٍّ بسيط وجدتُ أن ذلك الحلَّ سيُلزمنا دفعَ أقساطٍ شهريَّةٍ كبيرة للبنك بسبب ضخامة المبلغ. سيخربطُ نظامَ حياتِنا والفلسفة التي نهجناها معاً، إلهامُ وأنا: أن نحيا اللحظةَ دون تقتير أو ادِّخار وشحَّة. أن نحياها بتفجُّر ورغبةٍ وشهيَّة. شعارنا المقدَّس: «يَومُناً عِيدُنا!»، أي كلُّ أيَّامِنا أعياد! أن نصرف في المطاعم والرحلات والعُطَل والزيارات والملذَّات بِبَحبُوحةٍ ونَهَم. «لا يحيى المرء مرَّتين»، كما يقولون، ناهيكَ أن الحياةَ قصيرةٌ جدّاً لا يعرف المرء إن كان سيودِّعها اليوم أم الغد...

2) بيعُ المنزلِ لِتسديدِ كلِّ هذه القروض دفعةً واحدة.

الحقُّ أن هذا المنزل دون إلهام أصبح قطعةً من الرُّبع الخالي! صار أجرد مقفراً موحشاً كئيباً كريهاً قاتلاً. كلُّ صغيرةٍ وكبيرةٍ فيه تُذكِّرُني بشكلٍ صارخ، في كلِّ ثانية، بإلهام وغياب إلهام...

أردتُ أوَّلاً أن أفهم أسرار هذا المبلغ بكلِّ حذافيره! أرسلتُ، بعد يومين أو ثلاثة من توافد هذه القروض، لكلِّ شركة كانت تصلُ منها رسالةً لإلهام، طلباً بكشفٍ ماليٍّ كامل عن تفاصيل حركة القرض وتطوُّره منذ بدايته حتّى الآن. أرسلتُ أيضاً على التو لِبنك إلهام الذي يصل إليه راتبُها الشهري طلباً شبيهاً للحصولِ على كشفٍ تفصيليٍّ دقيق لِكلِّ حركاتِ وسكناتِ حسابِها منذ عشر سنوات.

لم أقرأ يوماً قبل ذلك الكشوفات الشهريّة لحساب إلهام في البنك. ما أغرب الحياة: هاأنذا أتحوَّلُ في آخر العمر إلى «لجنةِ تفتيشِ مالي»! لم يكن لذلك بُدٌّ، لأن أسلوبَ حياتنا كان جميلاً شديدَ البساطة: كانت لإلهام واجباتٌ ماليّةٌ شهريَّةٌ تأخذُ قسطاً محدوداً من راتبِها. تستخدِمُ كلَّ ما تبقّى لما يطيب لها شراؤه، مثلما تريد، دون رقيبٍ أو عتيد. كنتُ أُكرِّسُ راتبي لكلِّ ما تبقّى من المهام والواجباتِ الماليّة. واستخدِم ما تبقّى كيفما أهوى... لِكليْنا متنفَّسٌ كبيرٌ يجعلنا نحيا دون حاجة لأيّ عدٍّ أو ميزانيةٍ أثناء صرفيّات الحياة اليومية الاعتياديّة...

وصلَتني كشوفات بنك إلهام وشركات قروضها أوَّلاً بأوَّل. أكوام عديدة من الملفَّات الهائلة الحجم، الصغيرة الأحرف والأرقام، ترتصُّ أمامي كفيالق من القراصنة، كسرب من قُطَّاع الطُّرق... درستُها بدقَّةٍ ميكروسكوبية وكأنّي أُحَضِّرُ رسالةً جامعيّةً حولها! قشَّرْتُها رقماً رقماً. قضَّيْتُ ليالٍ كاملة

أُحدِّقُ في سيرورتِها، أرصدُ أرقامَها، أستوعبُ سفرَ تكوينِها، أرسمُ خطوطاً بيانية تشرحُ تطوُّراتها، تحسبُ كلَّ مؤشراتِها ومتغيّراتها يوماً بعد يوم. فهمتُ أثناء ذلك كيف كانت تحيى إلهام لحظةً بعد لحظة، ماذا كانت تحسُّ في هذا اليوم أو ذاك... استعدْتُ من خلال هذه الملفّات السيرةَ اليومية لحياتها في السنوات الماضية دقيقةً دقيقة!...

اندلعَ أوَّل قروض إلهام بعد حوالي سنةٍ من حياتنا المشتركة. فتحَتْ حساباً مع إحدى شركات القروض عندما أرادَتْ شراءَ هديَّةٍ ثمينةٍ لي في عيد ميلادي الخامس والثلاثين! في الشهر التالي واصلَ القرضُ عرضَ ضخٍّ ماليٍّ جديد. (تستمرُّ هذه القروض في الضخِّ على هذا المنوال حتّى تصل إلى سقفٍ لا يتمُّ تجاوزُه.)

بعد شهرٍ من هديَّةِ إلهام الأولى تَبَعَتْ هديّةٌ أخرى... ازدادَ حجمُ الأقساطِ الشهريَّة لِلْقرض، التَهَمَ تسديدُها جزءاً ملحوظاً من راتبِ إلهام الشهري. اضطرَّتْ لِعدم كشفِ ذلك باللجوءِ إلى قرضٍ ثانٍ يجعلُها تمارسُ صرفيَّاتِهاَ اليوميّة بنفس الوتيرة والحجمِ والنمط. كلُّ ذلك دون أن أشعر بشيء...

وقَعَتْ إلهامُ في فخِّ هذه الشركات المحتالة الآثمة: تكثر أقساط التعويضات هنا وهناك، تزداد الحاجة لقرضٍ طازج من شركةٍ جديدة... ديونٌ تَشتري ديون، نزيفٌ يَغمرُ نَزيف، تَزدادُ الجراح عدداً وغوراً، جُرْحٌ ينغلقُ لِينفتح جرحان جديدان... تكبرُ الديون، تَستنزفُ إلهامَ، تُهرولُ بها في جوف هاوية. تَضطرُّ إلهامُ تحويلَ القروضِ من حسابٍ إلى حساب لِتزدادَ فوائدُ الشركات أكثر فأكثر. تُرمِّمُ إلهام هنا، تُرقِّعُ هناك... تتأرجحُ المبالغُ، لاسيّما في السنين الأخيرة والأشهر الأخيرة بشكل خاص، بين مختلف الحسابات. تتنقَّلُ وتتحرَّكُ كسمكٍ في حوضٍ زجاجي،

كألعابٍ ناريَّةٍ تتقاطعُ وتتداخلُ في كلِّ الاتجاهات!...

لماذا لم تخبرني إلهام بأنها تورَّطت، وأنها أضحتْ قلقةً مسلوبةَ الذهن تُقضِّي أيَّامها تُرقِّعُ وتُرمِّم؟... كنا سنوقف معاً هذا النزيف سريعاً قبل أن يبلغ الخرابُ هذه الدرجة الطامّة؟... خجلَتْ بالتأكيد مما اقترفَتْهُ سِرّاً! لأنها تعرفُ كم أعتبرُها إنساناً نموذجيّاً في طهارتِهِ وصدقِه... لم أكن خاطئاً مع ذلك، لأنني بعد دراسةِ كلِّ هذه الملفات صرتُ واثقاً، أكثر من أي وقتٍ مضى، أن إلهام ستظلُّ دوماً أطهرَ مخلوقٍ على وجه الأرض: لم تشتر لِنفسها من كلِّ تلك القروض شيئاً يستحقُّ الذِّكر!... حرَمَتْ نفسَها من أصغرِ الأشياء، وكأنها تعاقبُ نفسَها على ما جَنَتْهُ، لاسيما في السنينَ الأخيرة التي ازدادت فيها وطأةُ وكثافةُ هذه الديون الطائلة!...

غير أنَّ خطيئتها الوحيدة، الانتحارية، هي أنها كتَمَتْ هذا السرِّ! كيف استطاعتْ كتمَ سرٍّ كهذا خلال كلِّ هذه السنين؟ كيف استطاعتْ الحياةَ اليومية الطبيعية معي طوال هذه السنين وكأن شيئاً لم يكن؟... أيُّ مقدرةٍ خارقةٍ في الكتمان تمتلكها ابنة ثُلا! كيف نَمَتْ هذه المقدرة؟... هل تكتم هذه الطاهرةُ البلوريَّةُ أشياءَ أخرى لا أعرفها أيضاً؟ هل كان بمقدورِها كتمان كلِّ ذلك لو لم تترعرعْ منذ طفولتِها على كتمانِ أسرارٍ أكثر ضراوة وبشاعة؟ هل كانت بحاجةٍ لِتشغلَ ذهنَها بلُعبةِ الخراب الصغيرة هذه كي تَنسى «طائرَ الخراب»: جِذْرَ خراباتِها وعذاباتِها الذي تحدَّثَتْ عنهُ في بدء علاقتنا، ومنبعَ «مستنقع» حياتِها التي تحدَّثَتْ عنهُ في ليلةِ الألفيَّة في وادي رم؟ كيف يمكن أن يزدوج إنسانان في إلهام: الأوّل جليٌّ نقيٌّ ناصع، والآخر كاتمٌ باطنيٌّ منغلق؟...

أو لعلِّي أنا الآثمُ في الأساس: لماذا لم أُرْسِ قواعدَ

لِحياتنا الماليَّةِ المشتركة أكثرَ شفافيةً واحترازاً من أيِّ مفاجأةٍ مستقبليَّة سيِّئة؟... آه، يستحيل ذلك لأني لا أحيا إلا اللحظةَ الراهنة فقط! تلك مِلَّتِي التي لا أودُّ خيانتها أبداً، ومِلَّةُ مُثُلِي العُليا في الحياة: أمرؤ القيس، عمر الخيّام، بوشكين!... أو لأقل بالأحرى: لماذا لم أُرْسِ قواعدَ أقلَّ تسيُّباً وهوائيةً وشاعريّة؟... تذكَّرتُ بهذا الصدد، بنوعٍ من الإجلال، وبخجلٍ شديدٍ أيضاً، إحدى النظريات الأثيرة للحاج الرُّديني، فيلسوف شارع طفولتي. كان يقول: «الرجلُ كالكلب والمرأة كالقطَّة! الكلبُ جَلِفٌ فضٌّ قليلُ الكياسة، لكنه لا يفارقكَ أبداً. يخدُمُكَ، يحرسُكَ، يتعلَّقُ بك... القطَّة شديدةُ الرقّة، تُداعِبُكَ، تنامُ على أحضانك، تُمَلِّسُ عليك طوال الوقت، لكنها عندما تفتحُ لها بابَ المنزل تغادِرُه دون تردُّد، تطيرُ بعيداً عنك، تفعلُ ما يخطر ببالها!...»

توجَّهْتُ لِأوَّل مرة إلى غرفةِ مكتبِ إلهام لأفتِّش ملفاتِها الخاصة بأمور المنزل. لم أر أو أفتح يوماً هذه الملفّات، لأني اعتبرتُها مجال اختصاص إلهام، قائدةِ المنزل، «قِيادتِهِ العامّة»، قبطانِهِ وقلبِهِ النابض. وجدْتُ بينها ملفاتٍ خاصةً خفيَّةً مكرَّسةً لِهذه القروض السريّة!... عرفتُ وأنا أتصفَّحها أن إلهام فكَّرَتْ قبل حوالي سنتين بإلغاء كل هذه الديون دفعةً واحدة (كان مجموعها حينذاك لا يزيدُ كثيراً عن نصف ما هو عليه اليوم!) عِبْر اللجوء إلى قرضٍ معقولٍ جدّاً، من أحدِ البنوك، يمحي قروضَ كلِّ تلك الشركات دفعةً واحدة. يتمُّ تقسيطُ تسديدِ قرضِ البنك على عدَّة سنين. أملأَتْ إلهام حينها استمارات الطلب، وكلَّ الإجراءات اللازمة لذلك. توقَّفَتْ في اللحظة الأخيرة، لأنه كان يلزم أن أوافقَ وأوقِّعَ على تلك الاستمارات بجانب توقيعها!... لم تتجرأ بالتأكيد أن تخبرني بالفاجعة التي كان حجمُها قبل

سنتين نصفَ ما هو عليه اليوم فقط...

بدأتُ أفهمُ الآن أكثر فأكثر لحظات قلق إلهام وارتباكاتها في السنين الأخيرة... وجدتُ أيضاً في تلك الملفّات رسائل إنذار موَجَّهةً لإلهام من تلك الشركات، قبيل رأس السنة الأخيرة في وادي رم، جعلتني أدركُ المطبَّات الهوائية التي كانت تمرُّ بها آنذاك، والتَّغيُّرَ الملحوظَ في نظام حياتِها في الأسابيع التي فَصلَتْ رحلةَ مدينةِ «م...»، مدينة الميعَاد (التي كانت إلهامَ خلالها في قمَّةِ سعادتِها، قابَ قوسَينِ من الشهقة العارمة) وإجازة وادي رم في ليلة الألفيّة!

بدأتُ أفهمُ أكثر فأكثر: كان مبلغ الجرد الإجمالي لِقروض هذه الشركات الاستنزافية قد بدأ يقتربُ حينها كثيراً من كمِّيَتِهِ الخياليَّةِ الحاليَّة. عرفتُ من رسائلِ كثيرٍ من تلك الشركات أن إلهام بلغتْ الحدَّ الأقصى لِمعظَمِ القروض! لن تستلمَ إذن قروضاً جديدة قبل أن تُسدِّدَ جزءاً رئيَساً من قروضها القديمة! هاهي إذن على شفيرِ الهاوية: راتبُها لا يكفي لِتسديدِ الأقساط الشهريّة للقروض القديمة، حنفيَّةُ القروض تنغلقُ الأولى بعد الأخرى!... تختنقُ إلهام، تقتربُ من المشنقة!...

بدأتْ بعد ذلك رقصةُ الخراب: لم تستطعْ إلهامُ دفعَ معظم الأقساطِ في الشهور الأخيرة. يَعودُ نفسُ القسطِ مضاعفاً فيَ الشهر التالي، حسبَ اللوائح القانونيّة لتلك الشركات التي تعرفُ في هذه الحالة كيف تكسرُ كعْبَ الرِّجْل بامتياز. تتواصلُ رقصةُ الخراب: تتضاعفُ ديونُ إلهام بسرعةٍ جنونيّة! بعض الشركات تُوجِّهُ لإلهام إنذارات مباشرة بالتوجُّهِ للقضاء، كان أوَّلُها إنذاراً استلَمَتْهُ في ذلك اليوم الحزين من إجازة الربيع الماضية، الذي استدعيتُ في منتصفِ لَيلِهِ الطبيبَ لإسعافِها!... الأرض تخور تحت قدَمَي حبيبتي. لم تعدْ تفهمُ أو تطيقُ ما يحصل لها، تشعرُ

بالغشاوة، بالرعب، بالخجل. بالخجل الشديد جدّاً. تتركُ رسالتَها الأخيرة ومفتاح صندوقِ البريد. «تتوارى»، حسب قولِ زميلي التشيكوسلوفاكي. تهرب...

أدركُ الآن فقط كم عكَّرَ قلقُ إلهام وأرَقُها في السنين والأشهر الأخيرة سعادةَ حياتِنا!... أستوعبُ أخيراً لماذا حطَّ على رأسها، كجلمود صخر، سؤالي في خيمة وادي رم، الذي أَرَدْتُ بعده أن تبدأ سهرة الألفيّة: «أوعديني أنك لا تُخْفِينَ عنّي شيئاً!»... بعد هذا الطلب، انتهتْ بشكلٍ مأساويٍّ تلك الليلةُ التي طالما حلمتُ بأن تكون قمَّةً في الرومانسيةِ والرقَّةِ، نموذجاً في العشقِ واللذة... انطفأت آمالُ خيمةِ وادي رم بعد ذلك الطلب رغم أنها بَدَأَتْ بدايةً مدهشةً تجاوزَتْ كلَّ أحلامي عندما فاجأتني إلهام بموهبةِ رقصٍ رفيعةٍ تتغلغلُ جذورُها في شَغفِها الطفوليّ، في موسيقى جسدِها السائل، في أنغامِه الجبليّة السلِسة، في بيولوجيتِهِ الفاتنةِ المتميّزة...

عرفتُ الآن وأنا أجلسُ على كرسي مكتبِ إلهام، أتصفَّحُ ملفّاتها، كم كنتُ أجهلُها كثيراً! اكتشفتُ أشياء غير معقولة: إلهام، بعد انفلات ديُونِها وبَوارِ قروضِها منذ عودتنا من البتراء إلى المنزل، أضْحَتْ... تلعبُ بإدمان لعبةَ يانصيب اللوتو! [7]... لم أصدِّق عينيي عندما وجدتُ أعداداً هائلة من أوراق لعبة اللوتو تختفي في أجندتِها ودفاترِها وملفّاتِها الصغيرة! الخراب يقود إلى مزيدٍ من الخراب! القلَقُ والخوفُ من اكتظاظ ديونِها، من ضمور مصادرِها، من تشقُّق الأرض تحت قدَميها، والرغبةُ في أن لا تنكشف أمامي الهاويةُ التي تقتربُ مع ذلك بخطواتٍ عملاقة، جعلَها تلجأُ إلى أكثر المسالك لاعقلانيةً وتناقضاً صارخاً مع ما نردِّده باستمرار: سخافة ممارسة هذه اللعبة المبنيّة على الحظّ

المستحيل!

أتذكَّرُ كثيراً كم كنا نسخر معاً من أولئك الذين يُقضُّونَ يومهم يحلمون بكسب ثروةٍ بواسطة هذه اللعبة! مُدَرِّسةُ رياضيات مثل إلهام تعرف أن احتمالَ كسب يانصيب اللوتو غايةٌ في الاستحالة! احتمال النجاح فيه يقتربُ من واحد على المليار! بمعنى آخر: لاشيء في الواقع العمليّ! أتذكَّرُ أن إلهام، أثناء التمارين التطبيقية لدروس «نظريّة الاحتمالات والإحصاءات» الرياضيّة، كانت تُعَلِّمُ طلبتَها كيف يُحْسَبُ رقمُ احتمالِ الفوز باللوتو بشكلٍ رياضيٍّ دقيق. أوصلَتْهم جميعاً إلى قناعةٍ بديهيّةٍ مُبرهنَة بأنه من السخافة بمكان تبذير النقود في هذه اللعبة!... رغم كلِّ ذلك، لَعَبَتْ هي نفسها اللوتو بإدمانٍ كبير!... ما أغرب سلوك النفس البشرية عندما يعصفُ بها اليأس ويستعمرُها الخوف! ما أضعفها عندما تكونُ على حافةِ الاختناق!...

اكتشفتُ ما هو أغرب وأهولُ من ذلك بكثير: سقطَتْ، هذه المحترفةُ للرياضيات، شديدةُ الواقعيّة والعقلانية في حياتها اليومية، في فخٍّ لا يمكنُ لإنسانٍ بمقامِها أن يقع فيه: الشعوذاتُ الإلكترونية!... نعم! في هذا العالَم الصناعيِّ المتقدِّم، في هذه الألفية الثالثة، توجدُ شعوذات إلكترونية: «قارئاتُ فناجين» إلكترونية، «نفَّاثاتٌ في العُقَد» الإلكترونية... لم أتصوَّر، قبل قراءة ملفات إلهام الخفيّة، مجرَّد إمكانية ذلك في هذه المجتمعات التي تُؤَلِّهُ العقلَ ومبدأَ السببية!

اكتشفتُ أن ثمّة مواقع أنترنت ترى فيها صورة «قارئةِ فنجان» جميلةٍ باهرةِ المنظر تتحاورُ معك بالايمايل (البريد الإلكتروني) بكلماتٍ مختارةٍ بعناية، ثاقبةٍ ناصحةٍ متفانيةٍ في الرغبة في خدمتك وإنقاذك من ورطتك! تجذبكَ إلى حوارات تُحْيِي فيكَ الأملَ وهو رميم، تخدِّرُ أعصابك، تقدِّمُ لك فيها براهين

دامغة تتحدَّث عن مأزومين مرَّوا بنفسِ ورطتك وحلَّتها لهم قارئةُ فنجانكَ الرقيقةُ العذبة، «خادمتُك المخلصة»، بفضل مواهبها في قراءة البروج وحساب الفلك والكشوفات الخارقةِ الثاقبة التي مَنَحَتْها إيّاها المعارف فوق الطبيعية والعناية الإلهية... تذكرُ لك أسماءَ وعناوين أولئك المأزومين الذين فَتَحتْ هي نفسها لهم أبوابَ الرزق والثروة!... تنصحكَ أخيراً بالحلِّ النهائي الحاسم لأزمتك: «الحجرة السحريّة» التي تتلألأُ صورتُها الجذَّابةُ أمامَ عينيك على شاشة الكمبيوتر، في موقع قارئة الفنجان على أنترنت! يكفي أن تحملها على جيدك لِتُسَخِّرَ لك مثلهم النجاحات الباهرة، لاسيّما الفوز بثروة لعبة اللوتو! يلزمُ بالطبع شراءُ تلك الحجرة السحريّة!... دفعَتْ إلهامُ ذلك المبلغ الكبير بآخر القروض التي أمكنها الحصول عليها. بكلماتٍ أخرى: وصلَتْ إلهامُ مرحلة آخر انزلاقات ما قبل الهرولة...

النزيفُ يؤدي إلى مزيدٍ من النزيف! كيف يُعقَلُ أن تقع إلهامُ العبقريةُ الرائعةُ، الحادّةُ الذكاءِ والبصيرة، في هذا الشرَك! كم هو غريب هذا العالَم! نفس شعوذات ما قبل التاريخ تعشعشُ بأساليب جديدة في عقر الحضارة الإلكترونية! من يقع في فَخِّها؟ المتسلحون بقوانين الرياضيات والعلمانيّة الراسخة!... لا أدري كيف مرَّت هذه الشعوذة الصارخة على إلهام! لعلّها كانت في أوْج ضعفِها وقلقِها! أجزمُ أنّها لم تقرأ بأدنى تَمعُّن ردودَ ايمايلات تلكَ «الساحرة» كي تلاحظ أنها لم تكن تتحاور مع أيِّ إنسان في ذلك الايمايل! كانت تتحاور مع برنامج كمبيوتر لا أكثر ولا أقل! هو الذي يردُّ عليها اتوماتيكياً وليست «الساحرة»!...

برنامج كمبيوتر غيرُ بديع التصميم أيضاً: ينطلق من قاعدةٍ واسعةٍ من الفقرات والعبارات الجميلة، مَن أكليشات مُعَدَّة سلفاً للتفاعل مع أيِّ مديونٍ مَخنُوقٍ بِهَدفِ إقناعِهِ بِشراء الحجرة

السحرية، لكنَّ ذلك البرنامج، لِخطأٍ في تصميمه، يدمجُ بعض العبارات بشكلٍ غيرِ طبيعي، يُكَرِّرُ بعضَها أكثر من مرَّةٍ بشكلٍ مضحك، يخلطُ بين المذكَّرِ والمؤنث، يُجيبُ بنفسِ الطريقة، وبنفسِ العبارات المُعدَّةِ سلَفاً، على أيِّ ايمايلٍ يصِلُه حتّى وإن لم تَكُنْ له أدنى علاقةٍ بأزمةٍ ماليّة! أقصدُ حتّى وإن كان ايمايلكَ سؤالاً في الكيمياء أو الرياضيات أو خَبَراً عن سعرِ البطِّيخ في السوق!... برنامجٌ صمَّمَهُ طالبٌ عجولٌ في أوَّل سنةَ جامعيّة في البرمجة في أفضلِ الحالات!... طالبٌ يبحث عن ممحونٍ كإلهام أعماهُ القلق، لِيختلسَهُ مبلغاً سريعاً يسافرُ بهِ لِقضاءِ إجازةٍ سعيدة في جُزرِ الكاريبي!... وقعَتْ إلهامُ الرائعةُ العبقرية في فخٍّ مكشوفٍ، بديهيٍّ جدّاً! إلهي، كم كانت قلِقةً مضطربة كي تسقُطَ في ذلك الفخ!...

129

غريبٌ هو الإنسان! جهازٌ ذِهْنِّيٌّ ضعيفٌ هشٌّ وهِنٌ! يمكنهُ في لحظاتِ ما قبلِ الانهيار، بسهولةٍ لا تخطرُ على بال، التشبُّثَ في العَدمِ والانجرافَ بأمواجِ الأوهامِ الصغيرة...

رغم اكتشافي كلَّ ذلك بألم وحسرةٍ وذهول، كنتُ أشعرُ بنوعٍ من الرضا والارتياح لأني بدأتُّ أحيطُ بأقاليم مجهولة في جغرافيَة معشوقتي! بدأت أَصِلُ إلى بقاعٍ وأغوارٍ قَصيَّة في شخصيَّتها. ازددتُ تعرُّفاً، ياللمفارقة!، بإلهامَ وهي غائبة. ازددتُ (صَدِّقوا أو لا تُصَدِّقوا!) عشقاً لها ولهفةً لعودتِها سريعاً جدّاً!... اجتاحتني في غمرة ذلك الانبساط النسبيِّ رغبةٌ مفاجئة في أن أذهب أبعد من ذلك، في أن أعرف كلَّ تفاصيل طفولة إلهام وحياتها في اليمن! ثمّة سرٌّ أسرارِ حياتِها، تفسيرُ كلِّ ألغازها المستحيلة!...

شعرتُ بنوعٍ من الإثمِ لأني ظننتُ أن إلهام اشترَتْ بذلك

المبلغ قصراً في اليمن أو شُقَّةً في باريس!... كم سيكون رائعاً لو حصل ذلك فعلاً! لم تعمل في الحقيقة أكثر من تبذيرِهِ أرباحاً مجَّانيَّةً لِأبشعِ الشركات الرأسمالية استغلالاً، لِألعابِ الحظِّ السخيفة والشَعوذات الإلكترونية!... سخرتُ من نفسي أيضاً وأنا أدركُ أني أُتَوِّجُ حياتي بهذه الخاتمةِ قليلةِ المجدِ والعَظمة: 350000 دولار، من عرق جبيننا ومن ليالي دراستنا وسهرنا، نُهْدِيها مجاناً لِلُصوص الرأسمالية الجشعة، إلهامُ وأنا!... أنا الذي أقسمتُ يوماً، من فرط كراهيتي لِلّيبرالية الاقتصادية الوحشيّة، أن أنفقَ كيفما أشاء دون أن أُفَرِّط لقراصنةِ الرأسمالية سنتيماً واحداً! أن أطيرَ بأجنحتي في كلِّ السماوات دون أن أحلِّق يوماً فوق مستنقع!...

عذرتُ إلهامَ في سريرتي لِمُجملِ هفواتِها ومغامراتِها الماليَّة بعد أن تجلَّتْ لي تفاصيلُها الكاملة. لكني لم أعذرْها لِهروبِها! لم تكُن النقودُ يوماً غايَةً بحدِّ ذاتِها تستحقُّ أن تُغيِّرَ أسسَ حياتِنا أو تُبرِّر هذا الهروب! يالهَولِ المفارقة! تهربُ من البيتِ كَسَارِقَة فيما هي قُدْسُ أقداسِ البيت، مِحرابُه، سدرةُ منتهاه!... يالفداحةِ المفارقة! تشعرُ بـ«الخجلِ الشديد» من هذا الخراب الذي تحدَّثَتْ عنهُ في رسالتِها الأخيرة، في حين أن هروبَها هو عَينُهُ أمُّ الكوارث والخرائب... لماذا لم تَعُدْ بعدْ؟ لماذا لم تتَّصلْ؟ لماذا لم تبعثْ رسالةً واحدة؟ أين هي؟ كيف تمرُّ أيَّامُها؟ ما هي حالتُها النفسيّةُ الآن؟ ماذا تعملُ وكيف تعيش؟...

كم أفتقدُها! إلهي، كم أفتقدُها! كم أشعرُ بالقلقِ والخوفِ والبردِ بعد غيابِها!...

قرَّرتُ بيعَ منزلِنا بأقصى سرعةٍ ممكنة: لا حلَّ أمامَ كلِّ هذه الديون التي تتكاثر بسرعة الفئران غير لَمِّها والانتهاءِ منها

معاً بِضربةِ مقصلة!... لِهذه الديون فضلٌ واحدٌ عليَّ يلزمني الاعتراف! بِسببِها لم أغرق في دوَّامَةِ العبث والانتحار البطيء التي أخرجني منها زميلي التشيكوسلوفاكي! وجدتُ نفسي أُفجِّرُ كلَّ طاقاتي في مشروعٍ مركزهُ إلهام. مشروعُ إنهاءِ ديونِها. كنتُ مرتاحاً أيضاً من أنيِ اجتهدتُ شخصيّاً للتنقيب عن الملفات الخفيّة، لِفهم ما حصل، للبدء أخيراً بالتعرُّفِ على معشوقتي بعد عشر سنين من توَحُّدِنا...

بدأتُ منذ نهاية يونيو إجراءات البيع السريع للمنزل قبل أن تتهاوى فواتير شهر يوليو بأرقام أكثر صفعاً ورعباً ووحشيّة، وبفوائد متراكبة متضاعفة بسبب فواتير أقساط شهر يونيو التي لم تُدفَع... كان يغيظُني كثيراً، يعصرُ فؤادي عصراً، أن أغادر هذا المنزل. كنتُ سعيداً جدّاً فيه، أهرب في أحضانهِ من ضوضاء ورجفاتِ العالَم ومتاعبهِ الصغيرة، أتغلَّفُ فيه بإلهام حتّى أطراف الأظافر. هو متحفُها، تحفتُها، صورتُها الصادقة. هوَ هيَ، وهيَ هوَ! كلُّ «جدرانهِ تُسبِّحُ» لها، كلَّ ذرَّاتِهِ تنبضُ اِسْمَها، تردِّدُه بخشوع...

منذ بداية يونيو لم أعدُ أنام في غرفتنا المشتركة! خيَّمْتُ في غرفة مكتب إلهام. اتَّخذتُهُ بلا وعي غرفتي الوحيدة الدائمة. هيئة أركاني. أمكث فيها ساعات طويلة، أنام فيها، أنغمر فيها طوال اليوم بتلك الرائحةِ التي أعشقُها، استنشِقُها بشكلٍ كثيف... أرى إلهام في كلِّ شيء. في مكتبِها الرائع التنظيم. في أجندتِها ودفاترِها وملفّاتِها. في خطِّها الرشيق الجَميل المنقوش على صفحاتٍ ناصعةٍ بيضاء نظيفة. في صُوَرِنا المشتركة في كلِّ مكان، في كمبيوترِها التي تَحِنُّ لوحاتُ مفاتيحِهِ لأصابعِها الدقيقةِ السريعةِ السلِسة... اجتهدتُ أن تظلَّ غرفتُها حتّى آخر

لحظة بنفس نكهتِها وعذوبتِها وروعتِها الدائمة. اهتممتُ بإسقاء ورودِها بشكلٍ خاص، بتنظيفِها اليومي، بالحفاظ على رائحة إلهام فيها وكأنَّها لم تُغادِرها أبداً...

قريباً سأودِّع هذا المنزل. سأودِّع هذه الفيراندات. سأودِّعُ أشجار الورد وبعض الأنواع المحليَّةِ من الياسمين التي زَرَعَتْها إلهامُ وصمَّمتْ مواقِعها لِتتَسلَّلَ أغصانُها إلى أركان الفيراندات، لِتُدغدغَ برائحتها المنزل طوال اليوم، لِيشتطَّ عبقُها بشكلٍ خاص في لحظات المساء...

قريباً سأقتلعُ من أماكنها: 1) القطائفَ الصوفيّة الملوَّنة التي نسجَتْها إلهام بيديها المرهفتين (كم أشتاق لأصابعكِ، إلهام!) 2) شمعداناتِ العطر المتناثرة في كلِّ مكان 3) الكؤوسَ الكريستاليةَ التي رَسَمَتْ عليها أرابيسك وأشكال فنيّة بإبَر ودبابيس متخصِّصةٍ دقيقةٍ طوال أيَّام وليال 4) عُلبَ فُتاتِ خبزِنا المشترك التي تؤَرْشِفُ وتؤرِّخُ شذراتٍ منه بعد كلِّ وجبة، عُلَبَ مومياتِ باقات الوردِ التي أهديتُها إيَّاها والتي تُجَفِّفُ وتُخلِّدُ بعضَ وُرَيْقاتِها على الدوام... 5) عبقريَّتَها وجمالَها وسحرَها الذي ينضحُ في كلِّ أرجاء المنزل...

قريباً سأقتلعُ قلبي من موقِعِه!...

بدأتُ بإجراءات تقديم المنزل للبيع وشحنِ أدواتِهِ في كراتين عديدة نحو شُقَّةٍ صغيرةٍ استأجرتُها منذ أوَّل يوليو. أفرغتُ مكتبَ إلهام باهتمام خاص. نظَّمتُ كلَّ ملفَّاتها في كراتين مرقَّمة مُسجِّلاً موقعَهُم الأصليّة في رفوفِ وخاناتِ مكتبِها لِتَجِدَ كلَّ ملَفٍ بسهولة. اكتشفتُ في بعض ملفَّاتِها كلَّ آثار ذكرياتنا الأولى! ملفٌ خاصٌ برسائلي إليها. برقيةُ «أعشَقُكِ إلى ما لانهاية!» التي بَعَثْتُها لها من باريس إلى نَانْت

عقب لقاء المقهى الرومانسيّ في نَانْتْ الذي صرَّحتُ فيه بِعِشْقي لها، في ذلك اليوم الإلهي الذي قالت فيه عِبارتَها الخالدة ونحن نسير في محاذاة المحيط:

- كنتُ أتمنى لو كان معطفُكَ بدونِ كُمٍّ في اليد اليمنى، ومعطفي بدونِ كُمٍّ في اليد اليسرى!...

يحوي ذلك الملفُ كلَّ بطاقات «أعشقُكِ إلى ما لانهاية!» التي واصلتُ وضعَهَا على باقاتٍ كبيرةٍ من الورد الأحمر، في 22 مايو من كلِّ عام، أقدِّمُها لها بيدي. آخرُ باقةٍ هي تلك التي اشتريتُها بعد مغادرة الجامعة في آخر 22 مايو، قبل شهرٍ وبضعة أيَّام. ضَمَرَتْ الباقةُ وأنا في غيبوبتي قبل وصول زميليَ التشيكوسلوفاكي. ذَبَلتْ بجوارِ رسالتِها الأخيرة ومفتاح صندوق البريد في وسط المنضدة... ليس هناك في هذا المنزل مَن يُجيدُ تخليدَ وأرشَفَةَ بعض وُرَيْقاتها في عُلبٍ زجاجيّةٍ بهيجة...

في أسفل ملفٍ رسائلي وبطاقاتي التي بعثْتُها لها كان هناك دفترٌ سميكٌ من الورق الفاخر. غِلافُهُ القويُّ اللامع جذَّابٌ مثيرٌ جدّاً، منقوشٌ بأشكالٍ مجرَّدة تُشبهُ شُعَباً مرجانيةً شديدةَ التنوُّع والتداخل والتعقيد، على خلفيَّةٍ ورديَّةٍ أرجوانيّة. صفحتُهُ الأولى كانت مفاجئة. عنوانٌ كبير: «طائرُ الخراب»!

لم أفهم: رواية؟ قصّة؟ مذكّرات؟...

الصفحة التالية، الإهداء: «لَهُ، إجابةً على أسئلتهِ حول طفولتي الغامضة»!

الصفحة اللاحقة تبدأ بالفقرة التالية، قبل أن يتوقَّف القلم وكأنهُ لم يتجرأ المواصلة:

«في الثانية من عُمري، أو ربّما الخامسة، لا أستطيعُ القطعَ في ذلك، بدأْتُ عذابَ جهنّم! لا أستطيعُ، بين هاتين السنتين، تحديدَ اللحظة التي انكسرتْ فيها حياتي إلى الأبد!

أسألكَ العُذر! لأنَّ هذه الكلمات، المخضَّبة بألم مُترَسِّب نتن، تصل إلى قلمي لوَحدِها، دون تفكير. تصعدُ دون استئذان من قاع الذاكرة التي جاهدتُ طويلاً لِطمسها. هي وحدها أصدق مستَهلٍّ لقصَّةِ حياتي!...

وُلِدتُ في 14 أغسطس 1965 في قريةِ ثُلا...»

غير مُجدٍ أن أقول أن هذه الكلمات نزلتْ عليَّ كصاعقة. توقَّفَتْ أنفاسي عند قراءتها... مشروعٌ مُجْدٍ واحدٌ استولى على كلِّ كياني وأنا أقرأها: إعادةُ برمجة كل محاضراتي في الجامعة لِتكونَ في الفصل الثاني من هذا العام، بين فبراير ويونيو؛ السفرُ حالاً لليمن التي توقَّفتُ عن زيارتها منذ دَهر؛ البحثُ في صنعاء عن نعيم، شقيقة إلهام... ستشرحُ لي نعيمُ كلَّ ما أجهلُهُ عن أختها. ستنبئُني أين سأجدُ إلهام، لأن اتصالهما لا يمكنُهُ أن يتوقَّفَ يوماً. «لا تتنفَّسُ إحداهما دون تَوْأَمِها الروحيّ»، كما كانت تقول إلهام.

سيسعفني زوجُ نعيم، الذي طالما مدحَتْ إلهام تفتُّحَهُ وطيبَتَه. «هو الذي أنقذ نعيم... وأنقذَني!»، كما قالت إلهام يوماً دون أن تودَّ شرح هذه العبارة المُبهَمَة المُكثَّفة أكثر من ذلك. سأطلبُ منه أن يساعدني في الوصول إلى ثُلا لزيارة منزل طفولةِ إلهام، لِرؤيةِ والِدَيْها، غُرَفِ منزلِها، رفوفِ ثيابها، دفاترها القديمة، الممرَّاتِ التي عبرتْهَا، كلِّ تفاصيلِ حياتِها الصغيرة... سأطلبُ منهُ ومن نعيم أن يقولا لي كلَّ ما يعرفانه عن طفولةِ إلهام وعن سنواتِها الأخيرة في صنعاء قبل «هُروبِها»، أن يساعداني في اكتشاف كلِّ ما أجهله...

قبل أن أضعَ في أحدِ الكراتين الملَّفَ الذي يحوي دفترَ الذكريات الحميمية لإلهام، لاحظتُ كيساً بلاستيكياً صغيراً ملفوفاً كأكياس الطلاسم الصغيرة! كاد الكيسُ يسقطُ من

باطنِ غلافِ الدفتر. فتحتُه! وجدتُ قصاصةً صغيرة مكرمشة! كانت، كما يبدو، صورةً فوتوغرافية رديئةً جدّاً لِقصَّةٍ قصيرةٍ نُشِرَتْ في جريدةٍ يمنيّة! لعلَّ نعيم هي التي أرسلتها لإلهام! لم أتمكن إلا من قراءة عنوان القصّة: «ألعاب ناريّة لِاحتفال فضِّ بكارة!». أثارني العنوان من أوَّل وهلة!... اللعنة! الصورة الفوتوغرافية مُنْهَكَةٌ جدّاً، تَالِفَةٌ كثيراً. أغلبُ الكلمات غيرُ جَلِيَّة، صعبةُ القراءة تماماً!... لم أستطع قراءةَ اِسم القاصَّة: نادرة، أو نادية، أو نبيلة!... أعدتُ الكيس إلى نفس موضِعه في باطن الغلاف، قبل أن أُرتِّبَ الملفَ في كراتين الوداع...

بعد 3 أيّام فقدتُ المنزل إلى الأبد! كانت مصادفةً لا أكثر ولا أقل أن يكون تاريخُ ذلك اليوم: 7 يوليو 2000! [8]

حدَّدتُ برنامج رحلتي: عدَن، أُمِّي، أصدقائي... عناق، أشواق، هدايا، ذكريات، حكايات... ثمَّ صنعاء، نعيم، زَوْجُها وطِفْلَيْها... ثمَّ ثُلَا...

حدَّدتُ وجْهةَ رحلتي: قاع الخراب.

الجزء الثالث

«ألعاب ناريَّة لاحتفالِ فضٍّ بكارة!»

ثمّة اسمٌ يختبئُ في ظلالِ روحي
أرتِّلهُ هناك ليلَ نهار ولا تراهُ عين
كأنهُ خاتمٌ ضائعٌ تركتْهُ يدُ امرأةٍ ينزلقُ
من إصبعِها ليسقطَ في خرابات البحار!
الفونس لامرتين

البلدُ الذي تصِلُهُ في 17 يوليو 2000 [8] لا تعرفهُ من قريب أو بعيد! تُيقنُ أنك لا تنتمي إليه! تجدُ نفسكَ فيهِ غريباً تماماً، مسلوباً حتّى مخّ العظم!...

تصلُ أوّلاً مطار صنعاء: أكبرَ «مخبازة» [9] في اليمن! ثمَّ مطارَ عدَن القديم. الجديدُ أشلاءٌ وخرابٌ منذ حرب 13 يناير 1986!... تشعرُ بفرح عامر لِيَمَنِكَ الذي توحَّدَ أخيراً! لولا أنك، في الحقيقة، لا تحبُّ هذه الوحدةَ بشكلٍ خاص، لأنها ليست وحدةَ المجتمع المدنيِّ والنظام والعدلِ والمشروع الحضاري والتقدُّم والحرية، بقدرِ ما هي وحدةُ القبيلةِ التي تَقمَّصت رداءَ الدولة، وحدةُ التجويع والفسادِ والهمجيّةِ والنهب والقاتِ والجلابيب...

تَلِجُ مَنزلَ طفولتك في حيِّ الشيخ عثمان. البابُ مفتوحٌ، أمُّكَ نصفُ نائمة! تصعقكَ من أوَّل نظرة فسيفساءُ شروخ تُكنِّسُ كلَّ جدران المنزل!... أرهقَها «التسبيحُ» هذه الجدران!... منزلُ مسقطِ رأسِكَ الذي تحدَّثتَ عنهُ طويلاً لإلهام لا يُشبهُ هذا المنزل. تقهقرَ، انهزمَ، انكمشَ كثيراً. ثمَّة في كلِّ مكانٍ رائحةُ شيخوخةٍ وطحالب وأعشاب آسنة...

تصحو والدتُكَ، تظنُّ أنها في حلم! أذهلَتْها مفاجأةُ وصولك. هي لم تتوقَّف عن المجيء لزيارتك كلَّ سنةٍ لِباريس. أسعدْتَها وأسعدَتْك كثيراً في كلِّ زيارة. تسألُكَ على التو عن سبب غياب معبودتِك الخالدة التي تُجِلُّها أمُّك كثيراً. معبودتِكَ

التي خُلِقتْ لِتُجَلَّ وتُقدَّسَ وتُعشَقَ أبداً... لا تعرف ماذا تقولُ لِأُمِّكَ عن سبب مجيئكَ وحيداً دون إلهام!

البلدُ الذي تصلهُ في 17 يوليو 2000 كئيبٌ إلى أقصى حدود الكآبة، منهوبٌ حتّى النخاع الشوكي!... لن تجد صعوبةً في رؤيةِ طائر خرابٍ بحجم اليمَن، يُحلِّقُ في فضائها من أقصى الغيظة في شرق حضرموت، إلى أطراف جبال صنعاء وسواحل تهامة في الغرب. هو في كلِّ مكان، يملأ الفضاء! يرسمُ بعبقريّةٍ لوحةَ الخراب في كلِّ شبرٍ فيها! يُنمِّقُ لوحتَهُ بعنايةٍ وشغفٍ كلَّ يوم. طائرُ خرابٍ نادر، يكرهُ كلَّ جميل، يسحقُ كلَّ جميل. مُهمَّتُهُ العظمى: اقتلاعُ كلِّ مدنيّ، كلِّ رائع، كلِّ حرّ، كلِّ نظيف. ستراهُ بأمِّ عينيك يُحلِّق في كلِّ سماء اليمن، يرسمُ ببراثنهِ الشنيعة: مملكةَ الخراب!...

تخرجُ من منزلكَ عصراً باتِّجاه وسط شيخ عثمانِ طفولتك بعد أن تكون قد تلذَّذتَ حتى الثمالة بمائدةِ والدَتكَ التي أعدَّتْها لك كما تشتهي، لاسيّما بـ«خبز الطاوة» و«المُطفَّايَة» [10]! التَهَمْتَهُما بشراهة! لم تذُقْ بَقيَّةَ وجباتِها اللذيذة الأخرى إلا من باب جبر الخاطر... آه، تلك المُطفَّايَة التي يُخدِّرُكَ دوماً مُجرَّدُ أن تراها في مقلى والدتِك! تملكُ أمُّكَ وحدُها سرَّ مقاييس تكوينها، ديالكتيكَ كثافتِها وهلاميَّتِها، كيمياءَ مذاقِها، لونَ سطحِها الأرجوانيِّ الغامق ومورفولوجيا ثقوبِ المسامات الفقاعية المتناثرة عليه...

منذ خطواتك الأولى في مدينة المهد تكتشفُ أنك تسيرُ وحيداً في مدينةٍ عدوانيّة لا تنمُّ بِصِلَةٍ إلى شيخ عثمانِ طفولتِك! هذه الواحةُ العدنيَّةُ الشعبيةُ التي كانت مزدَحمةً بالابتسامات والضحك صارت اليوم مقبرة! لا تعرف أحداً تقريباً على طولِ

دربِك. تَلِجُ الطريقَ المركزيَّ الذي يبدأُ من «مسجد العيدروس» باتجاه «مسجد النور»، مُحاذياً الأسواق الشعبية القديمة غرباً، وشوارع «الدُّبَع» و«الهاشمي» شرقاً... هذا الطريقُ الذي كانت تملأُ مقاهيه اللقاءاتُ الوديَّةُ الضاحكة، الذي كان مختبرَ النكتةِ ومصنعَ التعليقات اللذيذة، صار اليوم ملجأً لأفقر جياع اليمن، للمسحوقين والمحطَّمين والمرضى والمجانين والمعوّقين والمهزومين من كلِّ نوع، لأنواع نادرة من الأشباح والمخبولين والمُخدَّرين، ولِحشدٍ هائلٍ من الوشاةِ والمُخبِرين والمعتوهين والمُحتالين والنصّابين والعدوانيين!... تشعرُ بالرغبةِ المفاجئة بالتقيؤ! لستَ هنا في مهدِ سعادتِك وفجرِ نعيم حياتك الأولى. أنت هنا في مركز الثقل الفيزيائي لِمملكة الخراب!...

وحدهُ الجوعُ يكتَسحُ ملامح كلِّ الأوجه! الأحياءُ هنا لا يفصلُهم أكثر من شِبر عن المقبرة. سيلٌ من الشيوخ يُوقِفُكَ على طولِ الطريق، يستجدِيكَ لُقمةً لسدِّ الرَّمق، يتوسَّلُ منك: «حقَّ الغداء!». تُحملِقُ في نظراتهم. يغور فيها ألف سؤالٍ حائر عن سبب بؤسهم وانسحاقهم وهوانِ حياتهم، عن متى وكيف تسرَّبتْ كرامتُهم بين أصابع أيديهم! تحاولُ الإجابة أو حتّى الاستيعاب قليلاً، عبثاً!...

الجياعُ نائمون في كلِّ الشوارع! الأطفال يداهمونك في كلِّ ركن بأنصاف جسد، ببعض دماغ، بنظراتٍ فاغرةٍ حزينة. لم يسمع هؤلاء الأطفال قطعاً عن مفهوم العطلة الصيفية، المنتزهات، السينما، الرحلات، الحدائق... لا يُمكنهم مجرَّدُ تصوُّرِ ما تعنيهِ كلماتٌ مثل: الحياة بلا جوع، بلا تشرُّد، بلا عُنف، بلا مهانة، بلا قذارة... تخرجُ من أفواههم جميعاً صرخةٌ واحدة: «أنا جائع!»... لا تسمع غير هذه الصرخة الصمّاء تُباغِتُك في كلِّ مكان، تُقاطِعكَ في كلِّ خطوة، تُلاحِقُكَ من ركنٍ لِركن،

تطاردُكَ صبحاً ومساءً، تحتلُّ جمجمتك، تدوِّي ملء دماغك، تكتسحُ صحوتَكَ ومنامَك...

أسرابٌ من المُحجَّبات بجلابيب ونُقُب سوداء سميكة لا تبدو منها إلا العينان فقط!... تنظرُ نحو هذه الجلابيب والنُقُب بغيظٍ وخوفٍ وتذمُّرٍ وألم! بعضُ النقب مغلقٌ كليّةً، يُخفي العينين تماماً مُهدِّداً حاملَاتِهِ برَطْم أقرب عمود نور أو سيّارة على الطريق! أنتَ لا تحتملُ فانيلتكَ القطنية في هذا الصيف الرطب الثقيل المرعب، لا تحتملُ جلدَك أيضاً في هذه المعصرة البيئية الساخنة التي تبلغ درجة حرارتها الأربعين في الظل وتزيد درجة رطوبتها على التسعين درجة، وهنَّ مدجَّجاتٍ ملفوفاتٍ بجلابيب ونُقب وبراقع وقفّازات سوداء ثخينة أكثر انغلاقاً من ملابس شتاءٍ قُطْبيّ... من أجبرَهُنَّ على هذه العذابات الشاقّة؟ أيُّ فتوى ساديّة أرغَمَتْهُنَّ على هذه الحياة اللانسانية؟ على إصدار تلك الرائحة اللزجة المتميِّزة التي يمتزجُ فيها بشكلٍ مقيت العَرقُ المجفّفُ المدرار بالبخور الرطب المُتخثِّر والعطرِ المُتَكَلْسِنِ النَّتِن؟... آه، ها أنت تعصِرُكَ الخيبةُ والفشل: حلمتَ طويلاً في صباك بـ«ثورة النساء» لإنقاذ هذا البلدِ البائس المُعذَّب المخذول، وهاهنَّ أمام عينيك يَقْبَلنَ هذه العبودية والامتهان الذي لم تعرفه العصور البدائية والقرون السحيقة!... تكاد تقولُ لِنفسكَ في معمعان السخط وعدم الاستيعاب: تُبّاً لهنَّ! من يقبلُ هذه الإهانة فهو يستحِقُّها حتماً!... ثمَّ تُهدِّئُ من روعِك ونقمتِك قليلاً، وتُبلِّلُ بعضاً من سخطك وأحزانك... تدركُ فجأة أنك تركتَ هذه المدينة ونساؤها يخرجنَ طليقات في الغالب. تركتَها وهي تنعمُ بالتعليم المختلط!... ثمَّ تعودُ لِتراها ملفوفةً بهذا السواد القاتم المخيف! ياللمصيبة!... كم تسخرُ ممن تجرأَ يوماً الحديثَ عن قانونِ «حتميَّة التقدُّم»! ألم يجدرُ بهِ الحديثُ عن «حتميّة

البشاعة»، «حتميّة الكارثة»؟...

توقَّفْتَ في طريقكَ أمام أحدِ دكاكين الدور الأرضي من مسجد النور: دكّان حُللٍ فضّيةٍ متنوّعةٍ جميلة تلوحُ في سيماء صاحِبه كثيرٌ من المهنيّة وحسن الطلعةِ والسجيّة. انتظرتَ أن يُكمِلَ حديثَه مع أحدِ زبائنه لتطلبَ منهُ خاتماً فخماً من العقيق اليمانيِّ الخالص الذي يُشبِعُ النظر، وعقْداً فضيّاً متألِّقاً، تُهدِيهما لإلهام التي تميلُ كثيراً لهذه المنتجات الحرفية اليمنيّة الأصيلة. لم تتوقَّفْ لحظةً بالتفكير بها، إلهامكَ الخالدة!... ستُسافرُ قريباً إلى صنعاء، بعد قضاء الأيَّام الأولى مع أُمِّك، لِتبحثَ عن أختِها نعيم كيما تعرفَ منها كيف الوصول إلى معبودتِكَ الغائبةِ الحاضرة.

استرعى انتباهَك نداءٌ شحيحٌ من خلفِكَ يكادُ يكون همساً لا غير! استدرتَ إلى الخلف باتجاه مصدرِ النبرات الخافتة. جسدٌ نحيفٌ لِفتاةٍ لم تُكمل العشرين من العُمر، كما يبدو، مُكيَّسةٍ من طرف الرأس إلى أخمص القدمين بِجلبابٍ كثيفٍ أسود! تلوحُ من نقابها عينان ضامرة المحارَين، خجولتان، هاربتان، جريحتان تماماً!...

بِكلماتٍ هشَّةٍ ضعيفةِ النبرات، صعبةِ السماع، عرَضَتْ لك خاتماً فضيّاً للبيع! أخذْتَهُ بصمْتٍ وابتسامةٍ مُهذَّبةٍ من قفّازها الأسود. لاحظْتَ أنها لا تتجرأ النظرَ نحوك! مدَدْتَهُ لِبائع المحل، راجياً أن يتأكَّد من صحَّةِ فِضيَّتِه. أجاب أنه خاتمٌ فضيٌّ نقيٌّ خالصٌ مُعمَّدٌ مختوم! سألتَها: كم قيمة الخاتم؟ لم تُجبكَ. كرَّرتَ السؤال أكثر من مرَّة. لم ترغب الإجابة وكأنَّها تكرهُ إظهار صوتِها للرجل، أو كأنَّ الكلمات لا تصلُ لِثغرها بسهولة، أو كأنّها تتمنى أن يطحسَ من شفتيكَ، بين اللحظة واللحظة، رقمٌ

عَرمرمٌ يُخرجُها من العذاب الأليم!... بعد إصرارٍ أخيرٍ من قِبَلكِ قالت بكلمات مُهشَّمة سمعْتَها بالكاد: «عرضوا عليَّ خمسمائة ريال في السوق لشراء الخاتم!»

كان الخاتمُ بسيطاً وجميلاً فعلاً. يسوى في نظركَ أكثر من الدولارين والنصف التي عُرِضَتْ لها في السوق. سألتَها بعد ذلك: «لماذا تُريدين بيعه؟». لم تجب. كانت مثلَ جريحةٍ فعلاً من هذا الحوار. ربما كانت تتساءل في ذات اللحظة ماذا ارتكبَتْ في حياتها من جريمةٍ لِتجدَ نفسها مُدانةً بأن تُستجوَبَ في هذا التحقيق البوليسيِّ التلصُّصيِّ النكدِ الذي يُعرِّي حالَها المستورَ لِعابرِ سبيلٍ لا تعرفه. ربما كانت تتساءلُ في قرارةِ نفسِها بأيِّ حقٍّ تُوجِّهُ لها هذا السؤال! كرَّرتَ سؤالك برِقَّةٍ عدَّة مرّات بعد أن أشعرتَها أنك ستشتريه بألف ريال لأنه يستحقُّ أكثر من سعر السوق! اضطرَّتْ وهي تخفي عينَين مبلّلَتين أن تقول لك: «هو خاتم زواج أمّي. نحن جياع! سنشتري بقيمتهِ أكلاً لهذا المساء!...»

شعرتَ بالارتباك والإحراج لأنك جرحْتَ كبرياءها وإصرارها على إخفاء سبب بيع الخاتم. تذكَّرتَ أُمَّ كوزيت، في «بؤساء» فيكتور هيجو، وهي تبيعُ ممتلكاتِها وأسنانَها وبقيّةَ قِطعَ جسدِها قطعةً قطعة... شعرْتَ أن منحَها الألف ريال دون أخذِ الخاتم منها سيجرحُ كبرياءَها تماماً، لأنها لا تشبه المتسوِّلين من قريبَ أو بعيد. خطر ببالك أن هذا الخاتم سيكون هديَّةً جميلة لإلهام! تلخبَطْتَ، لم تعرف ما العمل! مددْتَ لبائعة الخاتم ورقة الألف ريال دون أن تدري إن كنتَ مصيباً أم لا. ابتعَدَتْ عن ناظريك في الحال بخطوات سريعة... زلقْتَ الخاتمَ في أسفلِ بِنصركَ بحركةٍ لاإرادية، وواصلتَ عبور دربكَ باتجاه نهاية مسجد النور...

لم تمر أكثر من بضعة دقائق إلا وأنت تشعرُ بأسىً

عاصف: تحملُ خاتمَ زواجِ أمٍّ لا تعرفها. اشتريتَ كلَّ حياتِها الزوجيّة، كلَّ سعاداتِها وذكرياتِها الحميمية بخمسة دولارات! ربما كانت أرملةً لم يتبقَّ لها من معشوقها الغائب غير ذلك الخاتم! شعرتَ بنوعٍ من الخزى والفضيحة! تساءلتَ بحُرقة: من مرَّغ حياة هذه الأم فَي وحلِ الجوعِ والمهانة؟ من أذلَّ ناصيةَ ابنتها وطعنَ كرامتَها في وضحِ النهارَ؟... ها أنتَ تحملُ هذا الخاتم في بِنصركَ الآن كجُرْح! يُحيطُ عظمَ أصبعكَ، يؤلِمُكَ، يُحرقكَ كطَوْقٍ من حمض الكبريتيك المركّز!...

ماذا قلتَ؟ تريدُ أن تهديَهُ مع ذلك لإلهام! ياللشيطان! هديّةٌ مسمومةٌ ملعونة! ما أتعسك حقّاً! لهذا الخاتم يدٌ واحدة لا غير. يدُ تلك الأم الجائعة التي حَرَمتْها الحياةُ من آخرِ رموزِ سعادتها قبل أن ترميها وأطفالَها في الغد أو بعد الغد في أنيابِ الجوعِ والحاجة، لتكونَ طُعْماً جديداً يتلذَّذُ به طائر الخراب...

الخاتمُ كابوسٌ ينهشُ أصابعك. جرحٌ يُدمي يديك. تشعرُ بالعار يُلطِّخك! تعود إلى الخلف باتجاه صاحب المعرض. تسأله إن كان يعرفُ بائعةَ الخاتم. يجيبك أنه لا يعرفها لأن عشراتٍ من أمثالها تصلنَ السوق كل يوم! تحاولُ التعرُّفَ عليها بين أسراب النساء اللواتي يَسِرْن في شوارع المدينة! ياللمهزلة! كيف يمكنُ التعرُّفُ على جلبابٍ أسودٍ بين آلاف الجلابيب السودِ المطابقةِ تماماً؟... تقتربُ منَ كلِّ جلبابٍ أسود لِشابَّةٍ نحيفة. تُحدِّقُ في عينيها. عبثاً!...

أثارتْ حركتُك للتعرُّفِ على بائعةِ الخاتم اهتمامَ أحدِ المرابطين أسفل فندقٍ جديدٍ في ركن أحد الشوارع! رجلٌ نحيف، قصيرُ القامة، عَظْميُّ الوجنتين، زيتونيُّ اللون، غدِقُ الشارب... اقترب منك بنظراتٍ تُراوحُ وسط عينيكَ كخذروف، قائلاً إن لديه

ما يُشفي غليلك! لم تفهم كيف عرف من تبحث عنها بهذه الألمعية والفطنة المذهلة. سألتَهُ دون تأخُّر أين ستجدُ تحديداً تلك الفتاة التي تبحثُ عنها. فاجأك بالقول: «لديّ من تبحثُ عنها وأحسن منها!»... لم تفهم شيئاً!

عرَّفكَ بأنه سمسارٌ متخصِّصٌ ب«الزواج السياحي»! وجدْتَ صعوبةً أكبر باستيعاب كُنْهِ هذا المفهوم الجديد. تُثيرُكَ دوماً الأسماءُ المبتكَرةُ الجديدة ذات الصُّورِ التعبيرية، التي تصلُ القاموس الاجتماعي يوميّاً: «حمّى الوادي المتصدِّع»، «حمّى الضنك»، «حمّى الجمرة الخبيثة»... أمّا «الزواج السياحي» فلم تعرف هذه المرّة كيف تقتربُ من مفهومِه أو تفسِّرُ مدلوله! سمعتَ عن مصطلح «السياحة الجنسيّة» لِتايلاندا وبعض الدول الفقيرة حيثُ يُدَمِّرُ أقذرُ ثيرانِ وخنازيرِ العالم من السوَّاح كرامةَ وحياةَ أطفالٍ منكوبين حتّى آخر العُمر!... أما هذا المصطلحُ الجديد فلم تسمعْ قطُّ بهِ من قبل!

قال لك مداعباً إنك «سائحٌ بطئ الفهم!». ثمّ مسدَ شارِبَهُ الكثيف ولجأ إلى التفصيل المباشر:

- لديَّ ما تبحث عنه! فتياتٌ أجملُ من تلك التي تبحثُ عنها بالتأكيد! من الثانية عشرة حتى الخامسة عشرة! البكارة يضمنها لك المكتب مائة في المائة! صبيّاتٌ من أيِّ منطقة تُفضِّلُها في اليمن! حسب رغبتِكَ وذوقِكَ وميولِك! بأي لونٍ وطولٍ تفضِّلُهُ أيضاً! لأي فترة تريدها: أسبوع، أسبوعان، شهر، شهران، 6 أشهر!... ورقة الطلاق جاهزة من الآن! بإمكانك توقيعها في أي لحظة أو إرسالها من الخارج عند عودتك إلى بلدك! فضيلةُ القاضي سيعقدُ لك الزواج على سُنَّةِ اللّهِ ورسولهِ اليومَ إذا أردت! لا تحتاج معهُ لأي أوراق أو شهادات أو بطاقة شخصيّة تورِّطك بأي إرثٍ أو مستحقّاتٍ أو دعواتٍ قضائية! ستصل زوجتُك مسكنَك مساء

الغد إذا أردت!... اعطني المواصفات المطلوبة فقط للزوجة التي تبحث عنها والباقي علينا!...أسعار عمولتنا في المكتب وتكاليف الزواج الذي نقدِّمُه للزبائن لا تُضَاهى...

فقدتَ بثانيةٍ واحدة كلَّ وقارِكَ وهدوءِكَ وتأنِّيكَ ودبلوماسيّتِكَ وتعقُّلِكَ وتوازنك! فقدتَ ضُعفَكَ وخوفَكَ وجُبنَكَ وحذرَكَ واحتراسَك! بَصقتَ في وجههِ من أعماقك بلا وعي! لم يقل كلمةً من شدَّةِ إخلاص وحميميةِ وصدقِ وعفويّةِ البصقة... لم تُعفِكَ بصقتُك الجبَّارة من رغبةِ التقيؤ العنيف مما سمعته! لاسيّما من إقحام «سنّة اللّه ورسوله» والقرآن الكريم بأسفل وأبشع الجرائم الحقيرة...

واصلتَ مسيرتَكَ دون أن تنظر إليه! تساءلتَ: هل ستلجأُ بائعةُ الخاتم، ذات العشرين سنة بالكاد، إلى الزواج السياحيِّ بعد أن تستنفِدَ أُمُّها الألفَ ريال؟ أم أنها «مُسِنَّةٌ» تجاوَزَتْ قطار العُمر ولم تَعُدْ تمتلكُ «المواصفات المطلوبة»؟... البلد الذي وصلْتَهُ في 17 يوليو 2000 لا تنتمي إليه فعلاً!...

أوقفتَ ذاكرتَك طويلاً على ملامح بائعة الخاتم، قامتِها الرهيفة، نظراتِها الهاربة، أسى مقلتيها، مَوقَيْها الضامرين، لمعان عينيها الشريدتين... سمَّرْتَ ملامِحها في طيَّاتِ ذاكرتِكَ خوفاً من أن تمتصَّها ظلماتُ الجلابيب أو يُشَوِّشَها تشابهُ جفاف أمواق الأعين الحزينة... شعرتَ في موجةِ التقزُّز أنك ترغب أن تنتقمَ لبائعة الخاتم، لكلِّ الأطفال المغتصَبين تحت يافطة الزواج السياحي، لكلِّ الأطفال الذين يبيعون بعض قطع أجسادِهم لِشراء لقمة العيش، لكلِّ الجياع الذين اعترضوا طريقَك، لكلِّ الشيوخِ المُمْتهَنين، لكلِّ المرضى المنبوذين على قارعة الطريق...

مررتَ خلال بحثكَ عن بائعة الخاتم في شوارع تعرَّفتَ بصعوبةٍ على منازلِ بعضِ ساكنيها: «شارع دَغْبُوس» الذي يسكن

فيه «الأستاذ نجيب»! مُلهِمُ طلّاب جيلك. قامةٌ إنسانيةٌ وثقافيةٌ فذَّة، شديدةُ الحضور والتألق. جذوةُ مدينتِك، أيقونتُها المتنقِّلة. صوتٌ مَدَنِيٌّ ناجع في زمن القبيلة والهمجيّة... هاهو يسكنُ وأولادَه وأحفادَه في 60 متر مربع في ذلك الشارع! فيما يمتلكُ عسكريٌّ من مُنْتَصريّ 7 يوليو 1994، لم تطأ قدمُهُ عدَن قبل ذلك اليوم، قطعةَ أرض تبلغُ مساحتُها أكثر من تسعين ألف مرَّة مساحةَ منزلِ أستاذِك الرائع، على بُعد بضعةِ كيلومتراتٍ فقط من ذلك المنزل!...

لم تَجِدْ منذ ساعاتك الأولى في اليمن صعوبةً في رؤية طائر خراب كاسر، أسطوريِّ الحجم، مزيجٌ بيولوجي من الرخم والغول، يحرسُ بابَ مملكةِ الخراب، يأكلُ جيفَها، ينقرُ عيونَ سكّانِها قبل التهام جُثَثِهم، ينهبُها في جوفِ الليل، يعتدي على بُغاثِ طيرِها، على أصغرِهم وأضعفِهم وأقلّهم مقدرةً على الصمود والمقاومة...

قبيل الغروب، تأخذُ تاكسيّاً يعبرُ بك من حيِّ الشيخ عثمان نحو حيِّ خورمكسر، باتجاهِ كورنيش «ساحل أَبْيَن» الممتَدِّ على شواطئها. يعبرُ التاكسي المحميَّات البحريّةَ الطبيعيَّةَ المرتصَّةَ كمربعات شطرنج بين قُطْبَي عدَن: الواحة والخليج (4). تتذكَّرُ قبلَتَكَ الأولى لإلهام، في 22 مايو 1990، في تقاطع الأطلسي بالمتوسط، في شاطئٍ يُشبهُ ساحل أبْيَن، يجاورُهُ نفسُ هذا النوع من المربَّعاتِ البحريَّةِ التي ترتعُ فيها نفسُ طيور النحّام... ما أرهب التشابه الجغرافيّ أحياناً! صُعِقْتَ وأنت تعبرُ بالتاكسي هذه المحميَّات! ضمرَتْ، كُبسَتْ أجزاءٌ كثيرةٌ منها، تُخْتَلَسُ منها القطعةُ الأرضية تلوَ الأخرى... لم يَبقَ اليوم إلا عددٌ ضئيلٌ صامدٌ من طيور النُحَّام! كارثةٌ بيئيَّةٌ مُرعبة! ما أبشعَ طائر الخراب وهو يُنمِّقُ لوحتَهُ يوماً بعد يوم!...

وحدهُ البحرُ يُساندكَ ويُواسيكَ من أوجاع ومآسي هذا البلد، مِن ضَنَكِ وادِيها المُتَصدِّع... تصلُ عند الغَروب إلى الكورنيش. تقفُ وحيداً أمام ماءٍ نقيٍّ شفّافٍ زُلالٍ يمكنُ التمرُّغُ في كثبانهِ الدافئة كلَّ أيام السنة، ليل نهار. لكَ أن تحلم: ماءٌ بِدرجةِ حرارةٍ مُثْلى تراوح حول 28 درجة طوال العام!

ينتهي زُبدُ الأمواج عند أقدامك بهدوءٍ عذبٍ رقيق، يغسلُ أطراف أصابعِك بنعومةٍ قَصوى. أشيشٌ خفيفٌ يُسكرُ سامعيك. تخلعُ نعليك لأنك في الساحلِ المقدَّسِ طُوى. تضعُهما في حقيبةِ

ظَهرِك الورديَّة التي طالما حمِلَتْها إلهامُ على ظهرها، لاسيَّما في ليلة وادي رم... تشعر بلذَّةٍ كبيرة والأمواج الصغيرة تنكسرُ على أطراف رجليك العاريتين، الأولى بعد الأخرى، برتابةٍ ساحرة. يبتعدُ ذهنُكَ قليلاً عن مصائب الجوع و«الاغتصاب السياحي» و«الاغتصاب الجغرافي» التي أروَعَتْكَ منذ أوَّل ساعات وصولك إلى مملكة الخراب...

تتخايلُ معشوقتَكَ الخالدة، إلهام، عروسة البحر، العاشقة لِدرجة المرض لِلماء والأمواج، بجانبكَ هنا في ساحل أبْيَن! في موقِعِها الأمثل: البحر!... تتخايلها أمامك كما كانت يوم توحُّدِكما في 22 مايو 1990، في تقاطع الأطلسي والمتوسط. سحرٌ خالص، خَصْرٌ يمكن إحاطته بنصف يد، عذوبةٌ مُطلقة... تُعيدُ هنا بلا وعي، في ساحل أبْيَن، صياغةَ إلهام 22 مايو 1990 بشكلٍ آخر، كما تهواهُ تماماً، بدونِ تلك القبلة الجامدة المنغلقة التي دشَّنَتْ حياتَكما المشتركة. آه، تلك القبلة التي لم تهضمْها منذ ضحى ذلك اليوم التاريخيِّ الخالد!...

هي في خيالك الآن بجانبك في أطراف نهاية أمواج ساحل أبْيَن! حافية القدَمَين! نعلاها تُلامِسُ نَعليك في نفس الحقيبةِ الورديّةِ التي تحملُها فوق ظهرك!... القمرُ في علياء البحر في نهاية طور التربيع الأول، يوشكُ أن يتحوَّل بدراً بعد يوم أو يومين. نسماتٌ رقيقةٌ تداعبكما. تحدِّقُ مليّاً بضوء القمر وهو يعانقُ بشرتَها. تذوبُ أمام جمالِ انعكاساته الفضيّة في بريق عينيها ووجنتيها السنيَّتَين... تسيران طويلاً باتجاه عرض البحر، تبتعدان عن رمل الشاطئ، عن أعين الأطفال والمقرفصين على الرمل قرب نهاية الأمواج... تفوحُ من إلهام رائحةٌ نقيّةٌ دافقة تكتضُّ في جسدِها من أقصى الرأس حتى القدمين: رائحة الفُلِّ اللَحْجِيّ [11] الذي تعبدُهُ إلهامُ عِبادة! شذاهُ يملأُ خياشيمك،

يأسركَ، يُسكرُكَ سُكراً...

الليلُ طريٌّ متلألئٌ ناعم. جَزْرُ البحر لم يكن يوماً بهذا الامتدادِ الشاسع! الجزْرُ قطيفةٌ تحت رجليكما، كأنكما نَبيَّان توراتيّان يسيرانِ فوق الماء! تبتعدان عن الأنظار كثيراً وأنتما تتوغَّلان داخل البحر، دون أن يرتفع الماءُ أسفل رجليكما أكثر من سنتمترات قليلة. قلّما كان القدَرُ والجزْر يوماً حليفيَن لِلعشق كهذا اليوم!...

إلهام، بكلِّ جمالِها الخالد، مُهيَّأةٌ لِلعشق كلِّيةً هذه المرة! كلُّ غُدَدِها، كلُّ خلاياها، لا تنتظرُ إلا العشَق، لا تتنفس إلا بالعشق، لا تحترقُ إلا من أجل العشق!... تتحدَّثان طويلاً عن مواضيع تافهة كثيرة: عن كلِّ موجةٍ صغيرةٍ تُلامس رجليكما، عن تميُّزِ هيئةِ كلِّ موجةٍ مقارنةً بالأخريات من الموج، عن وشكِ اكتمالِ القمر بعد يوم أو يومَين، عن النسمات الجميلة، عن أحزان المدينة... لا تعرفَان في الحقيقة كيف تُهيئان الوصولَ إلى قُبلتِكما الأولى، كيف تفاوضان هذه القُبلة التي تتوقان إليها وتُلفَّانِ وتدورانِ حولها بجنون!...

ثمّ تبدأُ لحظةُ «الثقبِ الأسود»!... مِثلُ مناطق «الثقوبِ السوداء» في «الزمكان» الفيزيائي التي تمتصُّ كلَّ شيء، التي لا يفلتُ منها شيءٌ حتّى الضوء؛ مِثلُها تمتصُّ لحظةُ «الثقبِ الأسود» كلَّ ذكريات عباراتكما ونظراتكما المُتلعثمة. تحتفظُ بها في جوفِ العَدم. تدومُ هذه اللحظة الهاربة ثوانٍ قليلة، طويلةً جدّاً مع ذلك... قبل أن تتعانقان فجأة، لأوَّل مرة، في لحظةٍ هوائيةٍ كثيفةٍ غامضةٍ مُطلْسَمة تمتصُّ كلَّ حواسَك معاً، تستحوذُ كلَّ تأملاتك وتركيزك، تستغرقُ كلَّ جسدك!...

ستحاول ما عِشتَ أن تتذكَّرَ تفاصيل ثواني «الثقب الأسود» التي سبقت تلك القبلة، عباراتِها المرتجفةَ ونظراتِها

الخجولة، إرهاصاتِها التي أسقطتكما صريعيَن في محراب القُبلة!... عبثاً! لن تستعيد تلك التفاصيل الصغيرة أبداً! هي مخطوطةٌ في الألواح المحفوظة لآلهة العشق لا غير! لا تتأرشفُ في الذاكرة الإنسانية! ذلك هو حالُ قُبلةِ العشقِ الصادقةِ دَوْماً!...

ما تتذكَّرُهُ جيّداً حصل بعد ذلك مباشرة: ثغرُ إلهام في أرقٍّ وأدفأِ وأعذبِ وأرغدِ وأرضبِ وأشبقِ تجليَّاته عند بدء تلك القبلة! كما لو كان ينتظركَ منذ الأزل. كما لو كان يتهيأُ أبداً لمواجهتكَ، لِضمِّكَ، لاحتوائكَ، لاكتساحك... يتقابلُ ثغراكما، يلتصقان قليلاً، يستنشقان كليهما طويلاً، تتغازلُ لساناكما، تتلامسان، تتَّحِدَان... لا تُصدِّقُ ما يحدث... يتعانقُ ثغراكما هذه المرَّة، تمصُّ لسانها طويلاً، تتركُها تندرجُ في أعماقك، تتناغمُ معها وهي تتموَّجُ في ثغرك كسنونو... تمصُّ إلهامُ لِسانَك بعد ذلك بنفس الحُرِّية والعشق. تتركُ نفسكَ تنقادُ بتلذُّذٍ في ملكوتِ ثغرها. تعودُ لِتضُمَّ لِسانَها بِنَهم أكبر. تُيْقنُ أنكَ ترتشفُ أحلى رضاب في الكرة الأرضية!... اللَّيلُ هادئٌ رقيقٌ حولكما. رضابُ الأمواج الناعمة يهدهد أقدامكما. في حقيبتك الورديّة تندمجُ نعالُكما، تتعانق...

تخرجُ منك هذه العبارة بلا وعي: «رضابُكِ إلهامُ، رضابُك! مدَدُكِ إلهامُ، مدَدُك!...» تكرِّرُها بين الحين والآخر، لا تستطيع أن تنطق غيرها... ترتوي برضاب إلهام الذي ينزلق إلى فؤادك عذباً، رائقاً، زلالاً، نقيّاً، معطَّراً برحيق الهيل!... ستكتشِفُ أن إلهام تتركُ كلَّ يوم حبَّةَ هَيْل تذوبُ ببطء في خلايا ثغرها قبل أن تلحقَها حبَّةٌ أخرى ثمَّ أخرى، اليوم تلو الآخر!... ليتحوَّل رضابُها بمفعول كيمياء الزمن وبيولوجيا الرغبة إلى رحيقٍ عطريٍّ غدِق الإفراز! لن تتوقَّفَ لحظةً صغيرةً مدى الحياة، بعد هذه القبلة الأولى، عن

هي سيّدةُ الموقف! تقتَحِمُك بِحُرِّيةٍ وعبقريةٍ وإبداع لا يخطر على بالك. هي سفينةُ هذا البحر وربّانته. هي سفينةُ هذا العشق وربّانته. تمسخكَ وتسحقكَ بكلماتٍ غرامية مذهلة بين كلِّ قُبلةٍ وقُبلة، بصوتِها الإلياذي الساحر الذي يكفي أن تسمعهُ بهذه الرقَّةِ المُركَّزة والإدهاش المتسارع لتفقدَ وعيكَ تماماً...

قاموسُ دماغِكَ، أنتَ، ينحصرُ في هذه الكلمات: «رضابُكِ إلهامُ، رضابُك! مدَدُكِ إلهامُ، مدَدُك!...» لا تعرفُ نطقَ كلماتٍ أخرى، كأَنَّ أحرف الهجاء التي لا تنتمي إلى هذه الكلمات ليست جزءاً من أبجديتك! صرْتَ، أنت المتحذلقُ أحياناً، الذي لا تخونُكَ الكلمات غالباً، مأخوذاً، مبهوتاً، دائخاً، منذهلاً، مخدَّراً، مفتوناً، مُمغنَطاً، مسحوراً تماماً... هاأنت أعجم، أخرس، أخرق، أحمق، أبله، أهبل، أخفج، «مُلخِّجٌ» [12] في ملكوت قُبلة إلهام الأولى...

هاهي نفسُها ترفعُ أكمامَ قميصيكما لِتُذكِّرَك بعبارة مدينة نَانْت التي فَتَحَتْ أبواب حياتكما المشتركة:

- كنتُ أتمنى لو كان معطفُكَ بدونِ كُمٍّ في اليد اليمنى، ومعطفي بدونِ كُمٍّ في اليد اليسرى!...

تُلصِقُ إلهامُ بشرَتي ساعديكما بعد أن تَجُرَّ كُمَّي قميصَيْكما قليلاً إلى الأعلى! تلاحظ أن على ساعِدها الذي يلتصقُ بساعِدك وشمٌ لزخارف وعراجين فسيفسائية جميلة دقيقة منقوشة بالحناء! تُقبِّلُ أصابعَها الطويلة الدقيقة، معصمَها النحيفَ شديدَ الرقّة، ساعدَها الذي تنبهرُ من روعةِ تفاصيل زخارفِهِ العرائسية... تُبْحِرُ قُبَلُكَ في النقوش البديعة التي تمتدُّ نحو أعلى ساعِدِها، قُربَ باطنِ كِتفِها...

تقودكَ إلهام نفسها صوبَ جنوبِ اليسارِ قليلاً! نحو

وشم بديع من الحنّاء مرسوم في موضع قلبِها! بحجم القلب تماماً! تُعرِّيهِ أمام عينيك وهي تُزيحُ فتحةَ أعلى فانيلتها القطنيّة البيضاء! تكادُ تسقطُ صريعاً وأنت تُقبِّلُ، أو تلتهمُ بالأحرى، جداريّةَ العشقِ المنقوشةِ على البَشرَةِ التي تُغلِّفُ موضعَ القلب... تقرأُ وسطَ تلك الجدارية هذه العبارة المخطوطة بدقَّةٍ شديدة، حولَ مركز القلب تماماً: «لكَ نشوان كلُّ ما أَضُخُّ من عِشْقٍ وعبادة، لكَ، لكَ، لك!...»

العشقُ مع إلهام، كما يقول بلزاك، «ليس عاطفةً فقط، هو فنٌّ أيضاً...»

تسمعُ دفقات قلبِها، تستنشقُ فلَّ جسدِها... تجولُ شفتاك بقوَّةٍ لا إرادية في تخوم نهدِها الكرويِّ الرقيق، تنزاحُ نحو عليائه بإجلال، نحو حلمتِهِ الظامئة السامقة... تُقبِّلُها بكل ما تمتلِكُهُ من وَلَهٍ وعشقٍ وشوقٍ ورغبةٍ وظمأٍ وشَبَقٍ ورِقَّة...

تسمعُها، بصوتها الإلياذي، تقول: «نشوان! إني أَفْلُت، أَفْلُت!...»

تقودكَ هي نفسها إلى ذلك الخصر الذي يمكن إحاطتُهُ بنصف يد! تركعُ أمامه، تبلِّلُ ركبتيك مياهُ ساحل أبْيَن، تمشطُ ذلك الخصر دائرياً بقبلاتِك بقُدسيّة، تجوبهُ شفتاكَ بِمُتعةٍ وانصعاقٍ لا حدَّ لهما!...

تودُّ أن تقول لها أيضاً: «إلهام، إني هالكٌ، هالك!...» لكنك لا تستطيع! خرَستْ لِسانُك فعلاً! لا تتوقَّفُ هي، وأنت تُصلِّي قرب خاصرتها، عن مواصلة تغريد أجمل عبارات وهمسات العشق، بأرقِّ وأعذب نبراتها... وأنتَ مازلت محروماً من النطق إلا من هذه العبارة التي تستنزف كلَّ كلمات قاموسك: «رضابُكِ إلهامُ، رضابُك! مدَدُكِ إلهامُ، مدَدُك!...» هاهي، هذه العبارة نفسها، تخرج بلا وعي من شفتيك مرَّةً أخرى وأنت تستقيم من جديد مُتَّجهاً بشكلٍ

مغناطيسي نحو ثغرها، لِتسكُرَ من رضابِهِ مرَّة أخرى... لِترتَشفَ لسانَه، تعتصِرُها... لِتُودِعَهُ ألف قُبْلةٍ وقُبلة!...

تسيران طويلاً ذهاباً وإياباً متجاشمَين كجسدٍ واحد. تقفُ إلهام أمامك لِتواجهكَ تماماً بين الخطوة والخطوة، لأنها تُصِرُّ أن تراها كُلاًّ بأُمِّ عينيك، أن تملأَ نظركَ بها كاملةً أمامكَ في الواجهة، أن تكتسحكَ بحُسْنِها التي تعرفُ، هيَ مثلكَ تماماً، مدى سطوتِهِ وجبرُوتِه. تُصِرُّ أن تُغرقك تماماً!... لا تتجرأ عيناك النظرَ لها أمامك في الواجهة. ترمقُها، تُحدِّق فيها سريعاً بحياء... تحتضنُها بين كل خطوةٍ وخطوة. لا تشبعُ أبداً من احتضانِها...

تفحصُ جغرافيا المكان باحتراز وحذر وتبصُّر: لا أحد أمامكما في منتهى النظر قرب الأفق! خلفكما العابرون، مشياً أو على الدراجات الناريّة الشاطئية، بعيدون تماماً، مقرفصون على رمل كورنيش ساحل أبْيَن، في طَرَفٍ قصيّ، بفضلِ هذا الجَزْر القُدْسيِّ المبارك الحكيم... ساحلُ أبْيَن لكما! المحيطُ الهنديّ لكما! زُبدهُ الرقيق الذي يُقبِّلُ أقدامكما في خدمتكما! أشيشُهُ صلاةٌ لِعشقِكما... القمرُ وانعكاساتُ أشعَّتِهِ على وجهِ وجسدِ إلهام، التي تتمايلُ أمامك سكرى من العشق، ينقُلُك إلى عوالم لم تطأها يوماً من قبل...

بعد السير قليلاً تبدآن عناقكما من جديد وكأَنَّ كلَّ ما حدث كان فقط تحضيراً للأجمل والأعظم!... لا يودُّ أحدُكما أن ينتهيَ العناقُ الجديدُ هذه المرة. تتوقَّفانِ قليلاً، تحشران ملابسَكما في كيس بلاستيكيٍّ داخل حقيبةِ ظهركَ الورديّة! تتوجَّهُ نحو لوح حديديٍّ صدئٍ يعلو قضيباً حديديّاً مغروساً في رمل البحر، غيرَ بعيدٍ عنكما. توثِقُ بيديك حقيبتَكَ الورديَّةَ في علياء القضيب الذي غُرِسَ هنا لِتمييزِ بعضِ المناطق البحريّة أو

لِتحديدِ عُمقِها...

تَفْلُتان معاً على سريرِ المياه! يُفلِتُ كلٌّ منكما الآخر في نفس اللحظة! لحظةٌ ربّانيةٌ لا يمكن أن تَفْلُتَ هي نفسها من عاشِقَينِ جريئَينِ متمرِّدَين صادِقَين مثلكما!... هذه اللحظة لهما، ولهما فقط!... ينتظرانها وتنتظرهما من أبدِ الآبدين! تأخذُها على البحر وتأخذُك على البحر! رملُ ساحلِ أبْيَن سريرٌ سُندسيٌّ شاسعٌ. فوقكما مجرَّاتٌ متهلِّلَةُ الإضاءة. تتوحَّدان بِعُمقٍ طويلاً، طويلاً، طويلاً...

تشعرُ بك وتشعرُ بها بشكلٍ مختلف. لِتوحُّدِكُما تلامسٌ آخر، مذاقٌ آخر، تناغمٌ آخر. لا تحسُّ هي بآلامٍ قديمة، لا يداهِمُها الجفافُ من مُجرَّدِ وُلُوجِها، لا تستولي عليها الرغبةُ بالإسراع من إنهاء التوحُّد!... بالعكس، هي سفينةُ العشق وربّانته! تُمارسُ مناسكَ البطء، تحتفلُ بالبطء، تُرتِّلُ سورةَ البطء!... تضمُّكَ بِتفانٍ وحرارة. تُفاجِئُك بكلمات جديدة لم تخطر ببالك، لا توجدُ في أيِّ كتاب عشق!... تشعرُ بالاستغراب من شدَّةِ حضورها، من مرونةِ وليونةِ وتَلَوِّي جسدِها، من قُوَّة ذوبانكما المشترك، من هَوْلِ وتَجدُّدِ رغبتك الاندماجيّة بها، من حِدَّة وطُوْلِ تلاحمكما البيولوجي، من جِدَّةِ رقصةِ «فالس» أعضائكما الجنسية، من انهماركما الثنائي...

يغشاكما «أورجازم» لم تعرفْهُ يوماً في حياتك من قبل. لم تصل نظريّةُ الشهقةِ في ثقافتك يوماً إلى هذا الثراءِ والعمقِ والمنهجيّةِ والكمال. تتسرَّبُ شهقتُكَ بين أعطافِ شهقتِها الإلياذية: «رضابُكِ إلهامُ، رضابُك! مدَدُكِ إلهامُ، مدَدُك!...» شهقتان تترنَّحُ نبراتُهما فوق تموُّجات مياه المحيط الهنديِّ الدافئة البعيدة...

تجلسان معاً على الماء سعيدَين، مرتجفَين كعصفورَين جائعَين بعد رذاذٍ ومطرٍ طويل... لانعكاسات القمر على بَشَرَة

جسدِ إلهام الممشوق سناءٌ لا نظير له! لم ترَها يوماً ممشوقةً فارعةً كما هي الآن تحت القمر، منبسطةً جذلانةً تماماً. لن تنسى ما عِشتَ كثافةَ السعادةِ الراقصةِ في وجهها وعينيها في تلك اللحظة بالذات... لو طُلِبَ منك أن تختارَ من ذاكرتِكَ منظراً واحداً تستعيدهُ قبل لحظة الموت لكان ذلك المنظر!...

تتحدَّثان وأنتما مستلقيَين على الماء! تُفضي لك إلهام بأسرار طفولتها! تُحدِّثُكَ طويلاً عن والدِها! والدُها الذي تحدِّثك عنه طفلٌ أبديٌّ يملأ حياتها حبّاً وعطاءً وصدقاً ووفاءً وإشعاعاً! هو منبعُ سعادةِ وبريقِ عينيها الدائم! كأنَّها لا تُحِبُّ في الحياة إلا إيَّاه! هو مثارُ كلِّ إعجابها العميق الصادق! تغيْرُ أنتَ من إعجابها به دون أن تشعر إلهامُ بذلك!... والِدُها الذي تُحدِّثُكَ عنه في حُلمِكَ هذا (الذي تعيدُ فيهِ من جديد، هنا في ساحل أبْيَن، صياغة قُبلةِ 22 مايو 1990 الكئيبة الأولى) هو العكسُ النموذجيُّ والنقيضُ المطلقُ لِوالدِها الحقيقي الذي لم تتجرأ الحديثَ عنهُ طوال حياتكما المشتركة منذ عشر سنين: طائر الخراب.

تعودان من جديد للتلاحم هذه المرّة بعد أن أفضَتْ لك إلهامُ كلَّ طفولتها. لِتلاحُمِكما الآن إعادةٌ أكثرُ مهنيّة، أكثرُ منهجيّة، أكثر نقاءً، أكثرُ انزياحاً وتنوُّعاً وحريّة، أكثر تناغماً وطولاً وثِقة، أكثر بحثاً عن الكمال والإثارةِ وتجاوزِ كلِّ الحدود... تتجاوزانِ كلَّ الحدود. تفقدُ إلهامُ هذهِ المرَّةَ آخر معاقلِ انقباضِها وقد أفضَتْ لك بآخرِ أسرارِ طفولتِها. هاهي طليقةُ البال، حُرَّةٌ كالريح!... كم هيَ في منتهى روعتِها الآن! كم تختلف جذريّاً عن إلهام تلاحمِكما الأوّل في 22 مايو 1990 في تقاطع الأطلسي بالأبيَض المتوسط! كم تختلفُ جذريّاً عن إلهامِ القبلةِ الخرساء المنقبضة التي مابَرِحَتْ تُثيرُ قُنوطَكَ

وخيبتَكَ منذ ذلك التاريخ!...

تغادرُ ساحلَ أبْيَن بعد انتهاء الحلم! تأخذُ أوَّلَ تاكسي باتجاهِ منزلِ طفولَتِكَ في الشيخ عثمان. يمرُّ بك التاكسي قرب جَولةٍ صغيرة في الطريق القديم الذي يربطُ حيَّ خورمكسر بحيِّ الشيخ عثمان. ترمقُ بأُمِّ عينيك مشهداً سيفسدُ حلمَك، سيثِيرُ غثيانَك، سيُفجِّرُ غضبَك، وسيضاعفُ من منكرات ومآسي وشذوذ ما رأيتَهُ في أوَّلِ يوم تَصِلُ به مسقطَ رأسك:

ترمقُ بضعةَ غلمان صغار، يقفون أمام الجولة، مُلوِّيينَ أيديهم خلف رؤوسهم بنفس الحركات الخليعة للعاهرات! ينتظرون زبائن من اللوطيين!...

عُهْرٌ ذكوري! أطفال يبحثون عن لقمة العيش بهذا المنوال!... من زجَّ بهم في هذا المستنقع العميق؟ في هذه الأدغال السحيقة؟ في هذه الذروة الجديدة من الامتهان والنتانة؟...

ما أبشع لوحة طائر الخراب!

حاولتُ، بعد العودةِ بالتاكسي من ساحل أبْيَن، أن أهدِّئَ أعصابي قليلاً وأخلدَ للنوم في سرير طفولتي الذي وجدتُهُ بعد عُمْرٍ طويل. لم أستطع! اجتاحتني رغبةٌ عنيفةٌ في أن أُعطِّفَ حقائبي وأعودَ لِباريس! لعلِّي، طوال سنوات حياتي في فرنسا، فقدتُ المناعةَ ضدَّ رؤية الفقر والبؤس والامتهان، ضدَّ المعاشرة اليوميّة للتجويع والنهب والنظام القبليّ، ضدَّ العيش قربَ أطفالٍ تلطَّختْ كرامتُهم في وضح النهار... شختُ كما أظن، لم أعد قادراً على التحمُّل الآن! لولا أن طيفَ إلهام كان أمامي في المرصاد يمنعني من الفرار كجنديٍّ مهزوم!... هي مشروعُ حياتي الأوحد، الأعظم، مشروع سفَري إلى اليمن الذي لن أعودَ دونه: ألم أجئ بحثاً عن أختها، نعيم، لأعرف من لِسانها أخبار إلهام الحالية، أين تختفي، منْشَأَها، أسرارَ طفولتها، تفاصيلَها الصغيرة؟...

لستُ جباناً أو ضعيفاً لأتراجعَ عن مشروعي! صمَّمتُ بعد أخذٍ وَرَد، بعد كرارٍ وفرار، أن لا أهرب من كابوس هذا الواقع الذي يُحيطني، أن لا ألوذَ بالفرارِ منه، بل أن أنغمس فيه! أن أغرق فيه! أن أستوعبه!... نعم، أن أستوعبه وكأني أدرسُ موضوعَ بحثٍ علميٍّ أو ظاهرةٍ فيزيائية!... خفتُ مع ذلك من زيادةِ كُربي وضيقي في كلِّ ساعةٍ تمرُّ على هذه الأرض. قلتُ مُهدِّئاً رَوعِي: «ثلاثة أسابيع أو شهرٌ واحد بالكثير! سأعودُ بعدها إلى فرنسا!...» ما أصعبَ أن تكبحَ جماحَ رجفتِكَ وأنت تشعرُ بالاختناق!...

مثلُ أيِّ بحثٍ علميٍّ، عليَّ أن أبدأ بالبحث البيلوجرافي الكامل عن كلِّ ما يمسُّ هذا الواقع منذ مغادرتي له! يلزمُنِي إذن، وأنا هنا بجانب أُمِّي بعض أيّام قبل السفر إلى صنعاء، أن أقرأَ أهمَّ ما كُتِبَ عن هذا الواقع في القصص والروايات والشعر، في الصحف والمجلّات، في الدراساتِ الدوليَّةِ المتوفِّرةِ على أنترنت...

قرَّرتُ لذلك أن أشتريَ كلَّ الكتب الأدبية والاجتماعية التي سأجِدُها في مكاتب عدَن. صمَّمْتُ أن أتابعَ كلَّ ما يدور في صلب المجتمع، أن ارصدَ أحاديث الناس في أركان الشوارع، في «اللوكندات» [13]... أن أُفتِّشَ عمّن تبقَّى من أصدقاء طفولتي لأُتابع الخيطَ الذي جرَّ حياتَهم إلى ما هي عليه الآن... سَرَدْتُ في ذاكرتي قائمةَ أصدقاء الطفولة. لم يتبقّ اليوم منهم إلا القليل: نزح أو اختفى الكثيرون! مات معظمُهم في هذا البلد الذي يموت فيه الإنسان مستعجلاً جدّاً، سريعاً، بلا احتضار، صغيراً في الغالب، بسرعةٍ تفوق دُوَلَ العالَم...

صحوتُ في الغد متحمِّساً! مشروعي الأول: البحث البيلوجرافي عن بلدٍ سال بين أصابعي يوماً ما ولم أعد أعرف كيف أقبضُ به، تدحرجَ في هاوية ولم أعد أعرفُ أين أجَدِه، كيف أتفاهمُ معه، كيف أتصالحُ وأتخاطبُ معه... لعلّي كنتُ أشعرُ، في لاوعيي الدفين، بشكلٍ أو بآخر، أني لن أجد إلهام دون أن أجدَ أوّلاً هذا الواقعَ الهاربَ! دون أن أعيشَهُ من جديد! دون أن أتمرَّغَ في أدراكهِ السفلى!...

قرَّرتُ منذ الصبح الباكر أن أدعو والدتي للغداء هذا اليوم! أن أستضيفَها في منزلِها! أن أطبخ لها أنا نفسي وجبةً طالما أحبَّتْها عندما كانت إلهامُ تطبخُها لها في باريس: صوصة

«بيضونة العِجل» [14]!... كانت وجهتي الأولى إذن: أسواق الخضَروات واللحوم في ذلك الشارع الكئيب بين مسجد العيدروس ومسجد النور! أقصرُ الطرُقِ المؤدِّيةِ إلى قعرِ الواقعِ الذي أبحثُ عنه!...

وجدتُ نفسي وحيداً في مطبخ أمي العتيق ذي الجدران المغلقة تماماً! المطبخُ كهفٌ ضيِّقٌ صدئٌ مظلمٌ مُدخِّنٌ يخلو من معظم أدوات الطباخة الحديثة ويمتلئ بكلِّ أنواع القاذورات والحشرات... شرعتُ بِغسلِ الخضروات، ثمّ اللحم الذي كان شديد الحاجة للتنظيف الطويل من فرط كميّةِ ذباب السوق وشدَّةِ حراكها.

مشكلةٌ جادة: الحنفيَّةُ مضخَّةُ هواءٍ لا غير! الماءُ ينقطع معظم ساعات اليوم في عدَن التي عرَفَتْ الحنفية، مع ذلك، منذ 1928! (الماء ينقطعُ كلَّ أيام السنة تقريباً في مدينة تَعِزْ الأكثر سكّاناً في اليمن! الماء مُلوَّثٌ جدّاً، إن لم يكن أقذرَ مياهِ العالَم بامتياز، عندما لا ينقطعُ مراراً عن حنفيّات العاصمة صنعاء...)

خرجتُ لِشراء قنينات مياهٍ مُعبأة، من البقّالة المجاورة. غسلتُ اللحمَ والخُضَرَ جيّداً. بدأتُ بِغَلْي بعض الخُضَر بالنار. المطبخُ خانقٌ رغم خرير المرْوحَة الهوائية الكهربائية. خانقٌ جدّاً... قبل توقُّفِ الكهرباء فجأة!

اللعنة! سخونةُ المطبخ لا تُطاق! هاأنذا أشتعل! لم تتبلَّلْ ثيابي يوماً مثل هذه اللحظات الخانقة في لهيب المطبخ! الكهرباءُ كابوسُ أمِّي، كابوسُ كلِّ سكّان المدينة! تتوقّفُ كهرباءُ الأحياء العدَنيّة ساعاتٍ طويلة، ثلاث مرَّات يوميّا على الأقل! سعرُ فاتورتِها، رغم ذلك، تلتهمُ أكثر من نصف راتب

المواطن البسيط! ذُهِلْتُ: لا أعرف دولةً أخرى تنقطعُ كهرباءُها بهذه الوتيرة، وتُكلِّفُ هذا السعر! أليستِ الكهرباء «خدمةً»، بالمعنى الحديث للكلمة، في معظم دول الكون؟...

هاأنذا الآن أطبخ بالشموع!... كان بإمكان ذلك أن يخلق جوّاً رومانسيّاً إلى حدٍّ ما لولا أن هناك صوتاً شبابيّاً صارماً بدأ يُجلجلُ ملء المطبخ! أصغيتُ مخبولاً لأصداء ذلك الصوتِ الذي يرجُّ مسمعي هنا، داخل المطبخ!... كدتُ أنسى الملحَ وبعض البهارات، كدتُ أُحْرِقُ اللحم...

أربعة ميكروفونات في طرفَينِ مُتباعدَين من ركن الحيّ ترتبطُ بأسلاك طويلة مع مئذنة المسجد المجاور لِتُدَوِّي بمواعظهِ وأدعيتهِ في أركان المدينة الأربعة! الخطيبُ يوعظ في عزِّ الظهر! عمّاذا يتحدَّث؟ عن الجوع؟ لا! عن الفقر؟ لا! عن نَهْبِ هذا المواطن البسيط وطَمِّ أراضيه وطَمْسِ هُويَّتِه، عن الفساد الذي يجثو على رأس هذا البلد وقاعدته، عن انقطاع الماء والكهرباء؟... لا! عن السياحة الجنسية ودعارة الأطفال؟ لا! عن الخدمات الصحيّة والتعليمية الأكثر سوءاً في العالم؟ عن أضعف أرقام التنمية في العالم الموجودةِ في اليَمن؟... لا! عمّاذا يوعظ إذن؟... عن «الحامورة»! نعم! عن كيفيةِ ومنهجيَّةِ ضربِ زوجتِك إذا وَضَعَتْ الحامورة!... ينصحُكَ باستخدام السوط! يَعِظُكَ بضربِها من العنق حتّى أسفل القدمين فقط! لا يستحسِنُ ضربَها بالسوط على الوجه! ياللانسانية الطافحة!...

أكادُ لا أصدِّقُ ما أسمعُهُ وأنا أضطرمُ في وعثاء المطبخ: يَصِفُ فضيلتُه بشكلٍ داعر جسدَ المرأة بعد وضع الحامورة على الشفائف، يُفصِّلُ أحاسيسَهُ المريضة أمام رؤيةِ المَاكياج بكلماتٍ لا تخلو من الخلاعة، يتجاوزُ ذلك في انزياحه الوصفيِّ الماكرِ

لِجيدِها ومفاصلِ جسدِها... أيُّ ذنبٍ ارتكبْتُهُ لأسمعَ هذا الهذيان الفاحش؟ هذا «التحريض على العنف»؟ هذه البذور الفكريّة التي تنشئُ سادِيِّين ومجرمين وإرهابيين وعدوانيين وقُطَّاعَ طُرُق؟... في أيِّ بلدٍ في العالم، لا يخلو من قليلٍ من الإنسانية فقط، سيُحاكَمُ واعظٌ كهذا بتهمةِ «التحريض على العنف»! سيُزَجُّ بهِ في السجن في أكثر الاحتمالات... فيما هو هنا يُعكِّرُ صوصتي قسراً، يجتاحُ مطبخي دون إذْنٍ في عزِّ النهار!...

أكلناها مع ذلك «بيضونة العِجل»! «مُشْ ولا بُد!»، قلتُ لأُمِّي. «لذيذةٌ جدّاً، كأَنَّ إلهام هي التي طبخَتْها!»، أجابت والدتي الحبيبة، فيما كنتُ أُحدِّقُ في لفائف الشعر الأحمر التي بدأت تغزو رأسَها وتضاعفُ من شيخوخةِ وجهها الضامر.

إلهام تملأُ الذاكرة، تكتسِحُها اكتساحاً!...

التهمتُ كل ما اشتريتُهُ من كُتُب، في ضوء الشموع في الغالب! لم تشفِ غليلي في شيء. ما أبعدها عن هذا الواقع!... كان فاتحتي: الشِّعْر! لحظاتٌ شعريّةٌ جميلة هنا وهناك، كلماتٌ أنيقةٌ أحياناً... غير أن القصائد تتشابهُ كثيراً! لا أعرفُ التمييزَ بين بعض شعراءِ نفس الجيل. يُكرِّرون بعضهم في الغالب بوتيرةٍ مذهلة. يُكرِّرون أنفسهم كثيراً منذ 30 عاماً، بنفس الرتابة واللاشعر أحياناً، بشكلٍ مقرفٍ في الغالب... شِعرُ الحبِّ هو شِعرُ اللاحب في معظم الأوقات. شِعر الظمأ للحب، أساساً. شِعرُ الحرمانِ من الحب!...

القصَّةُ القصيرة تسبحُ في نفس الفلك. ومضاتٌ وانطباعاتٌ ومشاعر طافحةٌ جميلةٌ أحياناً، خافتةٌ سريعةٌ في الغالب... هذيانٌ متواتر، إنشاءٌ ثقيل، جُمَلٌ غيرُ رشيقة، فضفاضةٌ ثقيلةٌ مترابطةٌ بأوتاد وحبال وأوراق لاصقة. فقراتٌ غيرُ مفهومةٍ أو مُكَسَّرةٌ أحياناً.

سَرْدٌ رتيبٌ للفراغ الإنساني الذي يملأ هذه الحياة...

الروايةُ الأدبية منعدمةٌ تقريباً! ياللكارثة! 18 مليون مواطن بلا رواية واحدة! لم أجد في المكاتب روايةً حديثةً واحدة!...

كنتُ أبحثُ عن كتابات تقودني إلى العمق، إلى جذرِ أوجاعِ هذا الواقع، إلى منبعِ بؤسِ وآلام هذا الإنسان... أردتُ أن أشاهدَ، تحت ميكروسكوب الأدبَ والكتابات الاجتماعية، كيف تتناسل ميكروبات هذا الواقع، كيف تنمو وتتحرّك وتنهشُ أنسجتَهُ الغائرة... أردتُ أن أقترب مما يدور في عمق أعماق إنسان هذا البلد!... بحثتُ عن كتاباتٍ تُفكّكُ لي، عبر المنشور الضوئي لِكلماتها الشفيفة، تضاريسَ الهاويةِ التي يعيشُها هذا البلد، تجعلُني أستوعبُ قوانينَ السقوطِ التي تحكُمُه، ميكانيكا الخرابِ الذي يعيشه... فتَّشتُ في كلِّ الكُتب عن كلماتٍ حلوةٍ رشيقةٍ قويَّةٍ حُرَّة تقتربُ من الجرح، تُعرِّي الألم، تكشفُ المعاناة، تفضحُ الخوف، تغوصُ في العمق، تسردُ اللاوعيَ المحمومَ والباطنَ الخفيّ، تُرمِّمُ الدماغ، تخاطبُ الطبقات الدفينة الصماء في العقل، تباغتُ المجهول، تكشفُ مخططات الكارثة...

لم أجد شيئاً من ذلك! صرخاتٌ هنا وهناك. تجلِّياتٌ عديدة. مواهبٌ قويّةٌ جبّارة محرومةٌ من وسائل الإبداع، مقموعةٌ في الغالب. أقلامٌ صحفيَّةٌ جريئةٌ شجاعةٌ عملاقة تقاومُ وسط بحرٍ لُجاج من الكتَّاب المنافقين والخائفين والمُطبِّلين والمومسينَ وقالبيّ المعاطف والمُخبرين والمرتزقةِ والسفلَة... غير أن الجوعَ والضياعَ اليومي والخوفَ والجمودَ يبتلعُ كلَّ المواهبِ والملَكات، يجتاحُ كلَّ الكلمات! «الجائعُ لا يُبدع!»، كما يقولون... شعرتُ بالقرَفِ من معظم ما قرأْتُه! شعرتُ أن بَحْثِيَ البيولوجرافي يدرسُ فيزيولوجيا الجمود! يدورُ في الفراغ، ينتقلُ من فراغٍ إلى فراغ،

يضيعُ في جغرافية الفراغ، يستشرفُ مستقبلَ الفراغ...

لجأتُ إلى أنترنت! أحسستُ أن هذا البلَد، الذي أصبو إلى سبرِ أغواره الخفيّة، مرصودٌ بشكلٍ أدق في الدراسات الجامعيّة الدولية، في تقارير المنظمّات العالمية وخطوطها البيانيّة، في مواقع من زاروا أرضهُ من أبناء الدنيا، في عيون أبنائه وعشَّاقِهِ الذين يلجأون إلى التعبير الحرِّ عبر أنترنت... آه، هاأنذا أقوم بالبحث عن اليمن، داخل اليمن نفسها... عبر أنترنت!

كنتُ أتَّجه كلَّ صباح باكر، حتّى الحادية عشرة مساءً، إلى مقهى أنترنت في الجهة المواجهة للمسجد القريب من منزلنا... المقهى فاضٍ تماماً في هذه الساعة. الوصول إليه كلّ صباحٍ لا يمرُّ دون أن يمتلأ ألبومُ ذاكرتي بمشاهد موجعة:

اليوم الأول: طفلٌ لم يتعدَّ السادسة من العمر يتسلّى بنقلِ كومةٍ صغيرةٍ من العملات المعدنية من اليد إلى الأخرى! متى جمَعَها؟ أيُّ أبٍ أو أمٍّ سمحا له بالخروج وحيداً في هذه الساعة، وفي هذه الهيئة التي تتطلبُ الغسلَ طوال يومين كامِلَين... لِتلوحَ بعد ذلك فقط أولى طبقات بَشرَةِ الجلد!

اليوم الثاني: ثلاثُ فتياتٍ في عُمر الورد، منكوشات الشعر، متَّسخات الملابس، حافيات الأقدام... ينقُلنَ جالونات الماء على سيّارة. تجرَّأْتُ باستفسارهنَّ عن أعمارهن تحديداً. «لا أعرف!»، أَجبنَ بصَوْتٍ واحد! سألتهنَّ لماذا لا يُقضِّين إجازة صيفهنَّ المدرسيَّة في الراحة في مكانٍ آخر؟... لم يَفهمنَ ما يعنيه هذا السؤال تحديداً! «المدرسة؟...» أجبنَ سويّاً بِضحكةٍ خجولةٍ مُشتركةٍ بريئة!

اليوم الثالث: شيخٌ يطلبُ رزقَهُ من صبح اللّه الباكر، يجرُّ عربةً صغيرة فيها كَوْمةٌ من فواكه الخوخ و«العبّاسي»

والتين الشوكيّ! كتلةٌ من رجال الشرطة الأشاوس يقتادونه بِحُجَّةِ مخالفتِهِ لقوانين المرور، تعطيلهِ للسير، وتشويههِ لِجَمال المدينة... لم يخرج المسكينُ من شبكةِ صَيدِهم دون أن يفرغ كل ما في جيبهِ من ريالات وبعضاً من كومةِ التين الشوكيِّ رُشوةً لهم فرداً فرداً!

اليوم الرابع الذي غيَّرتُ طريقي بعده باتجاه مقهى أنترنت في جهةٍ أخرى من المدينة: طفلٌ أمام باب المسجد، مقطوع الذَّكَر!... يُجلي تشوُّهَهُ أمام العابرين! وسيلةٌ جديدة لكسب لُقمَةِ العيش في بلدِ طائر الخراب! من بَتَرَهُ؟ مافيا شبكات المتسوِّلين؟ والِدَيه الذين سيضمنون بذلك دخلاً يوميّاً محترماً؟...

البحثُ البيلوجرافي كان أكثرَ ثراءً ودقّة عبر أنترنت! أبحرْتُ كثيراً في مواقع شتّى! لم أترك موقعاً أو نصّاً يحملُ اسم اليمن بشكلٍ أو بآخر، جادت به «موتورات بحث» أنترنت، دون أن أتصفَّحه! غَمرني لفيفٌ من المواقع والنصوص من كلِّ حدب وصَوب. لم أعرف كيف أخوضه. حشدٌ كبير مما وقفتُ عليه لم يكن يُهمِّني في شيء، لا يُسْمِنُ أو يُغني من جوع فيما أصبو إليهِ تحديداً... طائفةٌ من النصوص أثارتني وإن لم تُهِمّ موضوع بحثي أيضاً: اليمَن في عيون من مرُّوا أو عاشوا فيها من غير أبنائها...

قضَّيتُ كلَّ أيامي الأولى في عدَن أقرأُ، أفرزُ، أرمي في الزبالة أفواجاً هائلةً من المواضيع... تمحورْتُ في البدء حول مواقعَ عامة جعلتني أحدِّدُ موقعَ اليمن في خارطة العالم اقتصاديّاً واجتماعيا وسياسيّاً وتعليميّاً: في الحضيض تماماً، في أسفلِ السافلين!...

ثمَّ اكتشفتُ بعد ذلك بالصدفة مواقعَ متخصِّصةً قادتني عموديّاً إلى جذر الألم! إلى مركز ثُقلِ الكارثة! قادتني مباشرة،

بشكلٍ لا يخطرُ على بال، إلى من جئتُ من فرنسا أبحثُ عنها: شقيقةً إلهام البيولوجية وتوأمها الروحي: نعيم!

تصفَّحتُ في الأيّام الأولى مواقع المنظمات الدوليّة، معاهد الدراسات، الأبحاث المتخصِّصة... تقاريرُ الأمم المتحدّة والمنظمات الدوليّة تشرخُ العظم: «اليمن إحدى أفشل عشرة دول في العالم!»، «اليمن إحدى أكثر دول العالم فساداً»... الرسومات البيانية حول ازدياد الفقر خلال أعوام 1990-2000، حول انخفاض مستوى دخل الفرد خلال تلك السنوات بأكثر من سبع مرَّات، حول الضعفِ المضطرد للإنتاج الوطني... تفقعُ النظر! أكثر ما أوجعني هي التقارير السنوية للأمم المتحدَّة عن «مؤشر التنمية الإنسانية»!

«مؤشر التنمية الإنسانية» مصطلحٌ كثيف، شديدُ الجوهريَّة، تعلَّمْتُهُ بفضل أنترنت! مفهومٌ حديث اخترعهُ خبراء الأمم المتحدّة للتحديد الدقيق لِجودةِ حياةِ الإنسان أو سوئِها في أي بلد. تتجسَّدُ قيمةُ هذا المؤشِّر بصيغةٍ رياضية تأخذُ في الاعتبار كلَّ ما يؤثِّرُ على نوعيَّة حياة الإنسان: دخله المالي، مستوى الخدمات الصحية والتعليمية التي ينالها... يحسبُها طاقمٌ من الأخصائيين، خلال عامين، لكلِّ بلدٍ على حِدة. تنتهي حساباتُهم الدقيقة جدّاً بكُسرٍ عُشْرِيٍّ، بين الصفر والواحد، يُلخِّص مقدار السعادة أو البؤس في كلِّ بلد! يشبه درجة حرارة الإنسان المُقاسَة بالترمومتر!...

مثل الترمومتر تماماً: إذا وَصَلَتْ درجةُ الحرارة إلى الثالثة والأربعين أو أكثر فالمريض طائحٌ، على وشك الموت! كذلك إذا كان الكسرُ العشْريُّ لمعدَّل التنمية في أيّ بلد أقل من 0.5 فالبلد مريضٌ على وشك الانهيار، عالَةٌ على الكرة الأرضية، لا أمل

في تطوُّرِهِ في الواقع، منهارٌ «اكلينيكيّاً»، هالِكٌ لا مُحالة، «لهُ اللّه»، كما يقولون!... يعيشُ أهلُهُ بأقلَّ من «نصف حياة»! بأقلَّ من نصف عُمْر، بأقلَّ من نصف دماغ، بأقلَّ من نصفِ قلْب...آه، أن «تعيش بأقلَّ من نصف حياة»! يالروعةِ ودِقَّةِ وبشاعةِ هذا التعبير في نفس الآن!... 30 دولةً، بين 177 دولة تضمَّنتها القائمة، مُعدَّلُ تنميتِها أقلُّ من 0.5! يعيشُ أهلُها بأقلَّ من «نصف حياة»! إحداها اليمن!...

ياللكارثة! صُعِقْتُ وأنا أقرأُ التقاريرَ الدولية وأُلاحظُ أن اليمنَ أضْحَتْ «عالَمَ ثالث» العالَم العربيِّ! هي الدولة العربية الوحيدة، بين تلك ال 30 دولة، التي يقلُّ مؤشرُ تنميتِها على 0.5! تحقَّقْتُ جيِّداً: حتَّى السودان، التي يضربُ بهِ المثلُ أحياناً بضنكِ الحياة وشدَّةِ البؤس، يَقعُ خارج هذه القائمة!... الغالبيّةُ الساحقةُ لتلك الدول الثلاثين مجهولةٌ من الخارطة: سيراليون، رواندا (التي أشهرتها حروب إبادتها الشنيعة لا غير)، بوركينافاسو، غينيا الاستوائية... أغلبُها بلا موارد تستحق الذكر في الغالب: الكاكاو، الجلود، البن، النارجيل... ناهيك أن موقعَ اليمن، في ترتيب قائمةِ دولِ العالم، يتقدَّمُ كلَّ عام بضعة خطواتٍ إلى الخلف، بشكلٍ ثابتٍ منتظم، وكأنَّها تتدحرجُ في مزلقة، أو كأنَّها تبحثُ عن ميداليةٍ أولمبيّةٍ في سرعة الانهيار...

معجزةُ اليمن، أو معجزةُ طائرِ الخراب بالأحرى، معجزةُ مهندسِ الخرابِ الذي نهبَ مليارَاتِها وأحكمَ توثيقَها في سلاسل التخلُّفِ والقبليةِ والفسادِ والجهل، أنها تقعُ ضمن تلك الثلاثين دولة مع أن مواردَها البترولية تُدِرُّ عليها مليارات من الدولارات سنويّاً! مواردُها السمكيَّة والبحريَّة غنيَّةٌ جدّاً! ناهيك أنها من أثرى دُولِ العالم بالمؤهلات السياحيّة: اليمنُ ثلاثةُ عوالم سياحيّة، مختلفةٌ جدّاً، مذهلةٌ جدّاً، متكاملةٌ جدّاً في بلدٍ واحد:

1) هضبة حضرموت الساحرة ومُدُنُ ألف ليلة وليلة المتناثرة في سواحلها وصحاريها: سيئون، شبام، المُكلّا، الشّحْر... 2) المناطق الشمالية والوسطى من صنعاء حتّى مأرب وإب وتَعِز، بجبالِها الخلّابة، معمارِها الفريد، تُراثِها العريق ومُدنِها القديمة... 3) الشريطُ الساحَليُّ المدهش الهابط من تهامة في أسفل البحر الأحمر حتّى حضرموت، القابلُ لِلسباحةِ طوال كلّ ساعات العام، المؤهلُ بشكلٍ نموذجيٍّ للسياحةِ الشتويَّة المثلى، والذي تتناثر قربُهُ مُدنٌ ميثولوجية شهيرة متنوعة كعدَن، زَبيد، المخا... ناهيك عن أرخبيل جُزُرٍ يمنيّةٍ بديعةٍ خلّابةٍ نادرة، تقعُ في مقدِّمتها: سوقطرة!... كلُّ ذلك في بلدٍ واحدٍ لا غير! بلدٌ لا يقترب منه سائحٌ واحدٌ تقريباً، لأن وضعَهُ السياسيّ والاقتصاديّ والأمنيّ يُثيرُ نفور العالم!... ابتسمْ، أنت في بلد طائر الخراب!...

بعد أيَّام وليالٍ قضَّيْتُها أرتعُ في مواقع شتّى على أنترنت، وقعَ نظري بالصدفة، في موقع صحيفةِ بانيبال الأدبيّة الإنجليزية، على قصّةٍ قصيرة لكاتبة يمنيّة لم أسمع بها من قبل، اِسمها نادية الكوكباني، ترجَمَتْها إلى الإنجليزية الكاتبة جيني ستيل! هزَّتني هذه القصة بعنف منذ عنوانها: «ألعاب ناريّة لاحتفال فضّ بكارة»! استوْلَتْ عليّ بشكل غامض... ثمَّ تذكَّرتُ أني قابلت هذا العنوان قبيل أسابيع قليلة! في ملف إلهام، داخل كيس بلاستيكيٍّ يُشبهُ أكياس الطلاسم! في باطن غلاف دفتر ذكرياتها الحميمية!... قرأت القصّة القصيرة أكثر من سبع مرّات متوالية!...

لِأسْرُدْها أوَّلاً بنفسِ كلماتِ كاتبتها، بنفسِ برودة هذه الكلمات المحرقة...

إليكمُ الآن هذه القصّة كاملة بين أربعة أقواس كبيرة. أربطوا إذَنْ أحزِمتَكم جيِّداً!

((لم يكن يهمُّه كثيراً أن ما سيقوم بهِ سيدمرها، سيدوس كلَّ مشاعرها، سيقتل أرقى إحساس يمكن أن تناله أو تحلم به امرأة، وسيحرمها من أنبل متعة مدى الحياة... رغم أنها ابنته، وإن كان لا يعرف مع ذلك رقمها التسلسلي، ومن أي زوجة جاءت! لأنه لا يحفظ ذلك إلا بعد تكرار الدرس عليه ألف مرّة، أو حسب غلاوة أمها في عينيه...

لا يعير معرفة هذه التفاصيل الصغيرة اهتماماً كبيراً لأن هناك مشاغل عديدة أكثر نبلاً وجلالاً يقوم بها حضرة الشيخ. مشاغل تهم القبيلة، والناس، والجوار...أما شئون أولاده، أسماؤهم، صحتهم... فلها من يهتم بها من الخدم المتخصصين بالنظافة والأكل والتعليم.

الغريب أن هذا التعليم كان يهمّ الشيخ كثيرا! كان حريصاً على أن يتلقاه جميع أبنائه، البنات قبل الأولاد، وعلى يد أفضل الشيوخ ومدرسي البلاغة والنحو والصرف. لكن عندما يتعدى الأمر كل ذلك، وتقع بين يديه رسالة إعجاب بابنته من شاب رفضَتْ الإفصاح عن اسمه أو عن شكله ولونه، فالأمر يختلفُ تماماً! حتّى وإن كان رفضُها لسببٍ واضح صريح: لا تعرف ذلك الشخص لأنه تمَّ قذفُ الورقةِ إلى غرفتِها بِ«قوسٍ» مجهولِ المصدر!

لم يُفَكِّرْ ولو لحظةً أنها صادقة، رغم أنها لا تخرج أو تدخل

إلا بمرافقين. لم يُفَكِّرْ لحظةً واحدةً أن يسأل الشغَّالةَ كيف وَجدَتْ تلك الورقة اللعينة التي لم تقرأها بعدُ ابنته المسكينة! ؟... كلُّ ذنبِها، ابنته المسكينة، هو أن اسمها كان مكتوباً في الورقة رغم كرمشتها وعدم وضوح الخط فيها...

ثارت ثائرته! لابد أن الأمر تعدَّى ذلك بكثير! بحث عنها، ابنته المجرمة التي لم تتجاوز العاشرة من عمرها! وجدها: هاهي تلعب مع صديقاتها أمام المنزل، في الجزء الخاص بالنساء. التقطها من رقَبتِها كما يلتقط حشرة! ألجمتها المفاجأة، لم تسأل! أو تتكلم! لم تجد الفرصة لتستيقظ من الكابوس الذي بدأ للتو...

تهاوى فوقها هذا الجبل العظيم، شيخ القبيلة وحامي حماها! قام بتفتيشها، بتجريدها من ملابسها الداخلية، ليتأكد بنفسه من عذريَّتها، من تواجد ذلك الغشاء اللعين الذي لم تكن تعلم عنه شيئاً حتى اللحظة... (تلك البكارة التي يتقن والِدُها فضَّها، وبسهولة، مبرهناً على فحولته التي لم يمسها الدهر بسوء، أو يظفر منها الزمن بشيء، وبمعدل بكارتين كل عام: معدلُ زواجه السنوي من أجمل صغيرات القرية، والقرى المجاورة.)

المسكينة فاغرةُ الفاه، مبحلقةُ العينين، لم تستوعب بعد ما يحدث! سارع بطلب خبيرة أغشية بكارة، «مُزَيِّنة» [15]، ليتأكد أكثر وأكثر وأكثر من شرفِهِ الذي لم تُلَطِّخْهُ هذه الحقيرة التي... بدأت تعشق، وتحب، وتأتيها رسائل غرام أيضا! لأنها لو فعلت لقتلها دون أن يحاسبه على ذلك احد، أو حتى يسأله احد... بما في ذلك أمُّها الواقعة، حتى «شُوشَتِها»، في غرام الشيخ والمستعدّة لعمل أي شيء حتى تكون من ضمن الأربعَ الزوجات الدائمات في عُصمته. الأم التي زغردت من أمعائها عندما زفَّت ال«مُزَيِّنة» إلى الشيخ خبرَ براءة ابنته، وطمأنته على وجود

غشائها المصون في محلّه، وعلى ثبات بكارتها العظيمة.

رغم كل هذه التأكيدات إلا أن الشيخ لم يقتنع أبدا. (إقناع الشيوخ، بأي شيء تافهٍ صعبٌ جدّاً، فما بالك بأُمِّ الأسرار والخفايا!). قرر عندها أن يقطع الشك باليقين ويقوم بتزويج ابنته، وعلى وجه السرعة! أي اليوم التالي مباشرة! وبمن؟ بأحد أتباعه المخلصين، الذي يمكنه أن يخرس لسانه فيما لو كان قد أخطأ شخصيّاً فحصَه لبكارة ابنته، وفيما لو كانت «المزينة» تكذب بسبب خوفها من عقاب الشيخ...

كانت القبيلة بأسرها تتابع أوّلاً بأوَّل أدقَّ أمور احتفال زواج بنت الشيخ... التي اقتِيْدت إلى غرفة نوم تمَّ تجهيزها للعروس. لم تفق الطفلة الصغيرة من صدمة الأب، لتَّقع في صدمةٍ من نوع آخر. صدمةُ أن يُقفَلَ بابٌ واحدٌ عليها وعلى رَجُلٍ لا تعرفه، سمِعَتْ اسمَهُ فقط، وبأنَّهُ خادمٌ أمين للشيخ. صدمةُ أن يقترب منها على إيقاع الرقص والآذان الصاغية خارج الباب، أن يلمسها، أن يعبث ببراءتها، أن يستقبل دموعها بشفقة... قبل أن يُقرِّرَ تأجيلَ ما ينتظره الشيخ خلف الباب إلى الغد!

- هل أنت مجنون؟... لن تتأخر لحظة واحدة يا مغفل!

هكذا هبَّ في وجهه الشيخ، ركل الباب بقدمه، وأمر بإحضار حبلٍ لهذه المتمردة. بيدهِ أوثقها من يديها وقدميها... تلذَّذَ بسماعِ صراخِها، استغاثتِها التي لم تجد لها سامع، والوصولِ بجُرحِها إلَى أقصى درجات الألم... أجبر خادمَهُ على اغتصابها أمامه! ليرى بأمِّ عينيه دماً أحمراً يسيل من أحشائها! رآه أخيراً كما يشتهي، رآه كثيفاً دافقاً يخرج من أكثر أحشائها غوراً!...

بدت عليه علامات الابتهاج، السعادة، الرضا، الفخر! تمَّ أخيرا فضُّ ذلك الغشاء الذي حيَّرَهُ معرفةُ وجودِهِ من عدمه، وأثقلَهُ الخوفُ من غيابه بِهمٍّ كدَّرَ مزاجَهُ وأرهقهُ طوال يوم ونصف! منذ

وصول تلك الرسالة المشئومة بين يديه تحديداً!

ها هو يقفز فرحا، يتَّجهُ نحوها، يُقبِّلها، ابنته الشريفة العفيفة!... أعتذر لها عما بدر منه! آه، كان يجب عليه أن يتأكد من أنها لن تخذله!... أعتذر لها وجسدها ما زال ينتفض من الخوف، ودمها يبقبق ساخنا في كل أرجاء القبيلة. قرّر أن يحتفل بذلك! أمر بإحضار أكبر كميَّةٍ من الألعاب النارية لتفجيرها في سماء القرية، فوق رأس الجبل، على بعد خطوتين من السماء!...

ارتفعت زغاريد النسوة لنصف يوم حتى وصلت القبائل البعيدة، وتعالى صوت الرصاص حتى صم الآذان. نظرَتْ ابنتهُ في وجهه ومرارة العالم مرتسمة على ملامحها. لم يكترث، أو يؤنبها على تلك النظرات التي تبصق في وجهه. كلُّ شيء لا قيمة له أمام حفاظها على بكارتها، هذا الإنجاز العظيم!

قرر سُموُّه، وسط الألعاب النارية الصاخبة التي تملأ سماء الجبل، تلافي هذه المعضلة بتزويج شقيقتها الصغرى في سن الثامنة على أحد رجاله أيضا، شريطة أن يتم الدخول بها في سن الثانية عشرة. الشيخُ لا يريد أن يحيى هذا الهمَّ من جديد.

لم يستطع صبرا الرجلُ الذي حمَّلَهُ الشيخُ كاهلَ الحفاظ على بكارتها أربع سنين! ذات يوم، ذهبت الشقيقة إلى أبيها لتحكي له بمنتهى البراءة أن رجُلَهُ ادخلها غرفة «محراس» [16] المزرعة عندما ذهبت لِتُحضرَ له وَجْبةَ «غواث» [17] اليوم. أغلق فاهها بمنديل، ثقبَ فخذيها بشيءٍ حادٍّ لم تستطع تمييزه من شدة الظلام، أسال دَمَها وسبَّب لها جرحاً أليماً...

بحث عنه الشيخُ طويلا ذلك الخائنَ دون أن يرى وجهَه إلى الأبد...))

علاقةٌ سِريَّةٌ مفاجئةٌ ربطتْني بهذه القصة القصيرة التي أخفَتْ إلهامُ صورَتَها في مفكِّرةِ ذكرياتها الحميمية! لم أنم ليلة قراءتها! مكثتُ أتخيَّلُ تفاصيلَها أوَّلاً بأوَّل. أتابعُ فيلمَها المرعبَ غيرَ مصدِّقٍ بإمكانيةِ واقعيَّةِ حُدوثِهِ فعلاً. سهرتُ مسكوناً بفجيعتها كما لو كنتُ أنا المغتصَبة، أو المغتصبَتين معاً!... تساءلتُ دون توقّف: لماذا تحتفظُ إلهامُ بهذه القصَّة داخل كيسٍ بلاستيكيٍّ مُغلق؟ لماذا حشرَتْها في دفترِ ذكرياتِها؟...

لعلَّ سرَّ علاقتي الخفيَّة بهذه القصّة يكمن أيضاً في أن أحداثها تدورُ في المناطق الجبليّة الشمالية المحيطة بصنعاء: نفس بيئةِ طفولةِ إلهام! لم أعرف ظروف تلك البيئة بسبب وضع التشطير في اليمن، وبسبب عُزلَتِها الجغرافية الشاملة عن العالم. لا أعرف شخصيّاً من كلِّ صنعاء ونواحيها إلا مطارَها الفوضويَّ، العشوائي، الذي لا يُشبهُ أيَّ مطارٍ في العالم، والذي عَبَرْتُهُ قُبَيْل أيّام فقط، في طريقي لِعَدَن. أجهَلُ أيضاً ثقافةَ وعادات وموروث تلك المناطق. لم تساعدني إلهام، أجمل وأرقى مخلوقات تلك البيئة، على محوِ أُميَّتي بالثقافةِ السائدةِ هناك، لأنها جاهدتْ هي نفسَها على نسيانِها، وعلى رَمْيِها في زبالة الذاكرة...

أو ربما ثمَّةَ سببٌ آخر: حساسيتي المفرطة عندما أسمع بأحداث العنف بشكلٍ عام، والأُسريّ بشكل خاص، لاسيّما ذلك الذي يمسُّ الأطفال! أشعر حينها باستنفارٍ عامٍ يُهَيمنُ على

دماغي وكلِّ مشاعري! اغتصابُ الأطفال هو فاجعتي الكبرى، أمُّ الفواجع!... لذلك تحوَّلَ لَيْلِي كابوساً بعد قراءة تلك القصَّة!... لعلَّ لإلهام نفسِها سببٌ مباشرٌ غامضٌ في نموِّ هذه الحساسية المفرطة: منذ علاقتي بها فقط، صرتُ، بدون وعي، شديدَ الحساسية للجرائم التي تمسُّ الأطفال، ترعِبُني على الدوام، تتحوَّلُ كوابيسَ تُعشعشُ في رأسي... منذُ سنوات إلهام فقط، صار هناك حلمُ يقظةٍ مزعج يتابعني عندما أكون مسترخياً في نهاية يوم شديد الإعياء! لم أتجرأ يوماً بَوْحَهُ لإلهام وكأني أشعر في قرارتي أني سوف أنبشُ ذكرياتٍ أليمةً مكبوتةً في قرارتها، سوف أُنكئُ جراحاً ما... شعرتُ أني سأُزعِجُها بِبَوْحي حتماً، سأجعلُها تلومُ نفسها لِسببٍ أو لآخر!...

حلمُ يقظتي الذي يراودني في إغفاءات أوج إرهاقِ العمل، بين الحين والحين، يدورُ حول شرِّيرٍ مُرعبٍ يجثم على طفلةٍ صغيرة لاغتصابها! أهجم عليه بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّة لإنقاذ الطفلة! أصارعُهُ بضراوة! أُنقِذُها من مخالِبه، أحولُ دون اغتصابها!... ثمَّ ينتهي الحلم!... يختلفُ شكلُ المجرم من حلم لِحلم، شكلُ الطفلةِ، موقعُ الاغتصاب... لكن كُنْهَ الحلم وبنيَتَهُ يظلُّ ثابتاً!... لماذا يتواترُ هذا الحلمُ كهَوَس؟ لماذا لم يَعبُرْ بالي قبل سنواتِ إلهام في منام أو يقظةٍ أو هذيانٍ أو شرودٍ خاطر؟...

ثمّة أيضاً أسبابٌ أخرى صغيرة أوشَجَتْ ووثَّقَتْ علاقةً عميقةً خفيَّةً عجيبة بيني وبين تلك القصّة القصيرة: الألعاب النارية! ليس لأن الألعاب النارية في رأس ذلك الجبَل النائي البعيد منظرٌ سرياليٌّ بحدِّ ذاته! ليس لأنَّ ذلك الحفلَ الاغتصابيَّ المجنونَ المُكلَّلَ بالألعاب النارية مرعبُ الإثارةِ بطبيْعتِه... بل لأن علاقتي بالألعاب الناريَّةِ تغيَّرَتْ منذ سنواتِ إلهام أيضاً! إلهامُ لا تحبُّ هذه الألعاب، يُفزِعُها منظرُها، ضجيجُها، تَكْرَهُ مجردَ سماعِ

اسم الألعاب النارية!... عزفتُ منذ إلهام، أنا أيضاً، عن الذهاب للاحتفالات الشعبية التي تنتهي بالألعاب النارية، رغم أن هذه الألعاب تطوَّرَتْ هي أيضاً في عصر الأشعة الإلكترونية، وصارت في السنوات الأخيرة لطيفةً هادئةً للغاية، شديدةَ التنوُّع والتجديد، مثيرةً مذهلَةً ممتعةً للنظر، باهرةَ الإخراج وهي تتراقصُ على أنغام الموسيقى والنقوش الضوئية الإلكترونية...

غير أن أهمَّ ما في حكاية القاصّة نادية الكوكباني هي هذه المفارقةُ الجوهريّةُ الفاقعة: اغتصابُ الأطفال، «البيدوفيليا»، الذي يعتبرُ من أكبر الكبائر، من أبشع المحرَّمات، يتمُّ هنا في وَضَح النهار، «على سُنَّةِ اللّهِ ورسولِه»، تحت أصداءِ زغردةِ القبيلة وضوضاء طلقاتها الناريّة المبتهجة! اغتصابُ الأطفال الذي لا يمارسهُ إلا أفتكُ الوحوش البشرية الضارية، أخطرُ كبار المرضى المعتوهين، مجرمو الحروب، يتِمُّ هنا تحت وميض الألعاب الناريَّةِ وأَلَقِهَا الاحتفاليِّ الساطع، على إيقاع رقصاتِ «البَرَع» الجبليّة التي يُلوِّحُ فيها الراقصون بالجنابيَ الفضِّيةِ المتلألئة!... لا أجدُ شخصيّاً ما هو أشنعُ وأحقرُ وأبشعُ من مفارقةِ هذه القصّة القصيرة، من سيرياليتها المريرة... لا أجدُ ما هو ألْظى من الأسئلة المختبئة بين أسطُرها وهي تتسلَّلُ بصمت بين تلابيب دماغ القارئ، تحاصرُه، ترهقُه، تلسعُه، تدعوه لِينبُشَ عن مُسبِّبات هذه المفارقة (كيف يمكنُ أن تحدثَ هذه القصّة يوماً ما، في مجتمع ما؟)، حول مفهوم القبيلة (الذي دخل منذ بضعةِ قرون في نقطَة تماسٍّ كهربائيٍّ مع الحضارة، مع التقدّم...) والذي صار متنَ وقاعدةَ حياةِ يمنِ اليوم، مجراها ومرساها!...

بعد قراءة هذه القصّة لم أعد أتردد على مقاهي أنترنت بنفس الوتيرة السابقة! شعرتُ برغبةٍ قويَّةٍ بالهروب إلى الواقع،

بالاندماج بالناس، بالانفتاح عليهم، بالذهاب إليهم أنا نفسي!... كانت رغبةً صادقةً مخلصةً عنيفة، وإن لم تخل من شيءٍ ما في نفس يعقوب!...

راودتُ لأوَّل مرة المراكز الأثيرة التي يلتقي حولها، بشكلٍ شبهِ يَوميّ، كلُّ الأصدقاء والمعارف والزملاء. أقصد بالطبع: «مجالس القات» [13]، أو «منتديات القات» كما تُسمّى. توجَّهْتُ بالذات لتلك المجالس التي يرتادُها من تبقَّى من زملاء جيلي وأصدقائي القدامى...

اشتريتُ القاتَ لأوَّل مرّة في حياتي! عِفْتُ لَوْكَهُ كُليَّةً من أول غصن، لكني واصلتُ شراءَه مع ذلك. تظاهرتُ بتخزينِهِ في الفك! أردتُ أن أكون ضمن السرب، وليس سائحاً يتعالى على ذَويه... حاولتُ أن أكون كما يحبُّون أن يروني: مثلهم بالضبط!... أفهمهم تماماً: يصعبُ أن يميلَ زوارُ دعارة للذهاب إليها بمعيَّةِ متصوِّفٍ ناسك! لذلك صمَّمتُ أن اندمج بحياة القطيع من الداخل، بشكلٍ مباشر! أن أضحكَ، أن أثرثرَ وأُنَظِّرَ وأشعرَ ب«الكَيف» مثلهم تماماً! باختصارٍ شديد: صمَّمتُ أن أغرق معهم في نفس الهاوية!...

حاولت جاهداً، أكثر من مرَّة، أن أفاوضَ طويلاً أوَّلَ غُصنِ قات، أن أُجرِّبَ لَوْكَه، أن أمضغَ عصيرَه المُرّ... عبثاً! لم أستطع، استحال ذلك تماماً... لم أكن مع ذلك مناهضاً للقات، لم أكن قطُّ متحفِّظاً مُحترفاً على تناولِهِ لسبب أيديولوجي أو ثقافي أو حضاري... كلّا! أُكَنُّ لهُ عداءً بيولوجياً فقط، لا أكثر ولا أقل. يعتريني أمامه تقزُّزٌ جذريٌّ مطلق... النشاطُ الفقاعيُّ المهترئ الذي يُحْدِثُهُ القاتُ في الجسدِ في الساعات الأولى من خزنِه وعلكِهِ، والخمودُ والانطفاءُ والانكماشُ الذي يتبعُ ذلك طوال أكثر من يومٍ وليلة لا يتجانسُ أو يتهادنُ مع تكويني الفيزيولوجي من

قريب أو بعيد!... جسدي لا يستسيغ ما يُسمّى «قَهَدَ» القات: حالةً اللانوم واللايقظة! أو النوم في اليقظة واليقظة في النوم. ديالكتيك الـ«قَهَد» يتجاوز حقّاً مقدراتي الفيزيولوجية!...

شعرتُ بالرغبة العنيفة بالطرش من مجرَّدِ حشوِ وريقات القاتِ الأولى في فمي! حاولتُ مراراً أن أتعوَّد، أن أرغم نفسي على الصبر، على التكيّف، على تجريب مختلف أنواع القات الموجودة، على محاولة تفضيل بعضها على الآخر... عبثاً! لم يكن هناك أدنى أمل! ثمّة رفضٌ جينيٌّ عنيف... ليس ذلك لأني لم أكن منفتحاً بشكلٍ كاف! كلّا! لستُ منغلقاً أبداً في الحقيقة: ذُقتُ وجباتٍ نادرةً في بعض الرحلات إلى ديارٍ وأصقاعٍ بعيدةٍ: «سنجاب بصوصة الزنجبيل»، «سلَطَةُ أزهار الصبَّار بالقِرْفَةِ ومُربَّى البرتقال»، «لحمُ قطط بالطحالب وثمار البندق»... بإمكاني أن أُجرِّب مضغَ نباتات غريبة، أن أتذوَّقَ طحالب نادرة، أن أَبتلعَ مأكولات مستحيلة... أشعرُ بالاستعداد لِخوضِ تجربة تناولِ أعلاف الأغنام والحمير، مشاركة الدواجن كلَّ مآدبها تقريباً، مشاركة الضفادع أكلَ بعض اللافقاريات والرخويات والبرمائيات الصغيرة... لكن مع القات كان هناك استهجانٌ عضويٌّ رافض ونفورٌ حيويٌّ لا أَمَلَ في اللفِّ والدوران حولَهما...

أحببتُ كثيراً لقاءات القات مع ذلك، لاسيّما في الأيام الأولى. هرجٌ ومرج، ترويحٌ على النفس، ثرثرةٌ لذيذة!... أكثر ما أعجبني هو المجهودُ الفكريُّ اليوميُّ لِصُنْعِ النكتة، للسخرية اليومية من الحياة، من الآخرين، من الذات، من كلِّ شيء... نسيتُ هذه العادة الإنسانية الرائعة طوال حياتي في فرنسا حيث لا يصنعُ الإنسان النكتة! تأتِيهِ سِلعةً مُعَلَّبةً في برامج مُعيّنة في التلفزيون، يُشاهِدُها في دقائق محدَّدة من اليوم، يُفرِغُ خلالها جعبَتَهُ اليومية من الضحك، ثمَّ يواصلُ يومَهُ بشكلٍ خطِّيٍّ عقلانيٍّ

بارد! لا يشعر بواجبٍ ذهنيٍّ يقعُ عليهِ شخصيّاً، في كلِّ لحظة، بصناعةِ النكتة، باختراعِ العباراتِ الساخرة، بالضحكِ التلقائيِّ العشوائيِّ الطفوليِّ غير المنظّم...

ثمَّ بدأتُ أشعرُ بالقرَف! لاحظتُ أن كلَّ يوم قاتٍ يُكرِّرُ الآخر، كلَّ ساعةٍ تُعيدُ الأخرى... نفسُ المواضيع تُعجَنُ ألف مرّة، نفسُ النكتة تَرجعُ بشكلٍ أو بآخر، نفسُ القلقِ من الحياة يُحكى من جديد، كلّ لحظة... الجميعُ يلوكُ نفسَ الرتابة، نفسَ الألم. الجميع يستلمُ نفس الصفعة يوماً بعد يوم، يُوجِّهُ أنظارَهُ لِنفس اللاطم، يَصُبُّ جامَ كراهيَّتِهِ على نفس اللاطم، يُغمِضُ عينيه أمام نفس اللاطم، يُقدِّمُ خدَّه من جديد لِنفس اللاطم، يمدحُ ويَحْمَدُ ويُفخِّمُ نفسَ اللاطم!...

منذ أن أحجمتُ عن مراودة مقاهي أنترنت، صرتُ أذهب لمجالس القات يومياً، وفي رأسي مأربٌ محدَّد، شيءٌ ما في نفس يعقوب، كما قلتُ: كنتُ أراقب في تلك المجالس ظاهرةً مثيرة! أحسستُ أن ثمّة في سلوك الناس شيئاً محيراً، غيرَ جَلِيّ، لا يستقيم بشكلٍ سَويّ!... لاحظتُ ذلك في أوَّل مجلس حضرتُه. كنتُ حينها مهووساً بالقصة القصيرةِ التي قرأتُها قبيلَ ذلك بيوم أو يومين. استغلْتُ حينها موضوعاً ما تطرَّقَ إليه أحد المتحدِّثين في المجلس، حول الزواج المبكِّر، لأحكي وأُسرِّب تفاصيل تلك القصة القصيرة بصوتٍ مسموع للجميع.

سردتُها بهدوءٍ وحميميَّة، أوَّلاً بأوَّل، وكأنِّي أحكي فيلماً... أربكني الاهتمامُ المحدود، إن لم أقل البرودَ الذي استُقْبِلَتْ به قصّتي والانتقال السريع إلى موضوعٍ آخر! شعرتُ بالخيبة! ثمَّ صعقني نسيانُ الجميع لتفاصيل هذهِ القصّة بعد يوم من ذلك... أعدتُها في ظروف أخرى، أمام بعض من سمعوها، وكأني كنتُ

أحكيها لأوَّل مرة... قبل أن تتبخَّر في أدمغتهم من جديد... نوَّعْتُ مجالسَ القات التي حضرتُها لأتأكَّدَ مما لاحظتُهُ واستنتجْتُه. لا أمل! القصّة تتبخَّرُ دوماً بعد لحظات من سَرْدِها!... ثمّة مع ذلك أشياء لا حصر لها تَعْلُقُ في الذاكرة الجَمْعِيَّةِ لِرفاق المجلس. بعضها عتيقةٌ جدّاً تُطِلُّ من سنين سحيقة، وبعضها حديثةٌ طازجة. غير أن ذاكراتهم انتقائيةٌ جدّاً، تتسرَّبُ من ثقوبِها أشياء محدَّدة كثيرة، منها قصَّتِي القصيرة!...

استغربتُ كثيراً وأنا أستنتجُ أن نوعَ العنفِ والاغتصابِ الممارسِ في تلك القصّة القصيرة لا يبدو لهم ملفتاً للنظر لِيَلْتصقَ بالذاكرة! يتسرَّبُ سريعاً منها كَحَدَثٍ صغيرٍ تافِه، مُبَرَّرٍ إلى حدٍّ ما! وكأنَّ المليمترَ المُكعَّبَ في خلايا الدماغ البشري، المتخصِّص بالتأثر والتألم أمام هذا النوع من العنف، مقلوعٌ بيولوجيّاً من أدمغةِ من سمعَوني، أو مخدَّرٌ عاطلٌ تماماً عن العمل منذ قرون! كأنَّ عِرْقَ الإحساسِ بعذاب الطفلِ المُغتصَبِ قد انقطع في جبينهم يوماً ما!...

إذ كيف تمرُّ قصّةٌ جوهريّةٌ كهذه دون أن يُعبِّرَ أحدُهم عن تقزُّزٍ فظيع، أو يُعَلِّقَ من قريب أو بعيد عن الجريمة التي أرتكبها ذلك الشيخ! لم يتساءل أحدهم هل أُعتُقِل أو عوقبَ صانعُ الجريمة! بل ربما بدا للبعض أباً غيوراً مارسَ واجبَهُ الشرعيّ، واجبَهُ الأخلاقي!... لم يستفسر أحدُهم عن مصير فتاةٍ كتلك، عن دمارِ حياتِها الكامل بعد ذلك الاغتصاب، خرابِها النهائي!... لم يَبْدُرْ سؤالٌ واحد عن كيف يمكن أن تحدثَ قصَّةٌ فظيعةٌ كهذه، في مجتمعٍ ما، بكل صمتٍ وبرود!... لم يسخرْ أحدهم حتّى من المسرح الاحتفالي بالألعاب الناريّة الذي تمَّتْ فيه الكارثة!... بالعكس، كنتُ ألاحظ خلال سردِي نفسَ الصمت، نفسَ الغياب، نفسَ عدم الاكتراث... أيقنْتُ أن أدمغتَهم تعلَّمتْ منذ قرون أن

تهرب من هذه المواضيع، أن تلفظَ ذكرياتِها، أن تمحوَ بصماتها... شعرتُ بنوعٍ من التمزُّق: إمّا أنهم انتقائيون بشكلٍ مَرَضيٍّ في تعريف مفهوم الجريمة، في تحديدِ مدلول الشرّ، في مواجهة الذات... أو أني أنا نفسي إنسانٌ غيرُ طبيعي، زائغٌ، ساخطٌ، طائشٌ، متهوِّرٌ، متطرِّفٌ جدّاً...

كان آخر من حدَّثتُهم بهذه القصّة هوَ صديقٌ قديمٌ رائعٌ نادر! فاجأني بمقاطعتي وأنا أحكي القصّة مواصلاً سرد بقيَّتِها هو نفسه! مُضِيفاً تفاصيلَ أخرى كثيرةً لم أكن أعرفها (ياللكارثة! القصّة واقعيةٌ وليست خياليةٌ إذن!...) قبل أن ينطقَ اسمَ الأختِ الصغيرة التي اغتصَبَها خطيبُها وهي تَحملُ لهُ وجبةَ الضُّحى إلى المزرعة!...

لم أتمالك نفسي عندما ذكر اسمها! صُعِقْتُ تماماً! لأني أعرفها أنا أيضا!

هرولتُ، هرولتُ، هرْوَلت... لارتطمَ بِالقَاعِ الذي أبحثُ عنه!

قاعِ كارثةِ إلهام!...

بعد ثلاثة أسابيع من وصولي عدَن، نويتُ شراءَ ما يلزم من الخضروات والسمك لِخوضِ مغامرةِ دعوةِ أُمِّي من جديد لِطبخةٍ بَحْرِيّة ذات أصولٍ مرسيلية. كنتُ في طريقي إلى سوق السمك، في ذلك الشارع الكئيب الذي يتَّجهُ من مسجد العيدروس إلى مسجد النور، عندما لمحني صديقٌ قديم، مُشْرِقُ الأسارير دائماً، له جسمٌ رياضيٌّ مفتولٌ سامق!...

هرع نحوي، عانقني عناقاً عنيفاً هصر جوانحي. أنهى عناقَه بالعبارات التالية:

- أيّ خدمة! أرجوك قلْ لي أيّ خدمة! أريد أن أخدمك في شيءٍ ما! هام أو غير هام! يلزمني أن أخدمك! حَقِّقْ لي هذا الطلب! مُنَّ عليَّ بهذا الجميل: دعني أخدمك بشيءٍ ما!...

عرفتُه! حَسَن المُرشِدي! لم يتغيَّرْ قيدَ أنملة منذ فارقتُ عدَن!... اللعنة! غَزَتْهُ التجاعيد وهزائم الجسد! لكنهُ مازال باسماً، صلباً، بنظَّارات دائرية صغيرة، تشبه نظارات تروتسكي، تمنحُهُ سُحْنَةً ثقافيةً متميّزة. مازال يتركُ شعرَه السائلَ ذي النهايات الدائرية الجميلة مسترسلاً على كتفيهِ كشَعرِ المفكِّر اليمنيِّ، أستاذ الفلسفة الرائع: أبوبكر السقّاف... مازالَ ماكنةً لِخدمة الآخرين منذ أن حطَّ مع أبويه العدنيِّين، في منتصف الستينات، في شارعٍ غير بعيد من شارعنا، بعد هجرةٍ انتقلتْ بهم من تنزانيا إلى الحَبشة ثمَّ السودان. كان حسن ومازال ماكنةَ

إسعاد لِذويهِ وصحبهِ وكلِّ معارفه، أقصدُ نصفَ سكَّان عدَن! يتوسَّطُ لِمساعدةِ هذا في قضاءِ أمر، يفاوضُ لِحَلِّ مشكلة ذاك... يُصلِحُ بين متخاصمَين، يفصلُ بين كلِّ مشادّات واشتباكات الشوارع. ترَكَتْ تدخُّلاتُهُ لِلفصلِ بين المتضاربين في العراكات الجسديّة توقيعَها عليهِ إلى الأبد: ثمّةَ وشمٌ لِجُرْحٍ قديمٍ هنا، نابٌ وسنٌّ مفقودان هناك!...

مازال حسن، كما كان عندما عرفتُهُ في نفس الصفِّ الدراسيّ بعد عودتهِ من السودان: فقيراً، بسيطاً، مُخْلِصاً... اجتماعياً بشكلٍ لا مثيل له! يذرعُ المدينةَ من أقصاها إلى أقصاها كلَّ يوم، تجدهُ في كلِّ شارع، في كلِّ ركن... يطوف في نفس اليوم عدَّةَ مجالس قات في أحياء متباعدة، ساعةً هنا، ساعةً هناك... يعرفُهُ كلُّ شخص في المدينة، يُحِبُّه الجميعُ دون استثناء، يتحدَّثون عنهُ باستمرار... تراهُ أمامك في كلِّ مكان وكأنَّ هناك أكثر من نسخةٍ بيولوجية منه تحيى في نفس المدينة: تراهُ قابعاً في ركنٍ ما لاستيقاف سيّارةٍ «يَتَعَبَّرُ» بها إلى حيٍّ ما من أحياء عدَن، ترمقهُ جالساً قرب نافذةِ حافلةٍ جماعيَّةٍ يرفع يدهُ لِتحيَّةِ عابر سبيل... ليس نادراً أن تراهُ يمشي خلفكَ بخطواتٍ هادئة وأنت تمخرُ في سيّارةٍ سريعة، لِتراهُ بعد قليل أمامك، قد وصلَ قبلك بأعجوبة إلى نفس الموضع!...

«حسن سمكة إذا أُخرِجَتْ من بحر العلاقات الاجتماعية فستموتُ في الحال!» هذه عبارتُهُ هو نفسه! قالها يومَ فصلَتْهُ منظمتُهُ القاعديّة للحزب الاشتراكي اليمني، في إحدى جولات صراعات الثمانينات المتوالية في الحياة السياسية في جنوب اليمن!... يتذكَّرُ الجميعُ صرختَهُ الاستنجادية حينها عندما قال: «أرجوكم لا تفصلوني يا رفاق!... اعملوا بي ما شئتم: اسجنوني، عاقبوني كيفما شئتم، لكن لا تفصلوني من الحزب!...

لا أستطيع أن أحيا دون انتماء! لا يوجد حزبٌ آخر في هذا البلد، وأنا لا أستطيع أن أحيا خارج المعمعة، دون مهام، دون رفاق، دون حركة، دون اجتماعات، دون تكاليف، دون نضال!... أنا سمكة لا تحيي إلا في بحر العلاقات الاجتماعية، في بحر الحزب! إذا فصلتموني فسأفقد المقدرة على التنفُّس حالاً...»

فصلوه مع ذلك! إلا أن المفاجأة التي لم تحصل أبداً في تاريخ الحزب الاشتراكي اليمني هي التالية: عاد لهم في الغد من النافذة! هاهو يمتلك بطاقة العضوية في فرع الحزب الاشتراكي اليمني في شمال اليمن! يحضر اجتماعات منظمةٍ قاعديَّةٍ متواجدة في عدَن تضمُّ بعضَ أعضاء ذلك الفرع، الذي كانت له استقلاليتهُ التنظيمية الكاملة داخل الحزب الاشتراكيِّ بشكلٍ عام... حصل على عضويَّتِهِ بسهولة بفضلِ رفيقِ عُمرِهِ وأحدِ أقوى وأخلص أصدقاء حياته: خالد الشَّرفي الذي كان عضواً هامّاً نشطاً في فرع الحزب السريِّ في صنعاء!...

حسَن وخالد صديقان قديمان رائعان، من نفس المعدن! من نفس السبيكة! كلاهما قريبان من الناس، علمانيان، مخلصان، صادقان... يضحكان ويسخران دائماً من بعضهما، من كلِّ شيء. يقرآن نفس الكتاب في نفس الفترة، يغازلان نفس الفتاة في نفس الآن، منفتحان على الجديد دائماً، بوهيميّان حتى أقصى حدود البوهيميّة، يعرفان التمرّد وعدم الانصياع، يكرهان الركود والرتابة، يميلان كثيراً إلى التجريب، إلى التغيير والمغامرة... حافظا على جوهر روحهما الطفولي، على صفائهما وتوازن اتجاه حياتهما، وإن تغيّرا ألف مرّة ومرّة حتّى الآن! تنوَّعَتْ انتماءاتهما السياسية أحياناً، تفاوَتَتْ عددُ الركعات التي يؤدُّونها في هذه السنة أو تلك، تأرجَحَتْ مصائرهما من فلَكٍ إلى فلَك... لكنهما

ظلّا حتى اليوم، وإن أبعدتهما المسافات الجغرافية أحياناً، أصدق وأقوى وأقرب صديقَين...

عرفتُ حسن عن قرب في أول سنوات السبعينات عندما كنّا في نفس السنة الدراسية. كان أكبر منّي بعامين فقط. أضاع أحدهما بسبب تنقُّلات حياته العائلية من بلدٍ إلى بلد، وكسبتُ عاماً دراسيّاً لأني اختصرتُ سنةً دراسية. انتقل حسن من حزب سياسي إلى حزب سياسي منذ نهاية الستينات: حزب الرابطة، أحزاب البعث بكلّ ألوانه، الاتحاد الشعبي الديمقراطي (الحزب الشيوعي) قبل انتماءه للحزب الواحد: الحزب الاشتراكي اليمني، بعد «انصهار» ما كانت تسمّى ببلاغة تلك الأيام: «فصائل العمل الوطني الديمقراطيّ»...

أما خالد فهو أصغر منّي بثلاثة أعوام تقريباً، أصغر من معظم شبكة أصدقائه بشكلٍ عام ببضعة سنوات... كان نحيفاً، قصيراً إلى حدٍّ ما، رخيم الصوت بشكلٍ متميز (لهُ صوتٌ إذاعيٌّ بشهادة الجميع)، يجيد الغناء بشكلٍ رائعٍ. كان ألمعيّاً مبرِّزاً جدّا، سابقاً لِعُمره، جريئاً، ساخراً من تأليهِ زعيم أو رئيس، ناقداً جدّاً لكلّ ما يدور حوله، لذيذَ الحديثِ والسهراتِ باعتراف الجميع... وُلِد بصنعاء. بعثَهُ والِدُهُ منها صغيراً إلى عدَن لِيتعلَّم فيها. انتمى فيها لفرع الحزب الاشتراكي اليمني في الشمال...

لِحسَن وخالد حكايةٌ بوهيميةٌ اشتهرت كثيرا في النصف الأول من السبعينات، قبيل سفري لفرنسا. نظّما معاً حفلةً شبابيةً لقضاء ليلة رأس السنة: تقليدٌ غير أليف، طازجٌ جدّاً، لعلَّهُ الأوَّل من نوعه كما أظن! تمكّن حسن من الحصول على مفتاح فِيلّا في حيّ خورمكسر، يمتلكُها أحدُ معارفِ معارفِه: شيخٌ مَتعبِّدٌ زاهدٌ ورِع مسافرٌ لِقضاء العُمْرة!... توجَّهَ حسَن وخالد إلى هناك،

بانتظار المدعوِّين، حاملَين على ظهريهما كيسَيْن كبيرَيْن من ألياف الجوتة، «جُونِيَتَيْن»، مملوءتَيْن بالبيرة وبأشرطةِ فيديو لا تخلو من الإباحية!...

كان حسن وخالد من جيلٍ انفتحت أسماعه على خليط متنوِّع من الأفكار والشعارات: مقولات ثورة 1968 الشبابية في أوروباً؛ إرهاصات «الثقافة الجديدة» وتداعيات نوع عتيق من العلاقات الاجتماعية والأُسَرِيَّة؛ صرخات الحركاتِ الشبابيّة المتنوعة التي تنادي بالتفجُّر الشبابي، ب«ترك الحرب وممارسة الحب»، بممارسة الذات والبحث عنها عبر التجريب والسفر والرحلات والمغامرات واكتشاف العالم... مثل كلِّ شباب العالم، كان شبابُ عدَن يصغون بحساسية كبيرة لِتمتماتِ وهمساتِ وضجيج تطلُّعاتِ العالم الخارجي، لكلِّ ما يعتمل بضراوة في حركاتِه الشبابية. يصغون لها ببراءة ودون وعي أحيانا، بآذانٍ محرومينَ مكبوتينَ داخل وضعٍ اجتماعيٍّ غليظٍ بائس، بِجَهْلٍ حقيقيٍّ لِجوهرِها ومحتواها وسياقِها الاجتماعي والتاريخي والجغرافي أحياناً كثيرة، بالظنِّ وَهْماً أنهم يُقلِّدونها إلى هذا الحدِّ أو ذاك... كانوا، لا أكثر ولا أقل، يتنفَّسون كما يستطيعون، بالطريقة التي تخطر ببالهم، على إيقاع رجفات شباب العالم الخارجي وعلى المعزوفات التنويمية لبعض الأطروحات الأيديولوجية البليدة!... وعلى إيقاعِ أغنيةِ الموسمِ اليمنيّة: «يا شباب العالم: ثوروا، يا عُمّال يا فلّاحين!...»

لم تكنْ حفلةُ رأس السنة هذه إذن زندقةً خالصةً أو هرطقةً استثنائيّةً خارج الزمن. كانت في كلِّ الأحوال أقلَّ نفاقاً من فضائح ومآثمِ هذه الأيام التي تتمُّ بخفاءٍ ورياءٍ وتنكُّرٍ وإهدارٍ للمال العامّ!...

لم تَجْرِ الرياح كما اشتهى حسن وخالد! مفاجأةٌ طبَّتْ

حال وصولهما: عاد مالكُ الفِيلَّا من العُمْرة في نهاية العصر! يصْعُبُ قضاءُ تلك الليلة الاحتفالية الخاصة جدّاً في حضرة شيخ تقيٍّ صارم لا يجهلُ أن صلاة الجماعة أفضلُ من صلاة الفردِ بسبعة وعشرين درجة!... هاهما إذن يغادران الفِيلَّا مُخفِيَين «جُونِيَتَيْهما» عن مرأى فضيلتِه. ثمَّ يحملانها على ظهرَيهما من شارعٍ إلى شارع... يتَّصلان بالجميع لإشعارهم بتَغَيُّرِ مكان الحفلة. يبحثَّان عن مكان آخر لانعقادها!... بعد عَددٍ من الاتصالات والتوسلات والاتصالات المتجدِّدة، تمكَّنا من الحصول على مفتاح منزلٍ شعبيٍّ في أحد أفقر أحياء عدَن: دارْ سَعْد، في ضواحي الشيخ عثمان!... لا يوجد هنا، مثل فِيلَّا خورمكسر، جهازٌ لِعرضِ أشرطةِ الفيديو! لزِمَتْ جهودٌ إضافية خارقة، تلفونات جديدة، مفاوضات صعبة... قبل أن يصل بعض المدعوِّين وعلى ظهورهم الجهاز المُنتظَر!...

مشكلةُ تلك المنازل الشعبية هي أنها متَّصلةٌ ببعضها كقطع ساردين في علبة ساردين! يسمع كلُّ منزل ما يدور في المنازل المجاورة. ناهيك أن الغرفة الرئيسة الوسطى، «الدَّارة»، في تلك المنازل الشعبية تخلو دوماً من السقف بسبب حاجة هذه المنازل إلى التهوية لاسيّما في قيظ الصيف العدنيّ الخانق... لذلك يكفي الصعودُ قليلاً لأعلى «الدَّارة» أو على سقفِ مدخلِ المنزل لِمراقبةِ ما يدورُ في المنازل المجاورة، ولرؤية تفاصيلِ مطابِخها وحمَّاماتِها أيضاً!...

وصل جميع المدعوِّين إلى ذلك المنزل. أرادوا أوَّلاً حجب «الدَّارة» عن أعين الجيران! صعد بعضهم فوق أكتاف البعض الآخر لِسَدِّ سقفِها بما تيسّر لهم من الحبال والفوَط والفُرُشِ والثياب واللباس والأقمشة والجوخ والبطانيات والمناشف... ثمَّ دقَّتْ ساعةُ سهرة رأس السنة! انطلقَتْ بتناول البيرة! ما إن

جنَّ الليل إلا وهم يدرجون أوَّلَ أشرطة الفيديو!... اللعنة! لا يستطيعون فتحَ الصوت كيما لا يثيرون سخط وغارات شيوخ المنازل المجاورة، وكيما لا يُهيِّجون أفواجَ المكبوتين من شباب الشارع ويُحرِّضونهم على اقتحام المنزل لحضور الحفل!... لا يختلفُ اثنان من مدعوِّي حسن وخالد على أن مشاهدةَ أفلام محمومةٍ كهذه بدون أصوت الصراخ والعواء والصهيل والحمحمة التي تصحبُها ينقُصُهُ الملحُ الضروري والبهارات اللازمة!...

ما العمل إذَنْ؟... خطرَتْ لأحد الحضور فكرةُ جذب أحدِ كلابِ الشارع إلى المنزل كي يُمَوِّهَ نباحُهُ أصواتَ الأشرطة في مسامع الجيران! اضطروا البحثَ أوَّلاً، في ثلاجات معارفهم، عن سلعةٍ نادرةٍ لإغراء الكلب واستدراجه إلى المنزل: قطعةُ لحم كبيرة للكلب في تلك السنوات الثورية الكئيبة التي اختفى فيهاً اللحمُ من السوقِ على البشر!... تمكّنوا، بعد مجازفات وصعوبات لم يفترضوها في البدء، من تضليل واستقطاب كلبٍ ضالٍّ جائع، عارم النباح، إلى مطبخ المنزل، قبل إغلاقِ البابٍ عليه! كُلِّفَ أحدُ الحضورِ باستثارة الكلبِ من حينٍ لحين، عند الضرورة فقط، لينتظمَ إصدارُ نباحِهِ ولتتواصل جَوْدَةُ تشويشِهِ لِمسامع الجيران!...

كان ذلك الاحتفالُ الطائش حدَثاً عابراً نساهُ كثيرون اليوم، محطَّةً صغيرةً لا غير من ألفِ محطَّةٍ مرَّ بها الثنائي النادر: حسن وخالد!... الثنائيُّ الذي افترقَ في 1975 عندما توفّى والدُ خالد في صنعاء، ولزم أن يرحلَ كبيرُ أولادِه لِيُدِيرَ دفَّةَ المنزل!...

وَداعُ حسن وخالد، في مفترق الحدود الجنوبية الشمالية آنذاك، حدثٌ يصعب نسيانُهُ من ذاكرةِ من عرفهما! ذهب حسن

لوداع صديقه الأثير إلى مفترق الشطرين بين قريَتي «كرش» (الجنوبية) و«الشُرَيْجَة» (الشمالية)! كان عناقاً حارّاً مُثْخَناً بالدموع والعهود والمواثيق الغليظة... ونُكَتِ الوداع الأخيرة! بكى كلُّ واحدٍ في أحضان الآخر. بكيا طويلاً كطفلين صغيرين. أقسما أيضاً، وهما يجولان ناظريهما بتلكما القريَتَين البائستين المُكشِّرتين الرثَّتين على الدوام، أن يواصلا النضال، كلاً في جبهته: حسن سيدافعُ عن «الجنوب الثائر»، عن «سلطة الطبقة العاملة»! وخالد مُكلّف بـ«تحرير الشمال» من الإمامةِ المُقنَّعة والتخلفِ والرجعيَّة!... موعدُ لقائهما القادم: «اليمن الديموقراطي الموحّد»، «يمن العمال والفلاحين وسائر الكادحين»!...

مرّت السنين. أحداث كبيرة هشَّمَتْ مفاصلَ اليمن شمالَهُ وجنوبَه. لم يتغيَّرْ خلالها هذان الطفلان الأبديّان في كُنْهِهما الغائر، وإن تغيَّرَتْ أساليبُ وظروفُ حياتِهما بما فيه الكفاية...

سافر خالد إلى صنعاء ليتولّى أعمال والدهِ الذي كان، رحمهُ الله، متفتِّحاً، فطناً نافذ البصيرة. ليس فقط لأنه أصرَّ على أن يَدْرُس ابنُهُ في عدَن (التي كانت في أوضاع حضارية وتعليمية لا تُقارن بصنعاء)، بل لأنه أحسَّ بأن صنعاء ستتوسَّعُ معماريّاً بشكلٍ سريع وقريب جدّاً. لذلك كرَّس كلَّ ما كان يمتلِكُه لِشراءِ مساحاتٍ أرضيّة في ضواحي صنعاء آنذاك. قبل أن تصبح هذه الأراضي، بعد ذلك بسنين قليلة، لاسيَّما أراضي حيِّ حَدَّة، أغلى أراضي صنعاء اليوم وأكثرها جذباً لفيلات الأثرياء والعمارات المكلِّفة... ما إن أشرف خالد على أعمال والدِهِ إلا وبدأَتْ ثروةُ العائلة تزدهرُ وتُينعُ عاماً بعد عام...

أما حسن فانتقل من منحةٍ دراسية جامعية في موسكو إلى منحةٍ حزبية عليا في برلين الشرقيّة! من موقعٍ سياسيٍّ إلى

موقع سياسي! من مؤتمر حزبيّ إلى كونفرنس حزبيّ!... يسافر من مهرجانٍ شبابيٍّ عالميّ إلى مهرجانٍ سياسيٍّ عالمي! من لقاءٍ طلابيٍّ تشاوري إلى لقاء عُمَّاليٍّ تضامنيٍ!... نجا أيضاً من الموت بأعجوبة، في حدثٍ شهيرٍ يتذكَّرُهُ أصدقاؤه إلى اليوم، في أوَّل لحظات انفجار حرب 13 يناير 1986!

كان حينها يعوم في مسبح فندق عدَن، في حيِّ خورمكسر، مع ثُلَّةٍ من أصدقائه، غير شاعرين بأن حرباً طاحنة سَتُحرقُ الأخضر واليابس بين الدقيقة والأخرى! اتصل بهِ أحدُ أصدقَائه إلى المسبح قائلاً له إنه موجودٌ قُرب باب الفندق، وإنه ذاهبٌ بسيّارتِه إلى حيِّ الشيخ عثمان ومستعدٌّ لأخذِهِ معه إذا أراد! أضاف أنه يودُّ دعوتَه أيضاً للغداء في مطعم!... رفض حسَن أن يغادر مسبح الفندق! غير أن صديقَهُ كان مُصمِّماً على تناول الغداء معه، بأي وسيلة، لطلبِ عونهِ في «مهمَّةٍ غرامية» عاجِلة! عرف الصديقُ القَدَريُّ كيف يُرهف أوتار حسن الحساسة ويغريه بالخروج حالاً: قال له إن لديه صندوقاً من التفاح المستورد ينوي تشاطرَهُ معه الآن إذا أراد، قبل أن يلتهمه منه بقيّة الأقارب والأصدقاء!... كان يعرف مدى ولعِ حَسَن وضعفِهِ أمام التفاح المستورد! وكان لديهِ فعلاً صندوقٌ كاملٌ من التفاح المستورد، استلمهُ هديّةً في ذلك الصباح من «جهةٍ حزبيّة» رفيعة!

لم يتباطأ حسن دقيقةً واحدة! لبس ثيابه بعَجَل، وهرعَ نحو السيارة التي تنتظرهُ أمام باب الفندق! لم يغادرْ عتبةَ المسبح ثلاث خطواتٍ فقط ويدخلْ بهوَ الفندق متَّجهاً نحو بابهِ الخارجيَ إلا وانفجرت قذيفةٌ هائلةٌ، حطَّتْ وسط المَسبح بالضبط، مَزَّقتْ كلَّ أصدقائه إرباً إرباً، مُعْلِنةً بدءَ أكثرِ الحروب اليمنية خساسةً وغدراً وبشاعة!...

ليس غريباً بعد ذلك أن لا يملَّ حسَن ترديد العبارة التالية

التي صارت من أكثر مقولاتهِ تكرُّراً وفلكلوريةً وظرافة: «خرج جدُّنا آدمُ من «جنّات عدْنٍ لا ريبَ فيها» بِسبب تفاحة! بسبب تفاحة تتجرَّعُ البشريةُ العذابَ والحروب والكوارث في أرض المهان حتى يوم القيامة!... نعم! التفاحةُ أخرجَتْ البشرية من الجنة، أما أنا فقد أخرجَتْني من النار!»

بعد دقائق من رؤية حسَن قرب سوق السمك، عزفتُ عن مشروع مغامرة تحضير الطبخة المرسيلية لأُمي! بدا الحديث من دقائقه الأولى شيِّقاً مثيراً هائماً ذا شجونٍ وخلاصات عميقة... لم أكن حينها أعرف من سيرة حياتهِ إلا ما سردْتُهُ هنا حتّى الآن: خليطٌ مما أتذكره من السبعينات وما أسعفني به صديقٌ حميمٌ مشتركٌ لنا مرَّ بباريس في نهاية الثمانينات. أجهلُ جديدَ حياتِهِ بالمرَّة! وجّهتُ له أكثر من سؤال لِمعرفةِ الخيطِ الذي قادها إلى ما هي عليه الآن!... أغدقني بالتفاصيل وبالقصص التي أثارتني الأولى بعد الأخرى! أعرف منذ زمنٍ طويل أن حياةَ حسن روايةٌ ضخمة شديدة التشعُّب والمفاجآت، غير أن صفحاتها المعاصرة هي الأكثر إثارةً وإذهالاً!...

استغربتُ أوَّلاً من شيءٍ واحدٍ لا ينسجم كثيراً مع منطق واتجاه حياته: انتمائه للحزب الحاكم الحالي!... هو الذي كان كما أذكر من أشدِّ الملتزمين بالماركسية والمتخصِّصين ب«النقاء الفكري». أفهمُ مع ذلك أشياء كثيرة أخرى، قد تبدو غير منطقيّة، مثلَ عددِ ركعاتِ صلاتِه التي تفوقُ اليوم عدد ركعاتِ الآخرين في استراحات [18] مجالس القات!...

لم أفهم انتماءه السياسيَّ الجديدَ لِلحزب الحاكم حاليّاً في اليمن لأنه معارضٌ دائمٌ في قرارة نفسه. ناهيك أنه ظلَّ فقيراً، طاهراً، كارهاً للفسادِ والمفسدين... سألتُهُ بالحرف الواحد:

«كيف تُفسِّرُ انتماءك الجديد هذا، ومعاشرتَك لِكبار الحيتان الاقتصادية، لكبار الفاسدين في السلطة، لل« فندمات» الذين لا يجيدون استخدام السلاح إلا لِقمع العُزَّل والمساكين وضربِهم بقذائف الدبّابات والمجنزرات أثناء مسيرات الاحتجاجات السلميّة ضد رفع أسعار الخبز الذي مات فيها العشرات في صنعاء وتَعِز وعدَن!... كيف تُفسِّرُ ذلك في ظلِّ انتماءك الفكري الثابت للماركسية؟»...

كان ردُّه غيرَ تقليديٍّ إلى حدٍّ كبير. قال لي: «ملَلتُ الانتماء للخاسرين! رأيت الموت أكثر من مرّة على بعد سنتيمترات! لم أنتم يوماً في حياتي السابقة لطائفةٍ حزبية، لفرقةٍ ما، لتنظيم ما... إلا وَبُلِيَ بالفشل!... في كلِّ ولاءاتي القديمة، خسِرَتْ المجموعة الحزبية التي انتميتُ لها! ربما أنا الذي حملتُ لها اللعنة والخراب! أريد هذه المرّة أن أجرِّب شيئاً آخر! أريد أن أشاهد البوار لِحساءٍ حزبيٍّ كبير جدّاً بحجم اليمن! أريد أن أتأكد إذا كانت فرضيَّةُ سوءِ الطّالع الذي يحلُّ على أيِّ حزبٍ أنتمي إليه قانوناً مطلقاً في حياتي!...»

ثمَّ جرَّنا حديثُنا المزدحم، أمام باب سوق الأسماك النتن، إلى الخيوط المحشبكة للحياة العائلية لِحسن، إذا كان لي أن أسمِّيها حياةً عائلية! لا أستطيع عدَّ العلاقات والزيجات، الرسميّة وغير الرسميّة، في حياته! لا أعرف، ولا يعرف هو نفسه، كم عدد أطفاله بالتحديد! بعضُهم آتٍ من زيجات إجباريّة مبكّرة في الحبشة والسودان: 1) من شغَّالةٍ حبشيّة كانت تعملُ في منزل والده بأثيوبيا، اكتشف الجميع أنها حُبلى من حسَن في بدء سنِّ مراهقته، 2) من زواجٍ غير إجباري بابنة عمّهِ المهاجر في الحبشة، 3) من زواجٍ إجباريٍّ من عشيقةٍ سودانية أحبَّها بالخفاء

وحمِلَتْ منه... غير أني أعرف إحدى زوجاته، الأكثر رسميّة كما يبدو لي، نجاة، التي كانت رفيقةً حزبيّةً قديمةً له! عَقَدَا قرانَهما «باسم الحزب والثورة» في نهاية السبعينات! له منها عددٌ من الأطفال. كبيرهم، وائل، يتجاوز العشرين قليلاً... سألتهُ:

- كيف حال نجاة؟...

- انفصلنا قبل 6 أشهر! تركتُ لها وللأطفال المنزلَ وكلَّ شيء وغادرتُهم دون رجعةٍ إلى الأبد!

- ماذا حصل هذه المرّة؟

- عُدْتُ ذات يوم ومكتبة بيتي الكبيرة، المملوءة بكُتبٍ ماركسية وفلسفية وتقدمية، قد استبدلت بكُتُبٍ سلفيَّةٍ متطرِّفة! ليس ذلك فحسب بل تمَّ إحراق كتبي أيضاً في غيابي! وائل وفجر وهيام، أطفالي الكبار، وأمُّهم نجاة أيضاً، صاروا جميعا إسلامِيين متطرفين!... لِحْيَتَا وائل وفجر لا تقلّا كثافةً عن لحيةِ أسامة بن لادن!... تركتُهُمْ جميعاً، والحمد للّه، وهاأنذا أعيش في «جاردن سيتي» مع زوجة صومالية!

- جاردن سيتي؟ لم أسمع بهذا الحيِّ إطلاقاً، ردَّيْتُ باستغراب!

- هذه تسميَةٌ شعبيةٌ حديثة ساخرة ل«منطقة البساتين»! هل تذكر تلك المنطقة في ضواحي، ضواحي، ضواحي الشيخ عثمان؟

تذكَّرتُ تلك المنطقة الأكثر فقراً في عدَن، في أطراف حيّ «الممدارة»! خلاءات ترابية رخوة على أنقاض واحةٍ قديمة تتصحَّرُ يوماً بعد يوم!...

- نعم أذكرُها!...

- هي اليوم مملوءةٌ بالعُشَشِ الخشبية المهترئة! يعيش فيها فقراء مدقعون في الجوع، مرضى منبوذون، لاجئون صومال... سأدعوكَ، إذا أردْتَ، للغداء هناك، في فيلّتِي الجديدة، مع زوجتي

اشتريتُ بعضاً من المأكولات «السَفَريّة» لِحمْلِها إلى وليمة صديقي الذي أعرفُ أن عددَ أطفالهِ يزيد على عددِ ريالاتِ جَيْبِه. أشتريتُ قاتاً من نوعٍ راقٍ، تركتُ له اختيار نوعِه، لِيُفجِّرَ مواهبَه وملكاتِه في الحديث الشجيّ والهمز واللمز والإفضاء والفضفضة. شعرتُ أني سأسبرُ أغوار وجراح أكثر من عَقدَين من حياةِ عدَن في جلسةِ قاتٍ واحدة...

انطلقنا بعد ذلك إلى رحاب جاردن سيتي!

عُششٌ صغيرة مكتظَّة، مبعثرةٌ بعشوائية، في أرضٍ قفار! سماءٌ زرقاء ناصعة، فضاءٌ مضيءٌ مشتعل! مقرفصون في كلِّ مكان! عَرَقٌ منهمرٌ متواصل! شُلَلٌ بشريَّةٌ متناثرة، شِبْهُ مخدَّرة، تتحرَّكُ ببطء، تُحَدِّقُ في الفراغ!...

كتلٌ منزويةٌ كثيرة من اللاجئين الصومال: سوادٌ نقيٌّ لامعٌ جذَّاب. نساءٌ بلا حجاب وبراقع، لا تصدِّق أنك في اليمن وأنت ترى إناثاً غير مسربلاتٍ بسجونٍ سوداء مُتَنَقِّلة! ثيابٌ رثَّة. قاماتٌ طويلة، نحيفةٌ جدّاً. وجوهٌ حادَّةُ الملامح. أقفاصٌ صدريَّةٌ ناتئة. أسنانٌ ناصعةُ البياض جميلةُ الرصِّ والبنيان. أعين واسعةٌ دائخةٌ خائفةٌ شديدةُ التعبيرية، تثقُبُكَ بنظراتٍ شاخصةٍ فاحصةٍ قلقةٍ مرتابةٍ جائعةٍ مقهورة... تساءلتُ ماذا سيقول هؤلاء اللاجئون إلى الحُطمة، وما أدراك ما الحُطمة، إذا سألتُهُم عن أفضلِ تعريفٍ يقترحونه لمصطلحات شهيرة مثل: السعادة، الحريّة، الاستقرار النفسي والضمان الاجتماعي، تحرير الذات وانعتاقها؟...

أطفالٌ صغار في كلِّ مكان. هزالٌ جسديٌّ عام، وكأنَّ نساء هذا البلد يُنْجِبْنَ كلَّ أطفالهنَّ بسرعةِ الأرانب! ينجبن في كلِّ الأحوال بسرعة شعواء لا تضاهيها إلا سرعة رحيل الموتى!

اليمن حَلَبةُ تنافسٍ أولمبيٍّ محموم وصراعٍ كونيٍّ عنفواني بين آلهة الموت السريع وآلهة الإنجاب الأسرَع! تضرب يمنُ هذه السنوات الأرقامَ القياسية في تقارير الأمم المتحدّة في مؤشِّرَين يتعانقُ عبرهما الموتُ الرخيصُ بالحياةِ الرخيصة، يتعانقُ فيهما الموتُ بالموت: مُؤَشِّرُ نسبةِ موتِ الأطفال قبل الخمس سنوات، ومؤشر معدّل أرقام الإنجاب!... يبدو لك أحياناً أن يمَنَ اليوم، يمَنَ طائر الخراب، أشبهُ بشيخ عجوز، فارغِ المعدة، هالكِ الجسد، يسكرُ حتّى الثمالة بِكُحُولٍ رخيص من عَصير الفواكه والخضروات المتعفِّنة!

أكوام من الرجال والنساء تحيطُ ببئرِ ماءٍ يُسقي كلَّ سُكَّانِ جاردن سيتي! أجسامٌ تتلامسُ بخفَّة! مرَحٌ رائقٌ وتعليقاتٌ ساخرة! أصابع تُلامِسُ أوراك! تحرُّشاتٌ غنِجَة! ضحكةٌ هنا، شتمٌ هناك!... جوٌّ طفوليٌّ يزدادُ، كما قال لي حسَن، غنجاً وجرأةً في آخر الليل، في ظلمات جاردن سيتي التي لا تصلها الكهرباء بالطبع... تزدحمُ حينها طوابير الباحثين عن الماء تحت نجوم الهزيع الأخير من الليل، تحلو النُّكتُ والتعليقاتُ بشكلٍ خاص، ترقُّ الأجواء وتمتلئ لطفاً وبراءةً وتسامحاً وطيشاً وإثارة...

قرب أبواب العشش صحونُ رُزٍّ مرشوشٍ بصوصةٍ صفراء مُكْفَهرَّة تتكوَّن من الماء والبهارات فقط: «صوصة الهواء» كما تُسمّى بتعبيرٍ شعبيٍّ رفيع البلاغة، على غرار «صوصة اللحم» و«صوصة السمك» اللتين أختفَيَتا اليوم من القاموس والذاكرةِ الشعبية. تزدحمُ حول الصحون دوائرُ مكتظَّة، أشباحٌ فاغرة، مِعَدٌ فارغة، أيادٍ عجولة متنرفزة، صمتٌ مفاجئ، أعينٌ ملتصقةٌ بثقوبِ ونتوءاتِ طبقة الرُّز، هياكلُ قططٍ بلا أمل، ذبابٌ عصبيٌّ عنود يعرفُ كيف ينتزع حقَّه بجدارة، ماعزٌ لا يجِدُ غير أكياس بلاستيك سوداء فارغة تخرجُ من عروق التراب!...

ويلي، زوجة حسن، كتكوتةٌ حقيقية! شابّةٌ صوماليةٌ فارِعَةٌ رشيقة، شهيّةٌ دائمةُ الابتسامة. طيِّبةٌ جدّاً. تتكلَّمُ عربيَّةً تقريبيّةً بصعوبةٍ كبيرة. تصغرُ حسن 27 عاماً! لا تتجاوز الثامنة عشرة من العمر فقط! يعشقُها حسَن من كلِّ قلبه! عشقَ كلَّ زوجاته الإحدى والعشرين من كلِّ قلبه. سَيعشَقُ اللاحقات أيضاً من كلِّ قلبه! تناولنا، ثلاثتنا، المأكولات «السفريَّة» في وسط العُشَّة. أقصدُ في وسط غرفتها الوحيدة التي أُحيطَ أحدُ أركانها بسياج من القماش المشمَّع. لعلَّهُ المطبخ! جدران العُشَّة من طوب الإسمنت الرماديّ الكئيب: «البردين». السقفُ مسبوكٌ بجذوع الأشجار، مُغلَّفٌ بالعَزَف!... آه، هو المطبخ فعلا: حَزَرْتُ فيه بعض أدواتٍ مطبخيّةٍ بدائية عندما فتَحَتْ ويلي سِياجهُ لِتُعِدَّ لنا إبريقاً من الشاي!...

التحفنا، ثلاثتُنا، الترابَ لِتخزينِ القات! ويلي مولَّعةٌ بالقات هي أيضاً! لاحظتُ أنها حبلى في أشهرها الأولى! اليمن تسيرُ على بَرَكةِ اللّه... حاولتُ مساعدةَ حسَن بِحساب عددِ أطفالِهِ بدقّة. بعد حصرٍ صارم وصلْنا إلى رقم يراوح بين ال 33 وال 35، دون حسابِ المُضْغَاتِ الجنينيَّة الوَاعدة كتلك التي تخفقُ حالِيّاً في دفءِ أحشاء ويلي أو غيرها ممن يعشقهنَّ حسَن من كلِّ قلبه!... حاولتُ عدَّ أطفالِنا، إلهام وأنا. لم أجد صعوبةً كبيرة: صفرٌ شديدُ الدائرية! صفرٌ أجوفُ صارم... نَظَرْتُ بِحسرةٍ وغِيْرَةٍ أيضاً إلى بَطنِ ويلي التي تَتَمَلْمَلُ قربنا وكأنها تشكو من وجعٍ ما!...

لم يترك حسن صديقاً قديماً عرفناه معاً إلا وفصَّل سيرتَه التي أجهلُها وكلَّ تاريخِ حياته! حسن موسوعةٌ هائلة،

مرجعٌ ممتعٌ لا ينضب! كشف لي أيضاً معاناةَ أهل هذا البلد وأكاذيبَ حُكّامِه، بعبارات مكثّفةٍ وتعليقاتٍ حادّةٍ لا يتجرأُ قياديٌّ في المعارضة أن يتفوّهَ بها!... تحدّثَ بدِقّةٍ شديدة وتفاصيل مذهلة عن الفساد، عن النهب، عن تعميم قِيَم القبيلة، عن هندسة الخراب، عن الانهيار المرتقب!...

غادرَتْنا ويلي لترتاح في المطبخ! لعلّها تشعر بآلام الحِمْل كما همس لي حسَن. سألْتُهُ، هو الذي لا يُحرجُهُ أي سؤال ولا يتردَّدُ أو يلوكُ كلماته عند أية إجابة، كيف يروقُ له أن يكونَ له طفلٌ من فتاةٍ بعُمْرِ ابنته! أجابني أنه ارتبط، خلال حياته أيضاً، بزوجات بعُمْرِ أُمِّه! قلت له إني لا أتحدث عن الظواهر النادرة جدّاً، لأنّ البلَد مثقلَةٌ بالعكس تماما: الزواج المبكّر، الاغتصاب السياحي، عهر الأطفال، انتهاك طفولتهم بشتّى الأشكال... لم ينقصْني بعد ذلك إلا جسرٌ صغير يتكوَّن من عبارة أو عبارتين هيَّأتا لي سردَ حكاية احتفال فضِّ البكارة بالألعاب الناريّة!...

لم يصغ لي حسَنْ بنفسِ آذانٍ من حكيتُ لهم تلك القصة! لم ينظرْ نحوي بغيابِ مثلهم. لم يكن مشدوداً لِمفاجآتها أيضاً. كان مُركّزاً، ومتضايقاً في نفس الوقتِ من شيءٍ ما! ما إن وصلْتُ إلى ذكرِ ليلة احتفال فضِّ البكارة حتّى اكتشفتُ أن حسن يعرف أحداث القصة أكثر مني! قاطعني هو نفسه لِيواصلها، لِيُضِيفَ تفاصيل أجهلُها لاسيّما عندما اقتربَ ذِكْرُ الشقيقة الصغيرة التي اغتصبَها خطيبُها وهي تحمل له وجبةَ الضحى!

تفوّهَ حسَن بعبارةٍ هزّتني كتيّارٍ كهربائيٍ مفاجئ عندما تمتمَ: «آه، المسكينة نَعِيْم!».

حاولتُ أن أُهدِّئَ من رَوعي: لعلَّ اسم «نعيم» شهيرٌ في المناطق الجبليّة المحيطة بصنعاء لوجود وادٍ شهير، أسفل جبال ثُلَا، اسمه «وادي نعيم»، كان غنيّاً بزراعة الفواكه والخضروات والبن، وصار اليوم موبوءاً بمرض الوادي المتصدّع: زراعة القات!... لعلّهُ اسمٌ مألوفُ الاستعمال هناك، وإن لم أسمع في حياتي شخصيّاً بهذا الاسم الأنثوي البديع إلا عندما لفَظَتْ إلهامُ بهِ لأوَّل مرَّة، عند الحديثِ عن «تَوْأمِها الروحيّ»، في أوَّلِ لقاءٍ ثنائيٍّ لنا في نَانْت، قبل أن تُردِّدَهُ كلَّ يوم تقريباً...

- هل تعرفُها؟، سألتُ حسن مخفياً قدر ما أستطيع تشنُّجاً اعترى جفوني فجأة...

- نعم! جيِّداً. هي زوجة صديقي القديم: خالد!

تنفَّستُ بصعوبة، حاولتُ تجميعَ ما أستطيع من الريق في ثغري. كان جافّاً تماماً. واصلتُ:

- وشقيقتها الكبيرة؟ شقيقتها التي تكبرها بسنتين، هل تعرفُها؟

- لا لم أرها يوماً! لأن خالد ساعدها، في منتصف الثمانينات عند ذهابِ الشيخ للعلاج إلى ألمانيا، على الهروبِ إلى أوروبا أو كندا، لا أعرف!... أشترى خالد طلاقَها، أثناء سفرِ والِدها، برشوةِ زوجِها الذي كان يعملُ بمعيَّةِ الشيخ! أعطاهُ خالدُ مبلغاً يكفي للهروب والحياة بعيداً عن سيِّدِه...

أضفتُ بنهم دفين لمزيدٍ من التفاصيل:

- غريبٌ جدّاً! كيف وصل خالد الذي يسكن في صنعاء إلى نعيم؟ كيف تزوَّجها؟...

- كان ذلك في صيف 1977 تحديداً! صعد خالد إلى جبال ثُلا بسيّارتهِ اللاندروفر في رحلةٍ مع أحدِ أقاربه. مرَّ بمنطقةِ الشيخ. عرَّفَهُ مرافقُهُ على أحدِ أقربائهما الذي كان فقيهاً نيِّراً نبيلاً يعيش في ثُلا، ويقومُ بتدريس بنات وأبناء الشيخ اللغةَ والنحوَ والبلاغة!... كان يُدرِّس آنذاك نعيمَ التي كانت في العاشرة، كما درّس قبلها شقيقتها الكبرى، وبقيّة أخوانها وأخواتها غير الأشقّاء...

دعا الفقيهُ خالدَ ورفيقَه إلى الغداء وتخزين القات بعد ذلك. دخل ثلاثتهم في حوارات وأحاديث كثيرة. انسجم الفقيهُ وخالدَ كثيراً، من أوَّلِ وهلة! أُعجبَ الأوَّلُ بالثاني حتماً! باح الفقيهُ بما حدثَ لِنَعيم قبيل يوم من ذلك: اغتصابُها من خطيبها الهارب! لم تكن القصّةُ معروفةً لأحد تقريبا عدا الشيخ وأمَّ نعيم. وربما لِآخرين قليلين أرغمهم الشيخ على كتمان السر! كان الفقيهُ شديدَ التعلُّق بنَعيم وأختِها الكبيرة، يُغْدِقُهما بكثيرٍ من العطفِ والحنان. يحاوَلُ أن يختلي بهما أثناء دروسه قدرَ ما يستطيع، يحثُّهما على البوح له بكلِّ ما يختلجُ في مشاعرهما... كانتا هما أيضاً تُحِبَّانهُ كثيراً، تُفضِيان له سرّاً ببعضِ معاناتهما...

كان الفقيهُ يتفجَّرُ غضباً يوم لقائهِ بخالد. اغتصابُ نعيم جَرَحَهُ في القلب. جراحُ ودمارُ حياةِ شقيقتِها الكبرى يوم احتفال الألعاب الناريّة ستَسْكُنهُ إلى الأبد! شقيقتُها الكبرى التي امتنعتْ عن الكلام بعد ذلك اليوم! رفضتْ أن تتحدَّث مع إنسان عدا شقيقتها الصغيرة نعيم!... حكى الفقيهُ لِخالد ما حصل للشقيقة الكبرى في يوم الألعاب الناريّة! أقشعرَّ جسدُ خالد

كما لم يقشعر يوماً! كاد يفقدُ الوعي من هولِ المأساة ومن بشاعة الكارثة!... قبل أن يتأوَّهَ الشيخُ أمامه، بدون وعي، بالعبارات التالية:

«استرْ نعيمَ يا ولدي! سيُعِزُّكَ اللّهُ إذا أعززتَها يوم لا عزَّ إلا عزَّه! هي ملاكٌ طاهرٌ في جسد إنسان! ستكونُ لك حوريةَ عِيْنٍ بهَيْئةِ إنسان! أنا أعرفها هي وشقيقتها الكبرى أكثر من أيِّ إنسانٍ آخر! هما بالنسبة لي أغلى من بؤبؤي عينيي! أحبُّهُما مثل ابنتيَّ وأكثر! صدّقني يا ولدي ستكونُ نعيمُ كنزَ حياتك! ستشكرني كثيراً على نُصحِي، ستدعو اللّه لي بعد مماتي كلَّ يوم، من يدري!... اسرعْ بطلبِ يدِها قبل أن يجدَ أبوها لها زوجاً جديداً! تزوَّجْها في الحال!... أعرفُ الشيخ! هو في غمرةِ غضبهِ لِما حصل لِسُمْعَتِه الجليلة! يريد أن ينسى هذا الهمَّ الجديد الذي يُكدِّرهُ الآن، يريد أن ينساهُ بسرعة! سيجدُ لها بين أتباعهِ زوجاً جديداً في يومٍ وليلة!...»

واصلَ حسن:

- لا أعرف إنساناً أكثر جرأةً وشجاعةً وصدقاً وإنسانيةً ونبلاً من خالد، لا أعرف من هو أكثر منه إصغاءً وتحسُّساً لآلام وعذابات الآخرين، لاسيّما الأطفال... قرَّر دون تأخُّر أن يُنقِذَ نعيم من ويلاتها القادمة! وافق على الزواج منها في الحال! كان عمرُه 18 سنة حينها، وعمرُها 10 سنوات! أقسم في قرارةِ نفسِه أن لا يَمُسّها قبل أن تبلغَ سنَّ الرُّشْد!...

توجّهَ الفقيهُ شخصيّاً بعد ذلك إلى الشيخ الذي اعتبر طلبَ يدِ ابنتِهِ بعد أن فقَدتْ بكارتها هديَّةً تصلُهُ من السماء! صلّى ركعتين مباشرة حمداً للّه وعرفاناً بالجميل... استطاع الفقيهُ أيضاً أن يُوصِلَ كلماتٍ طيِّبَةً عن خالد لِنعيم التي تَثِقُ بالفقيهِ أكثر من أيِّ إنسانٍ آخر. تَثِقُ بهِ بعد شقيقتِها الكبرى مباشرة،

بالطبع... رتَّبَ الفقيهُ أيضاً ما يلزم لِعقْدِ زواجٍ عاجل أرادهُ الشيخُ مقتضباً سريعاً حتّى لا ينتشر للملأ خبر ما حدث لنعيم!...
آه، هذا الشيخُ وسُمْعَتُه الجليلة!...

ما إن عاد خالد مع نعيم إلى صنعاء حتّى صبَّ جامَ دعواتِهِ وعرفانِهِ وامتنانِه للفقيه! كلماتُ الفقيه الطيِّبةُ عن خالد، التي أوصلَها لِنعيم، ساعدتْ في أن تكون أوَّلُ نظرةٍ توجِّهُها نعيمُ لِخالد أقلَّ تجهُّماً ورعباً وقساوةً مما كان خالد يتصوَّره ويخشاه!...

ثمَّ لم يتوقَّف خالدُ من شكر الفقيهِ في قرارة نفسه! بفضلِه، صار عاشقاً من عمق أعماقه لهذه الأميرة الصغيرة! يذهلُهُ كلُّ شيءٍ فيها: جمالُها بالطبع (من يستطيعُ أن لا يذوب عِشْقاً أمام جَمالٍ كجمالِ نعيم؟)، براءتُها، ذكاؤها... يُرِيْعُهُ فقط منظرُ الرعبِ والحذرِ والقلقِ في عينيها! يحاولُ أن يقتلعه منها: لا يستطيع! يشعر بالاكتئاب! سيحتاج لسنين طويلة! ربما طويلة جدّاً! ربما لن يستطيع ذلك يوماً!...

هي لا تفهمُ شيئاً مما يحدثُ في حياتِها. تستيقظُ قلقةً، مضطربةً، مرتجفة!... لكنها تشعر بنوع من الأمان قرب هذا الشاب الرقيق الذي يعاملها كأنَّهُ خادمُها وليس سيِّدَها! لم تتعوَّد في كلِّ حياتها على هذا النوع من التعامل الإنسانيِّ المهذَّب، الرفيع جدّاً، الرقيق جدّاً...

بدأ خالد، بعد أيام قليلة من وصولهما منزلَهُ في صنعاء، بترتيبِ رحلةٍ لِقضاء «شهرِ العسل» في الأسكندرية... كان يحمل لِنعيمَ الفطور، هو نفسُه، إلى سريرِها الخاص في الفندق! هي لا تفهم غيرَ شيءٍ واحد: انتقلَتْ بِجناحِ ملاك، ذات ليلة قَدْرٍ سعيدة، من النار إلى الجنة... لا تُصَدِّقُ ما تَراه:

هو يتذكَّرُ كلَّ نُكَتِ طفولتِهِ في عدَن! يحكيها لها برغبةٍ

هائلة بإضحاكها! صار هدفُهُ طوال الثمان السنوات الأولى من حياتهما المشتركة، هدفُ حياتِه المقدَّس: أن يراها تضحك!... هي لا تضحكُ أمام الرجل! تعلَّمتْ ذلك منذ نعومةِ أظافرها!... ثمَّ بدأتْ تبتسمُ بصعوبةٍ أمام خالد! تبتسمُ أكثر فأكثر! تضحكُ أحياناً مُغمِضةً عينيها، مُخفيةً رأسَها بين راحتيها، وكأنها تخجلُ من أنها تضحك أمام رجل!... هو يعرف أنه سيُفجِّرُها ضحكاً يوماً ما! سيكتسِحُها بالضحك، سينتصرُ عليها بالضحك! سلاحُهُ الجَبَّار لِهزيمتِها: الضحك!...

هو يُفسِّحُها من مكانٍ إلى مكان. يُعرِّفُها على كائنٍ رائعٍ لم تره في حياتها من قبل، لكنها تشعرُ أن بينه وبينها علاقةً أزليّة. كائنٌ مذهلٌ مذهلٌ مذهل، تُحبُّه نعيم من أعماقِ أعماقها، تُناجيه، تشكي له همومها، تُسِرُّ له بكلِّ خبايا نفسها، تعشقُه، تعشقُه، تعشقُه... كائنٌ اسمهُ البحر!

هو يهتمُّ بها، يحترمها، يتحدَّث معها دون توقّف، يمدحُها باستمرار (يحمرُّ خدَّاها حين ذلك). صار يُعجبُها مدحُهُ ومغازلتُه لها مع مرِّ الزمن. تحتاج إليهما، تَشتاق إليهما، تُحِبُّهما، تعشقُهما!...

هي لا تفهمُ أشياءَ كثيرة مع ذلك، هذه الطفلة الصغيرة. لم تكن تعتقدُ لحظةً واحدة أن الحياةَ بإمكانها أن تكون أقلَّ بشاعة مما تتصوّر، وإلى هذه الدرجة أيضاً!... بل أن تكون سعيدةً أيضاً، سعيدةً جدّاً: تتوالى «أشهرُ العسل» في السنين اللاحقة: بيروت، دمشق، اللاذقية، اسطنبول، أثينا... يتوالى الفطور إلى سرير نعيم، يحملُهُ لها هذا الإنسانُ الذي لا يُشبِهُ إنساناً... تتعوَّدُ نعيمُ على هذه الطقوس! تجدُ لذَّة خالصةً في ممارستِها واعتناقِها!... «ثمَّ هي تستحقُّ ذلك!»، كما قال حسَن. قبل أن يُضيف: «لِحلاوةِ عينيها الواسعَتَيْن المُدَلَّلَتين على الأقل...»

لاحظ حاملُ فطورها المثابر شيئاً جديداً يحدث لأوَّل مرَّة عندما يحمله لها وهي تتقلَّبُ على الفراش نصفَ نائمة: تجدُ نعيم الآن مُتْعةً بتركِ أنَّةِ دَلَع صغيرةٍ، واحدةٍ فقط، بصوتِها التي بدأَتْ تكتشفُ الآن فقط آثارَ روعةِ نبراتِهِ على مسمعِ خالد!... هو يكبحُ جماحَ رغباتِه عند ذلك. يكبحُها بصعوبة!... يتذكَّرُ أنه أقسم في قرارة نفسه، في حضرة الفقيه، أن يكون شهرُ عسلِهما الحقيقي، الأوحد، في آخر ليلةٍ من 1984، عندما تصلُ معشوقته سنّ الثامنة عشرة، هنا في عدَن!...

وصلا إلى فندق عدَن مساءً في نهاية 1984. سكنا الغرفة 405! رأيتُهما صباحَ غدٍ وصولِهما! هي لأوَّل مرَّة، وهو بعد فراق عشر سنوات! كم تغيَّرَ خالد منذ عرف نعيم! كم صار إنساناً آخر! لم يعدْ بوهيميّاً مثلما كان! لم يعدْ يسافر الآن إلا في ملكوتِ نعيم، في أعينِ نعيم! هي كلُّ شيءٍ في حياتِه!...

كانا يسبحان معاً في مسبح فندقِ عدَن عندما وَصَلْتُ! كانت نعيم تلبسُ مايو سباحةٍ عصريّ، بدون سنتمتر مربع يزيد أو ينقص على مايوهات السباحة العصرية!... رأيتهما يسبحان كطفلين، حُرَّين سعيدَين، في ذلك المسبح الذي كدْتُ أحترقُ داخلَهُ بالقذيفة، في ظهيرة 13 يناير 1986، بعد حوالي سنةٍ من رؤيتهما!

هل تصدِّق ذلك؟ هل رأيتَ حتّى الآن يمنيّاً واحداً يسبح مع زوجته هكذا: تحت الشمس، بحريّةٍ وفخر، دون أن يرتجف كمذنب أو ك«سارق برأسِهِ قُشَاشَة» وهو يراها تطفو أمام العالم فوق الماء، بجسدِها الطليقِ الحرِّ كما خلقهُ اللّه، دون أن تشوِّشهُ جلابيبُ وعباءاتُ وأغلال البشر؟... هل تستطيعُ في هذا البلد أن ترى زوجةَ أحدِ أصدقائك، أن تتناول العشاء معهما بشكلٍ طبيعي،

إنساني، بكلِّ بساطة، مثل بقيّة مخلوقات الأرض؟... أعرف عدداً كبيراً من أولئك «التقدميين جدّا»، الذين يقلبون الدنيا رأساً على عقب عندما يتحدّثون عن «قضيّة المرأة»، عن سُبلِ تحرُّرِها وانعتاقِها... بعضهم دعوتُهُ إلى بيتي، تناولَ العشاءَ معي ومع كلِّ عائلتي في المنزل، أكثر من مرَّة! نظَّر، نظَّر، نظَّر! لاسيّما عن «حُريّةِ المرأة ومساواتِها بالرجل»، عن «تحريرِ العلاقات الاجتماعية من آثار الإقطاع والرجعية»، عن علاقاتٍ جنسيَّةٍ «من طراز جديد»... لكني لم أدخلْ منزلَهُ إلى اليوم، لا أعرفُ زوجتَه! لا تخرجُ من منزلِها إلا بجلباب. لم يدعُني يوماً إلا لـ«عزومة رجال»! في مطعمٍ، رأساً برأس، شارباً بشارب!... ياللنفاق! كم هم مسرحِيُّون هزليُّون من النوع المبتذل!...

خالد، هو عكسُ هَؤلاء تماماً! لا يحتقرُ من أعماقِهِ شيئاً أكثرَ من النفاق، الكذب، الرياء، التمثيل، التخلف، انتهاك حقوق الضعفاء، العُقَد، أمراض الكبت التقليدية... يجدُ مُتعةً جليَّةً في استفزازِ الموروثِ النتن، في احتقارِهِ المكشوف، في السخريَّةِ الدائمةِ منه! يجد لذَّةً خبيثةً رائعة في ممارسة سلوكِه المعاكس للعادات والتقاليد المتعفِّنة، في وضح النهار، بكلِّ شفافيّةٍ وبساطةٍ وثِقةٍ وفخرٍ وحُرِّية...

بعد أسبوع من وصولهما إلى عدَن، نظَّم خالدُ حفلةَ عشاءٍ في صالةِ حفلات الفندق في ليلةِ رأس السنة. دعا إليها ثلَّةً من أصدقائه، حول وليمةٍ لا تُنسى، وليمةُ العُمر: انسابَتْ أمامنا كلُّ الأطباق الشهيّة لِـ«المطعم الصيني» العدنيّ العريق، تلَتْها ألذُّ الوجبات اليمنيَّة التقليدية التي نعرفها في عدَن، ألذُّ الوجبات الصنعانية التي اكتشفناها ذلك اليوم لأوَّلِ مرة... كنتُ أوَّلَ المدعوِّين بالطبع في تلك الحفلة: حفلةُ عقدِ قرانِهما الحقيقي!

بدآ بعدَها شهرَ عسلِهما الحقيقي، هنا في عدَن!...

قاطعتهُ بلا وعي، بسؤال عن نعيم وإن كان في حقيقتهِ عن شقيقتها الكبرى، إلهام:

- صِفْ لي نعيمَ لو سمحتَ؟ كيف هي؟...

- آه، لو قابلتَها لَعرَفْتَ أسباب السعادة التي تغمرُ خالد منذ أن رآها أوَّل مرَّة: ذكاءٌ جَليّ! طِيْبَةٌ وعُذوبةٌ لا مثيل لهما! لا تتوقَّفُ عن المرح، لها روحُ فكاهةٍ من نوعٍ راقٍ، غير أليف! مرحٌ مفاجئٌ، كثيف، لا أعرفُ كيف أصِفُه!... ثُمَّ هي زوجةُ أعزِّ أخوتي، حبيبي وصديقي الخالد: خالد. لا أخجل من مدحِها، لا أملُّ مدحَها: قامةٌ رشيقةٌ نموذجيّة! عينان خضراوان واسعتان! صوتٌ عذبٌ لا تمتلكه إلا الملائكة! لهجةٌ صنعانية تُذيبُ القلب!... لو كانت لي زوجةٌ كهذه لما تسكَّعتُ من حُضنٍ لِحُضن، لما ترنَّحْتُ من عُشَّةٍ لِعُشَّة، لما تزوَّجتُ إحدى وعشرين مرَّة حتّى الآن...

وجدتُها! هي من جِئْتُ أبحثُ عنها! هي أختُ إلهام، ولا أحد غيرها!... تربطُني إذَنْ، دون أن أدري، بتلك القصةِ القصيرةِ التي أخْفَتْها إلهامُ في مفكِّرتِها الحميمية علاقةٌ أكثرُ عضويَّةً مما أتصوَّر!... تذكَّرْتُ فجأة إلهام في خيمةِ وادي رم عندما قالت لي، بعينين تحملان كلَّ أسى العالم، عباراتٍ بدَتْ لي غامضةً ليلةَ ذاك. تذكَّرتُها وهي تنظر نحوي بوَجْهٍ تجذَّرَ في تقاطيعهِ ألمٌ سحيقٌ يصعدُ من أسفل الذاكرة، وبعَينين شاخصتَين نحو طائرِ خراب جئتُ أبحثُ عنه في هذا البلد:

- ثمَّةَ أشياءُ لا يمكنُ الحديثُ عنها! ما ذنبكَ أنت لِمجرَّدِ أن تسمعها، لِمجرَّدِ أن تتخيَّلَ فقط كيف وقَعَتْ. لا أريدُ أن أكونَ سبباً في تألُّمِكَ لِوقوعها!... ثمَّ أني كما قلتُ لك ألف مرّة: قَبَرْتُ كلَّ ذلك، نسيتُ كلّ ذلك، يُنهِكُني النبشُ في تلك المستنقعات...

دفعتُ للشقاءِ والخرابِ أكثر من قسطي الوجودي بما لا يخطرُ على بال!...

شعرتُ بجَيَشَان النفس، بغثيانٍ مفاجئ عميق! أدركتُ أين أنا الآن وفي أيِّ هاويةٍ أهرول! عانتْ معشوقتي إلهامُ كلَّ هذا العذاب! كلَّ هذه الويلات! كلَّ هذا الخراب!... لماذا أخفتْهُ عنِّي؟ لماذا فضَّلَتْ أن أظلَّ في الظلمات؟... استغربْتُ مما يحدث لي، أنا الذي أردتُ يوماً أن أهربَ من هذا البلدِ إلى الأبد: هاأنذا أترنَّحُ الآن في أبشع بالوعاتِه!...

ثمَّ عادت إلَيَّ من جديد هذه العبارات التي وجدْتُها داخل مفكِّرةِ أسرار إلهام ذات الغلاف المنقوش بأشكال مجرَّدة تُشبهُ شُعَباً مرجانيةً شديدةَ التنوُّع والتداخلِ والتعقيد، على خلفيَّةٍ ورديَّةٍ أرجوانيّة. هذه العباراتَ الصماء التي تُعذِّبُني منذ تلك الليلة الليلاء التي قرَّرتُ فيها السفر إلى اليَمَن بحثاً عن نعيم، لأنها، وحدَها، ستُفَسِّر لي ذلك:

«في الثانية من عُمري، أو ربّما الخامسة، لا أستطيعُ القطعَ في ذلك، بدأْتُ عذابَ جهنّم! لا أستطيعُ، بين هاتين السنتين، تحديدَ اللحظة التي انكسرتْ فيها حياتي إلى الأبد! أسألكَ العُذر! لأنَّ هذه الكلمات، المخضَّبة بألم مُترَسِّب نتن، تَصِلُ إلى قلمي لوَحدِها، دون تفكير. تصعدُ دون استئذان من قاعِ الذاكرةِ التي جاهدتُ طويلاً لِطمسها. هي وحدها أصدق مستهلٍّ لقصَّةِ حياتي!... وُلِدتُ في 14 أغسطس 1965 في قريةِ ثُلا...»

لم أعد أُتابعُ ما يقولُ حسن الذي بدأَ يمارسُ «النقد الذاتي» حول فشلِ حياتِهِ العاطفيّة وعبثِ ركضِهِ خلفَ حمَّالاتِ الفساتين!... طلبتُ منهُ على التوِّ أن يعطني رقمَ تلفونِ خالد ونعيم وعنوانهما في صنعاء...

في فجر اليوم التالي أخذْتُ من المنزل كلَّ حقائبي، وآخر ما تبقّى لي من دفاتر وأوراق شخصيّة قديمة لم آخذها معي إلى فرنسا في السبعينات: شهادة الميلاد، نتائج السنوات الدراسيّة في المدرسة الابتدائية...

ودَّعْتُ أمّي بحرارة. ذرَفَتْ كثيراً من الدموع وكأنَّها تشعرُ بأنها لن تراني في هذا المنزل مرَّة أخرى بعد ذلك اليوم!... ثمَّ صعدْتُ طائرةَ السادسة والنصف صباحاً التي تتَّجِهُ من عدَن إلى صنعاء...

الجزء الرابع

نَعِيْـــم

يشعرُ المرء أنه يهرول في الخراب عندما يكتشف أن البشرَ يرتكبون شروراً لا حصر لها، في حضرة النجوم!

فيكتور هيجو

العشق ليس النظر وجهاً لِوجه، العشقُ هو النظر في نفس الاتجاه!...

انطوان سانت ايجزوبري

وصلتُ صنعاءَ صباحَ العاشر من أغسطس 2000. قادني التاكسي إلى ميدان التحرير. أولى النظرات لِعاصمتي الجديدة لم تكن مُشجِّعةً جدّاً: مدينةٌ صارمةٌ عدوانيةٌ بعض الشيء، جَلِفَةٌ كَمُدُن جبال أفغانستان، خاليةٌ من فضاءاتِ الفُسحَة، من المقاهي اللطيفة، من الخلاءات المفتوحة... تُكِنُّ عداءً دفيناً للنظام والمدنيَّة، صُمِّمَتْ لِتكونَ نموذجاً معماريّاً مثاليّاً لِمدينةٍ يستحيلُ أن يجدَ فيها عاشقان سنتمتراً مربعاً للاختلاءِ والمناجاةِ والقُبَلِ السريَّة... عشقتُها مع ذلك من أوَّل نظرة لسببٍ بسيط: هي مدينةُ إلهام!

اخترتُ في ميدان التحرير فندق هيلتاون: عمارةٌ بطابع معماريٍّ صنعانيٍّ قديم!... عرَضَ عليَّ موظفُ الاستقبال أرقامَ غرفِهِ «السوبر لوكس»: 205، 305، 405، 505... اخترتُ بلا وعي 405: نفسَ غرفةِ شهر عسل نعيم وخالد في فندق عدَن!... تذكَّرتُ إلهام! هي التي علَّمَتني الاعتناءَ بذاكرة الأرقام وأوقعَتني في طقوس الإيمان بأسرارها وأبعادها الرمزية...

تمدَّدتُ على سرير الغرفة للراحة بعد هذه الرحلة الفجريّة المضنية! رنَّ تلفوني النقّال: حَسَن! سألني في أي فندقٍ نزلتُ في صنعاء: هيلتاون... استرخيتُ حوالي ساعتين. لم أستطِع النوم... بدأتُ أستوعبُ هنا، في هدوء هذه الغرفة، في هذا المناخ الجبليّ القريبِ من ثُلا، هوْلَ ما حصل لإلهام في احتفال

الألعاب النارية!... لم أفهم لماذا كتمَتْ عليَّ كل ذلك، وكيف استطاعت الحياة اليوميّة كلَّ هذه السنين دون أن تتقيأ هذا الوزر الخانق!...

دقَّ تلفونُ الغرفة! صحوتُ. موظَّفُ الاستقبال يخبرني أن زائراً ينتظرُني في بهو الفندق!... استغربتُ: لم أزر هذه المدينة من قبل! لا أعرف فيها مخلوقاً واحداً يعرف أني هنا!... رتَّبْتُ نفسي قليلاً. هرعتُ نحو المصعد الكهربائي. انتظرتُ طويلاً. آه، يبدو أني لم أتناغم بعدُ مع رقصة انقطاع الكهرباء، ولم أتعوَّد على إيقاعاتها الطويلة المتواترة!... نزلتُ السلَّمَ أربعاً أربعاً... جستُ بنظري البهوَ من طرفهِ لِطرفه: لا أعرف أحداً!... ثلّةٌ من السوّاح الأسبان في أقامة ترانزيت على وشك المغادرة. مُسلَّحٌ بثياب مدنيَّةٍ يحومُ حول الباب! سائقُ تاكسي أحْوَلُ العينين في خلاف مع زبون حول سعر الأجرة الذي اتفقا عليه قبل المجيء إلى الفندق. كلٌّ منهما يدَّعي مبلغاً يختلفُ عن الآخر. يحلفان معاً بالمصحف الكريم أن المبلغ الذي يدَّعيه كلٌّ منهما هو الصحيح!... مجموعةٌ من أهل الجبال المجاورة في وسط البهو، في خلاف حول أملاك وعقارات أرضية. في أحضانهم وعلى خصورهم كميّاتٌ هائلة من القات والجنابي والرشاشات والقنابل والمسدسات. ينتظرون أحداً ما، قبل الصعود إلى غرفةٍ في الفندق لِجَلْسةِ قات: لقاءُ مُصالحة، في أغلب الظن! غير أن نرفزتَهم وكميّات الأسلحةِ الموجودةِ في حوزتهم لا تُبشِّر بذلك بشكلٍ ساطع!...

أردتُ استفسارَ موظف الاستقبال عن هويَّةِ ذلك الزائر! لَمَحني، فهمَ قصدي، أشار لي بِسبَّابتِهِ من بعيد إلى زاويةٍ باهتةِ الإضاءة في أقصى ركن البهو، على يَمِيْنِه... توجَّهْتُ نحو شبحِ إنسانٍ جالسٍ في مقعد زاويةِ الرُّكن! سائحةٌ كما يبدو

ببنطلون رماديٍّ أسود مشبوب بانعكاسات بيضاء هائمة. حذاؤها خفيفٌ مفتوح، من الجلدِ الأًصيلِ الفاخر. الفانيلةُ من القطنِ النقيِّ الناعم بِلَوْن الصوف (بيج)، المائلِ إلى الورديّة، عليها رسمٌ كاريكاتوريٌّ جميل، وعباراتٌ باللغة الهندية (السنكريتية). لم أستطعْ قراءةَ العبارات بالتأكيد، لكن الرسم يوحي بشجرةٍ تخنُقُها النفاياتُ وأدخنةُ التلوُّثِ البيئي، أشبهُ بِرُسوماتِ ونقوشِ مُنظَّماتِ «الخُضْر» ومناهضي تلوُّثِ البيئة في أوروبا...

استقامَتْ وأنا أقتربُ منها! ابتسامةٌ بعيدة! الفتاةُ بيضاءُ تميل إلى الورديّة. جسدٌ موسيقيٌّ رائعُ القوام والرشاقة. هي ليست سائحة! يمنيَّةٌ أصيلة بثياب مدنيّة، دون جلباب أو حجاب!... نوعٌ أنثويٌّ شديدُ الندرةِ في اليمن، لكنَّهُ، كما يبدو، غيرُ مستحيلِ التواجدِ بشكلٍ مطلق!... تُشبهُ إلهام بشكلٍ ملحوظ! عيناها أوسعُ قليلاً، خضراوتان، بِنفسِ لمعةِ العينين الكُحْلِيَّتين لإلهام. بنفس طولِ إلهام تقريباً: متر و69 سنتمتر. خصرُها قد لا يمكنُ، ربَّما، إحاطتُهُ بنصفِ يدٍ مثل خصرِ إلهام، لكنهُ رشيقٌ سائل... شعرُها فاحمٌ أقلُّ غزارةً من شعرِ إلهام الكستنائي، لا ينتهي مثل شعر إلهام بخصلاتٍ دائرية تُؤطِّرُ الوجه... تضع على عُنقِها شالاً أحمراً من حرير الكشمير!...

ابتسمَتْ وأنا أقترب! أسنانُها مرتصَّةٌ بحلاوة ارتصاص أسنان إلهام، ناصعةُ البياض أيضاً... هي يمنيَّةٌ دون شك! هل أصافِحُها؟... نساءُ هذا البلد لا يَمِلْن كثيراً إلى مصافحةِ الرجال (آه، ملامسةُ يدِ الرجل! ياللعيب! ياللاباحيّة!...) تحاولُ أن تقرأ قسماتي! نظراتها مملوءةٌ برغبةِ استطلاع قوية: هل سأعرفها؟... استقرَّتْ عيناي في عينيها الخضراوتين، المدلَّلتين... هي تقتربُ منّي! تُصافحني! تُعرِّف بنفسها: نعيم!... تعانقني! تعانقني، لا أصدِّق! تبحثُ عن منديلٍ في حقيبةِ يدِها السوداء! تُخفي

دمعتين بصعوبة... إلهي، هذه ليست التوأمَ الروحيَّ لإلهام فقط، هذه توأمُها الجسديُّ أيضاً! هما صيغتان متشابهتان جدّاً لِنفس الجَمال. لِجَمالٍ أروع من الجَمال. لِجَمالٍ لا يُقارَنُ بِجَمال...

نظرتُ بِتَفَحُّص إلى شال الكشمير المنْسدل على عُنُقِها. لعلِّي رأيتُهُ ذات يوم في مكانٍ ما! سألَتْني: «هل عَرَفْتَه؟»... لم أستطع أن أُحدِّدَ أينَ ومتى رأيتُهُ من قبل!... ردَّتْ بنبراتٍ لا تُخفي ظلَّ استنكارٍ وُدِّي: «هو شال إلهام! هو نفسه الذي قابلَتْكَ به في لقائكما الثنائي الأوَّل في نَانْتْ!...» ثمَّ أحْنَتْ وجهَها قليلاً نحو اليسار باتجاهِ الشال، مغمضةً عينيها. لَمسَت حريرَهُ السائل براحةِ يدِها بكلِّ رقّة، قبَّلَتْهُ بخشوع وقدسيّة، تَمْتَمَتْ بنفسٍ عُذوبةِ نبراتِ إلهام وبنفسٍ طقوسِها في الشجَنِ والوُجْدِ والشَّوقِ واللوعة: «آه، إلهام! اشتقتُ إليك! إلهام!...»

أعاد لي هذا الشال الأحمر، في ثوانٍ سريعة، ذكريات إلهام أثناء لقاءاتنا الأولى في مدينة نَانْت، قبل أن يختفي عن ناظري تماماً! تذكَّرْتُها وهي تلبسهُ أثناء مُشينَا الطويل بمحاذاة نهر «اللوار» في وسط المدينة، أثناء توقُّفِنَا بين الفينةِ والفينةِ فوق بعض جسورِه للتأمُّلِ والحديثِ العميق الهادئ، للتحديقِ في القصور التاريخية القديمة، في السفن السياحية، في تجاعيد مياه النهر... تذكَّرْتُها بذلك الشال أثناء استرخائنا في مقهى رومانسيٍّ على ضفاف نهر اللوار... تذكَّرْتُها بهِ ونحن نتناولُ الشاي المغربي بالنعناع وبعض حلوياتٍ خفيفة في مقهى صغير قريب من قصر البلديّة... تذكَّرْتُها أثناء ضحكنا المتاخم للهيستيرية في يومٍ سرَدْنَا فيه هفواتنا وحماقاتنا على سواحل لابُول... تذكَّرْتُها بهِ أثناء ارتشافِ كأسِ نبيذ شاتو دو كايرو، قبل أن أودِّعَها في ثاني لقاءٍ ثنائيٍ لنا، في نفس المقهى الذي

التقينا فيه لأوَّلِ مرة مع زميلي الفرنسي...

لاحظتُ، عندما كانت نعيم تُقبِّلُ الشالَ، أن خاتمَها من الياقوت المهيب الرائق. عرفتُهُ سريعاً: هديّةٌ من إلهام أيضاً! اشتريناه في رحلةٍ لراجاستان، في شمالِ غرب الهند، عندما توقَّفْنا بالسيّارة، التي كانت تقودُها إلهام، أمام معرضٍ جميل، في وسط الطريق بين المدينتين الميثولوجيتين السرمديَّتين: أجْرَا (حيثُ يتخلَّدُ قصرُ تاج مَحَلْ) وجيبور الرومانسية الساحرة... آه، حذاءُ نعيم أيضاً! عاد إلى ذاكرتي الآن! اشترَتْهُ إلهامُ في شارع سانت دوني في مونتريال بكندا، من معرضٍ إيطاليٍّ فاخر! لم أكن أعرف حينها إذا كانت إلهام تنوي الاحتفاظَ به أو إهداءَهُ لِتوأمِها الروحيّ... غير أني لستُ متأكداً إطلاقاً أن فانيلةَ نعيم هديّةٌ من إلهام! لا أتذكَّرُ أن إلهام اشترتْها في نفس تلك الرحلة لراجستان، بل لا أظنُّ أني رأيتُ الرسمَ المنقوشَ عليها في مكانٍ ما قبل هذا اليوم...

لا أصدِّقُ عينيي: أمامي الآن تلك التي جئتُ من فرنسا أبحثُ عنها! التوأمُ الروحيُّ والجسديُّ معاً لِمعبودتي الخالدة! كيف عرفَتْ أني هنا؟... أجابَتْ قبل أن أوجِّهَ السؤال: اتصل حَسَن البارحة بنا في المنزل. حكى لِخالد ولي لقاءكما وأحاديثكما في جاردن سيتي، وأسئلتك عنِّي!... ما إن ذكر حَسَن اسمَك حتى عرفنا أنك في اليمن!... أخبَرَنا أنك ستصلُ صنعاء اليوم. طلبْناه أن يسألك بأي فندقٍ تُقيم...

أدركتُ، وأنا أرى نعيم، مدى عداءِ خالد للعادات والتقاليد المتعفِّنة! يرفضُها بوضوح، يحتقرُها إلى حدِّ التحرُّش أحياناً! هاهو يتركُ زوجتَهُ تأتي لوحدِها إلى الفندق، مرفوعةَ الرأس طليقةَ الجسد! بلباسٍ عصريٍّ يتفجَّرُ سعادةً وحريّة!... أناقةٌ رفيعة لا تسحقها أو تمحقها، لا تُشوِّهها أو تُدثِّرها جلابيبُ

أهلِ هذا البلد! كلُّ ذلك في قلب صنعاء، عاصمة القبائلِ والكبتِ وعداءِ المدنيّة!... تأتي بعد ساعاتٍ قليلةٍ فقط من وصولي، وكأنها لا تحيى في عاصمة البطءِ والانتظارِ والمواعيدِ المؤجَّلة!... «كلُّ شيء معقول» في هذا البلد! كلُّ شيء ممكن! حتى هذا اللقاء الإعجازي الذي لم يخطر ببالي إمكانية حدوثه، وبهذه السرعة الخارقة أيضاً!... في كلِّ الأحوال، يلزم في اليمن أن تكونَ جمجمةُ المرء مصبوبةً بالتحدِّي والثقة بالنفس والشجاعة والجرأة والكبرياء والعظمة ليكون مثل نعيم وخالد... نوعٌ بَشريٌّ شديدُ الندرة، لكنَّهُ، كما يبدو، غيرُ مستحيلٍ بشكلٍ قاطع!...

طلبْتُ من نادلِ مطعم الفندق كأسَيْن من عصير الليمون الأخضر الطازج. سألتني نعيمَ عن أحوال أمِّي ومنزلِها في عدَن. تلعثمتُ كثيراً، كنتُ مُشتَّتاً أترنَّحُ في أكثر من بُعْد، يتشاطرني أكثر من ذهول، أكثر من سؤال، أكثر من ألم: الاستفسارُ عن أخبار إلهام؛ قصةُ الألعاب النارية والتفاصيلُ التي عرفْتُها البارحة في جاردن سيتي؛ الطفولةُ المجهولةُ الغامضةُ لإلهام؛ أين هي وكيف الوصول إليها؛ مفاجأةُ مقابلة نعيم أمامي الآن، وجهاً لِوجْه... نعيم التي أُكنُّ لها إعجاباً لامحدوداً بسببِ حُبِّ إلهام لها! كم خطر ببالي مراراً أن إلهامَ لا تحبُّ في هذا الكونِ كلِّهِ حُبّاً خالصاً أبديّاً مُطْلقاً إلا أختها الصغيرة التي تواجهني الآن! لعلِّي، رضيتُ أم أَبيْتُ، أغِيْرُ من نعيم بشكلٍ أو بآخر، لكني أُجنُّ لها في نفس الوقت مشاعر عارمةً متداخلة يصعبُ وصفُها!...

استفسرتني نعيم عن انطباعاتي عن اليمن. أجبتُها بكلماتٍ سريعةٍ مشعبكة، عصبيَّةٍ إلى حدٍّ ما. صببتُ جامَ سخطي على التخلف والجوع والنهب والفوضى وسلطة القبائل! على مهندسي الخراب الذين يجثمون على هذا البلد منذ أمد!...

كنتُ حائراً مرتبكاً أثناء الحديث! أكرِّر أحياناً نفسَ العبارةِ أكثر من مرّة! كنتُ أُنَظِّمُ في الحقيقة في كواليس دماغي الأسئلةَ التي جئتُ أوجِّهُها لنعيم، أكثر من أن أهتمَّ بالردِّ عليها بكلماتٍ بليغةٍ واضحةٍ مُركَّزة...

ثمَّ سألتني كيف مَرَّتْ آخر الأيام في فرنسا بعد مغادرة إلهام!... لاحظتُ أنها تعرفُ كلَّ تفاصيلِ حياتنا، كلَّ صغيرةٍ وكبيرةٍ فيها، حتى يوم «هروب» أختِها! غير أنها فُوجِئَتْ الآن فقط بمعرفةِ أني بِعْتُ منزلَنا في باريس لِتسديدِ ديونِ إلهام دفعةً واحدة! سألتني بحسرةٍ كبيرة:

- لم يكن هناك حلٌّ آخر؟...

- لا!...

كنتُ مذهولاً جدّاً! هي بنفسِ سحرِ وجلالِ إلهام! إلهي، كيف يمكن لِفتاتين خارجتين من أبشع بالوعات اليمن أن يكونا بهذه الروعة؟ كيف يمكنُ لفتاتين وُلِدَتا في أكثر مناطق اليمن قبليَّة وتخلفاً، ذاقَتا ألعن المصائب والويلات والعذابات... أن يَصِرْنَ إكليلَ هذا البلد، قُدسَ أقداسِه، نبراسَهُ المتوقّد؟... آه، يلزمُ أحياناً أن تخرج من قاع الخراب لِتُحلِّق في رحاب اللانهاية... لا أعرفُ يمنيَّةً واحدة، مهما كانت ثقافتُها ومدنِيَّةُ بيئتِها العائلية، يمكنُها أن تقابلني هكذا وجهاً لِوجه، بكلِّ ثقةٍ وفخرٍ وانبساط، في بهو فندق، بلباسٍ مدنيٍّ دون جلابيب أو حجاب أو منديلٍ يغطّي كلَّ الرأس أو شطراً منه... كيفَ يُعقلُ ذلك؟ سأحتاجُ لِنَعيم للإجابة على هذه الأسئلة الجديدة...

تنهشُني الأسئلةُ القديمة الآن! أنتظرُ هذه اللحظة منذ دهر! ركّزْتُ ذهني قدر ما أستطيع. تنفَّستُ بعمق. وجَّهْتُ نظري عموديّاً لعينَي نعيم. فضَّلتُ أن أبدأ أسئلتي باستفسارِها عن أسبابِ إصرارِ إلهام إخفاءَ تفاصيل طفولَتِها وراء جلبابٍ أسودٍ قاتم. لعلَّ

هذه أفضلُ البدايات للاقتراب من خفايا جراحِ وويلاتِ إلهام... قلتُ بذبذباتٍ صوتيّةٍ متسارعةٍ متدافعة غير واثقةٍ من نفسِها:
- ثمّة أسئلةٌ أرهقتني منذ سنين، صارتْ تَخْنُقُني الآن، تَمْنَعُني من التنفّس! أنتِ الوحيدةُ التي تستطيعين إجابتي ومساعدتي في فهم ما يحدثُ حولي! جئتُ من فرنسا لهذا الغَرَض لا غير!... اعذريني إذا أسرعتُ في زَخِّ أسئلتي منذ الدقائق الأولى لهذا اللقاء... أودُّ أن أبدأ الآن بشكل مباشر! لا أستطيع الانتظار! اعذريني مجدَّداً إذا ذهبتُ عموديّاً للسؤال الأوّل، دون مقدمات:
- لماذا كتمَتْ إلهامُ عني كلَّ طفولتها؟ لماذا أصرَّتْ على ذلك حتى آخر لحظة؟...

ارتبكَتْ نعيم، أحمرَّتْ كثيراً! تأوَّهتْ بنبرةٍ لاشعورية خافِتة... كانت رابطةَ الجأش متماسكةً مع ذلك! احتارتْ، لم تعرف من أين تبدأ الردَّ كما يبدو... قالت:
- كنتُ أقرأُ كتاباً قبل فترة، مذكرَّاتُ أديب لا أذكرُ اسمه! شعرتُ بالظُّلم عندما وصلْتُ إلى صفحةٍ يقولُ فيها: «أيُّ إنسانٍ في هذا العالم يستطيعُ أن يتحدَّثَ بسحرٍ وإسهابٍ عارم عن طفولتِهِ قبل سنِّ المراهقة والشباب! الطفولةُ عهدٌ مبارك! كلُّ شيءٍ نظيفٌ فيها! ليس ثمَّةَ ماضٍ في سنِّ الطفولة، ثمَّةَ مستقبلٌ فقط!... بعد سنوات الطفولة يبدأُ المرءُ بِجَرِّ المقالي الوسخة: قيودِ الحياة، أوزارِها، ذكرياتِها السيئة، انتكاساتِها...» شعرتُ بالضيم والسخط، اكتظمتُ عندما قرأتُ هذه العبارات!... حسدْتُ قائلَها كثيراً، يلزمُ أن أعترف، لأن ما كتبَهُ هو عكسُ رأيي إلهام ورأيي تماماً! الطفولةُ هي أسوأُ وأبشعُ سنوات حياتنا! المَقالي والطسوت الوسخةُ المتعفِّنَة نَجُرُّها، إلهام وأنا، منذ المهد، منذ أوَّلِ العمر... ليس لنا طفولة، انْتُهِكتْ طفولتُنا منذ البدء!...

توقَّفَتْ عن الكلام. خيطُ دمع مفاجئ يسيلُ سريعاً. بَحثَتْ عن منديلٍ في حقيبة يدها السوداء. طفحَتْ مدامعُ أخرى... نظراتُها تنحدرُ نحو الأسفل بزاوية 45 درجة، تُحملِقُ في وسط المنضدة. صمتٌ عميق. ألمٌ بعيدٌ يجتاحُ كلَّ ملامِحِها... انتظرتُ بتَوَتُّر، بقَلق، بحرارة... لم أنبس ببِنْت شفة لئلا أقطعَ حبلَ أفكارها، لئلا تتوقَّفَ عن الحديث... نظراتُها المنحدرة لا تغادر نفس البؤرة في المنضدة! تحاول التركيز؟ التذكُّر؟ تلافي أحاسيس مُعَيَّنة؟... تناولَتْ كأسَ الليمون من المنضدة، أعادَتْ إلى عُنقِها الشالَ الأحمر الذي أوشكَ السقوطَ على الأريكة، سوَّتْ بحركةٍ آليّةٍ مرتبكةٍ بعضَ خصلاتِ شعرها الهاربة، ثمَّ واصلَتْ ردَّها بنبراتٍ أكثر عصبيَّة (رَمَقَتْ أثناء ذلكَ ملامحَ وجهي مرّةً أو مرَّتين):

– لا يتجرأُ أحدٌ الحديثَ هنا عن الرجس الأكبر، العذاب الأكبر، انتهاكِ المحارم، زنى المحارم!... في الدول المتقدِّمة، كما تعرفُ أكثرَ منِّي، كُسِرَ حجابُ الصمتِ مؤخَّراً! صارتْ المدرسةُ في السنوات الأخيرة تُشجِّعُ الطفلَ على الجرأة في الحديث عن كلِّ معاناته، تغرسُ في دماغِهِ العبارة التالية: «جسدُكَ مِلكُكَ وحدُكَ لا شريكَ لك! مُحرَّمٌ على أيِّ إنسانٍ آخر»... تشرحُ للطفل كيف يتحدَّثُ عن أيِّ انتهاكٍ أو عنفٍ يواجهه، تُعلِّمُهُ كيف يكشفُه، كيف يرفضُه... هناك لجانٌ متخصِّصةٌ للدفاع عن ضحايا زنى المحارم، لِشَدِّ الانتباه العام لمآسيهم، لِكَسْرِ حاجزِ الخوف الجمعيِّ من تناولِ موضوع الاغتصاب والانتهاك الجنسي بكلِّ أنواعه، لِعدم تناسيهِ المتعمَّدِ أو غيرِ المتعمَّد!... الباحثون ووسائل الإعلام يناقشون هذا الموضوع، يُسلِّطون عليه الضوءَ بين الحين والحين. زنى المحارم جريمةٌ كبيرةٌ يُدِينُها القانون. ثمّة آباءٌ يقبعون في السجون بسببها بعد محاكمات علنيّة!... ومع ذلك، الأرقامُ المكشوفةُ هناك لا تُصدَّق! كم هم زناةُ المحارم الذين

مارسوه ويمارسونه في أوروبا! كم هم القساوسة الذين انتهكوا وينتهكون أطفالاً صغاراً! كم هم المجرمون والمعتوهون الذين يمارسون اغتصاب الأطفال!... أرقامٌ غير معقولة، هائلة! لكنها مكشوفةٌ هناك تحت الشمس، تحت المجهر، دون خجلٍ أو غش، تخضعُ لِلدراسة، للمقارنات والإحصائيات الدائمة!...

توقَّفَتْ نعيم ثوانٍ عن الحديث. نظرَتْ لِتلِفونها النقَّال الذي استقبل رسالةً خطِّية. قرأَتْها بِسرعة دون أن تردَّ عليها. لمحتُ فوضى وضوضاءَ مجاورةً في بهوِ الفندق بعد وصولِ بقيّةِ أفراد القبائل، المختلِفين على العقاراتِ الأرضية... واصلَتْ نعيمُ دون أن ينقطع حبلُ حديثها:

– في مجتمعاتِنا حجمُ الكارثةِ أكبرُ وأهولُ وأكثرُ تعقيداً وتنوُّعاً بالضرورة: الكبتُ، الحرمانُ، الجوعُ، الفقرُ، حاجزُ الصمت والعار، التستُّرُ والاحتماءُ بالدين... هم منبع كلِّ الرذائل والفواحش!... الطفلةُ أنثى بَخِيسةُ الثمن أيضاً في مجتمعاتنا، لا قيمة لها، كانت قبل 15 قرن فقط تُوْأَدُ عند ميلادِها تحت التراب، ثمَّ أضْحَتْ اليوم تُوأدُ عند ميلادِها... فوق التراب!

لهذهِ الأسباب ثمَّةَ أعدادٌ كبيرةٌ من الأطفال الذين تُنْتَهَكُ محارمُهم! ثمَّةَ أطفالٌ من عائلاتٍ فقيرة لا يجدون عملاً هَيِّناً في مقصفٍ أو سوقٍ أو دُكَّان إلا بشرطِ أن يقبلوا الانتهاكَ الجنسيَّ الدائم من أربابِ أعمالهم!... ثَمَّةَ حالاتٌ إضافيةٌ خاصةٌ جدّاً شديدةُ التنوُّع في مجتمعِنا اليمنيِّ الفقيرِ البائس: الزواجُ السياحيّ (الذي صَار كما قال أحدهم: «وسيلةً لإدخال العملة الصعبة في اليمن!»)؛ دعارةُ الأطفال؛ الزواج المبكِّر للأطفال؛ انتهاكُ المحارم من بعض الأقارب في بعض العائلات ذات الآباء المهاجرين؛ انتهاك أطفال العائلات الفقيرة، مثل أطفالِ القرى

النائية على الحدود مع بعض الدُّول المجاورة، أثناء إرسالِهم اليوميِّ للعملِ خارج تلك الحدود... ثمّة حالاتٌ أخرى كثيرة، لكن ليس لدينا باحثون اجتماعيون متفرِّغون لِرصْدِها، لِدراستها، لِتحليلها...

رشفةٌ أخرى من الليمون. تأوَّهاتٌ قلبيّةٌ خافتة التقطتُها بِسِرِّيَّة. نعيم تواصلُ ردَّها:

- أرقامُ الذين تهدَّمَتْ حياتُهم إلى الأبد من كلِّ هذه الانتهاكات يُقطِّعُ القلب! لا يظهر على السطح منها إلا عددٌ يسيرٌ جدّاً ينكشفُ لِوحْدِه: حالةُ من حمِلَتْ وأنجبتْ من أحد محارمِها وسَمِعَتْ عنها «لجانُ محاربةِ العنف الأسريّ وحماية الطفل»، دون أن تتجرأ هذه اللجان بفضح ذلك... لكن «المخفيَّ أعظم» في واقعِنا المنافق! المخفيُّ أهوَلُ وأشدُّ انتشاراً بشكل مريع! أيُّ فتاةٍ في مجتمعاتنا الإسلامية، عدا تلك التي تجدُّ نفسَها حبلى أمام الملأ من زاني المحارم، تستطيعُ أن تتجرأ الحديث عن انتهاكٍ أَبَويٍّ، عن انتهاك أُسَريّ، عن اغتصاب؟ من تستطيع الجرأةَ على الحديث فقط عن أبسط معاناتها!... الأبُ هنا، الأخُ أيضاً، الرجلُ بشكلٍ عام... هو الكلُّ في الكل! يحميهِ الشرعُ والقرآنُ والعاداتُ والتقاليد... أما هي فَمُدَانَةٌ بالصمت والقبول! هي العار! هي الفتنة! هي ناقصةُ العقلِ والدين! هي سلعةٌ لها ثمنٌ تُشتَرَى به عند الزواج! يرميها الزوجُ كَملايةٍ قديمةٍ عندما يريد. يشتري بجانبها مِلايةً أخرى أصغر عُمراً عندما يريد. يحقُّ له قانونياً أن يشتري أربع ملايات!... هي لا يحميها أيُّ قانون! تصوَّرْ: مازالت تمارسُ في هذا البلد جريمةُ «خِتانِ الفتيات»! ثمَّةَ كثيراتٌ يتمُّ انتزاعُ بظورهن، منذ الولادة أو بعد الزواج أحياناً!...

ثمَّ أرْدَفَتْ بِنَظراتٍ مُكْتئبة:

- انظرْ حولك: كلُّ هؤلاء الأطفال الذين يبحثونَ في الطرقات

عن لقمةِ العيش، كلُّ هؤلاء الذينِ يعملون لكسبِ قوتِهم منذ الخامسة أو السابعة من العُمر، كلُّ هؤلاء الذين يتسكَّعون في الشوارعِ صارخين: «أنا جائع!»... من يحميهم؟ أليسوا عُرْضةً سهلةً جدّاً للنهب، للاستغلال، للدعارة، للاغتصاب؟...

نظراتُ نعيم تواصلُ انسكابَها الكثيف على مركز المنضدة. أحدِّقُ في وجهِها بِحُريَّةٍ أكبر، بنهم أكبر، بألم أكبر، بتركيزٍ لا نهائي، بِرعْشةٍ داخلية... أرتجفُ، كأنَّ إلهامٌ أمامي الآن! همّا يتشاطران نفسَ الجمالِ تماماً، نفسَ تقاسيم ونبراتِ ودموعِ الألم، نفسَ نوعيَّةِ الحملقةِ والتركيز عند الحديثِ في مواضيع معقَّدةٍ شائكة... تَمسَحُ نعيمُ خيطاً آخرَ من الدموع... نشيجٌ مؤلم!... قبل أن تواصل:

- سؤالك مُلغَّمٌ يُخفي قنبلةً موقوتة... لا أدري إن كنتَ تعرف أنه من الأفضل أن يفترسَكَ «طاهش» [19] على أن ينتهكَ محارمَك أب! في الحالة الأولى ثمَّةَ وحشيَّةٌ فقط. في الثانية تجتمعُ كلُّ الرذائل في نفس الوقت: أقصى الوحشيَّة والغدر والجبن والسفالة والبشاعة... في الحالة الثانية كلُّ مقاييس الحياة وقوانينها الرئيسة تنقلبُ رأساً على عقب: الملاك الحارس، الذي اختارَهُ القَدَرُ لِيحميك من مصاعب الحياةِ ومطبّاتِها وأنوائها، الذي اختارهُ القدَرُ لِيطوفَ بك على أجنحتِهِ في ملكوت هذه الحياةِ التي جئتَ تقرَعُ أبوابَها لأوَّل مرة، الملاكُ الحارس الذي أختارَهُ تحالفُ البيولوجيا والجغرافيا والتاريخ لِيوجِّهكَ ويُعلِّمكَ، الملاكُ الحارس الذي يَلزَمُكَ طاعتَه والاحتذاءَ به، والذي يَلْزَمُهُ أن يعتبرَ طفولتَك مشروعَ حياتهِ الأكبر، قُدسَ أقداسِ مشاريع حياته... ذلك الملاكُ الحارس ليس أكثر من ثعبانٍ يلتوي على رَقبتكَ وأنت في المهد، يستغلُّ طاعتَكَ وحُبَّكَ وولاءَكَ له، لِيعثو في جسدِكَ الضعيف،

لِينهبَ جسدكَ الطاهرَ الذي لا يمتلكُ لِمواجهةِ صفعات الحياة ومفاجآتها غير ابتسامتِهِ الملائكية الساذجة!... ثمَّةَ مؤامرةٌ كونيّةٌ غيرُ متوازنة عندما يُخفي ملاكُكَ الحارس تحت قميصهِ وحشاً يلتهمُ عصفوراً جريحاً مقصوصَ الجناحين...

تنفَّسَتْ نعيمُ بِعُمق. فحصَتْ وجهي بنظرةٍ ثاقبة، قبل أن تواصل:

- لن أدور طويلاً حول زير المستنقعات الذي يختبئُ فيه سرُّنا الأكبر، إلهام وأنا! سأفْقُسُهُ الآن أمامك!... ساعدَني خالد، خلال سنين طويلة من النقاش والصبر، على التحرر من الرعب من فتح هذا الموضوع، على كشفِه، على الحديثِ عنه بجرأة... لَوْلَاهُ لاستحالَ اليوم مجرَّدُ التطرُّقِ لِهذا الموضوع!...

توقَّفَتْ نعيمُ بضعة ثوان. حدَّقَتْ في نفس البؤرة في المنضدة بعينين زائغتين هذه المرَّة، أقلّ تماسكاً من قبل، أكثر انفلاشاً واستسلاماً وحسرة!... لعلَّها بدأَتْ تشعر بالغثيان من الترنُّح في هذه المياهِ الآسنة. أرهقَها الحديثُ معنويّاً دون شك. لا تتمَنى أن تخوض فيه وقتاً أطول. أفهمُها تماماً. أضافت وهي تحاول استجماع كلِّ قواها:

- الشيخُ انتهكَ محارمَ إلهام ومحارمي منذ طفولتنا، منذ سنوات المهد!... والدُنا هو الرِّجسُ الأكبر!...

استقامَ شعرُ رأسي من هولِ ما سمعتُه! كنتُ أظنُّ أن نعيم وإلهام عاشتا في الجحيم بسبب قصَّة الألعاب الناريّة، وهاأنذا أكتشف أن ذلك الجحيمَ حفيدٌ لِجحيم بدأ منذ فجر طفولتهما ودام سنين طويلة!... هاأنذا أدركُ بِقلبٍ مطعون في صميمِه أن كلَّ سلالات الاغتصاب الجنسيّ الإنساني عَشَّشَ بِجَسَدَي إلهام ونعيم الطاهرتين! كلَّ ما استطاع هذا الواقعُ الزائفُ صناعتَهُ من

بشاعةٍ وإجرام ومُحال وفظائع تهاوى فوق رأسَيْهما القُدسيِّين!...

عرفتُ أيضاً في هذه اللحظة بالذات عظمةَ خالد! يا لهُ من إنسانٍ نادرٍ حقّاً! كيف استطاع أن يُحْيي هذه المغتصبةَ المُدمَّرةَ وهي رميم، أن يحوِّلَها نبراساً، إنساناً آخر؟... كيف استطاع أن يُهدِّمَ فيها حاجز الهلع والرُّعب، أن يُعيدَ بناءَها من جديد؟... هاهي نفسُها تُحدِّثني عَن الخوف!... هو أعتى العوائق أمام ضحايا هذه الجرائم لاسيّما عندما تَنْكَبُّ عليهم ويلاتُها وأدمغتَهُم لم تُكمِلْ نموَّها البيولوجي بعد! لذلك يرضعونَ الخوفَ من الغول منذ الطفولة، ينمو معهم ذلك الخوف، يكبرُ يوماً بعد يوم، يجتاحُهم أكثر فأكثر، يصيرُ جزءاً عضويّاً من تركيبهم النفسيّ والذهنيّ، يصيرُ قَدَرَهم!... الشعورُ بالعار أيضاً واحتقارُ النفس هو الحاجزُ المرعب لكلِّ هؤلاء الضحايا، كما شَرَحَتْ لي نعيم...

توقَّفتْ قليلاً قبل أن تُضيف بنظراتٍ تتخبَّطُ في أدغال مُظلمة:

- عندما يُنتَهكون في فجر طفولتهم يظنون أن ما يحصلُ لهم شيءٌ اعتيادي! يتهيأ لهم أن هذه طبيعةُ الحياةِ، هذه عاداتُها وتقاليدُها!... كيف لهم في ذلك السنّ أن يُدركوا أن خطواتهم الأولى، على عتَبةِ هذه الحياة التي حَطُّوا في رحابها على التو، تُهرولُ بهم في هاوية؟...

أخفَتْ نعيمُ غثيانَها ومراراتِها بصعُوبَة. تاهت عيناها في فراغٍ سحيق... التَقَطْتُ نبراتِها بِجُهد وهي تُتَمْتِمُ جراحاتٍ وعذاباتٍ تخرجُ من خرابات أزمنةٍ غابرة:

- ثمَّ ذات يوم يَرَوْنَ الغولَ قلقاً وهو يسمعُ صوتاً قريباً من الباب! يُخفي ملابسه الداخلية بهلع! يخفي ملابسهن الداخلية بهلع! تكتشفُ أدمغتُهم الصغيرةُ حينذاك أن ثمّة شيئاً غيرَ طبيعي!

الغولُ لا يمارسُ فِعْلَهُ تحت الشمس! هو حذرٌ، خائف! يطلب منهنَّ الكتمان، يُهدِّدُهن بالتعذيب والقتل إذا انكشف السرّ!...

ينمو في هؤلاء الضحايا الحسُّ منذ الطفولة بأنهم ليسوا مثل الآخرين، قُدِّرَ لهم أن يترعرعوا في أوكار السرِّ والكذب، أن يُجَبِّلُوا أنفسَهم على الكتمان، أن يَحْيَوا مُستَلَبين دوماً لِسببٍ يجهلونه، أن تتقاذفَهُم التناقضات: ضرورة الطاعة، رغبة الرفض... يكبرُ فيهم اليقينُ بأنَّهم غيرُ طبيعيين بالتأكيد، مثلُ المعوقين منذ الولادة، يُعاقَبُون لِذنْبٍ ارتكبوه يوماً ما (يومَ ولادتِهم؟ قبل ولادتِهم؟ في زمنٍ قبل الزمن؟...)

نظَرتْ نعيم نحوي ثانيةً وكأنَّها تراقب كيف يتقاذفُ بي إعصارُ كلماتِها، قبل أن تواصل:

- يسكنُهم أخيراً شعورٌ واحدٌ ثابت ينصُبُ وتَدَيهِ في قُطْبَي المخ: لم يُخلَقوا هكذا عُرضةً للانتهاك منذ المهد إلا لِسببٍ دفين!... يحملون هذا الشعور الانكساري القاتل كَمَيْسَم في الجبين، كشوكةٍ في الجوف، كدبُّوسٍ في الكَبِد، كصَديدٍ في المعدة... يكرهون ويحتقرون أنفسهم على الدوام! يشعرون بالقذارة! يشعرون بالذنب فيما هم المجني عليهم مع ذلك! يالَهَولِ مفارقةِ حياتِهم وكارِثَتِها! كلُّ شيءٍ مقلوبٌ فيها رأساً على عقب!... ينمو فيهم الإحساسُ الانسحاقيُّ بالنقص، بالخوف، بالعار، بالذنب، بكراهية الذات... يغدو «طبيعتهم الثانية»! (أثارني هذا المصطلح الذي أسمعهُ لأوَّل مرّة من ثغرِ التوْأمِ الرُّوحِيِّ لإلهام)...

كُلِّي آذانٌ مشدودةٌ لِوجهِ نعيم، لِتقاسيمِهِ المنقبِضة... أتابعُ كلماتِها وهي تخوضُ مواضيعَ عنيفةً جارحة، تتخبَّطُ، تقاومُ، تُبْحِر... أحدِّقُ بِتمعُّنٍ في عينيها الغائرتين في عالم آخر، في نظراتِها الهاربة... تنفَّسَتْ قليلاً، أخذَتْ رشفةً من الليمون...

عادت لمركزِ سؤالي السابق:
- هل تفهم الآن لماذا قالت لك إلهام إنها لا تتذكَّرُ شيئاً من طفولتها!... ذاكرةُ طفولتِها مثلُ ذاكرةِ طفولتي، مثلُ ذاكرةِ طفولة من انْتُهِكَتْ محارمُهم، يملؤه شيءٌ واحد: الغول، السرّ الأكبر! كلُّ ما عدا ذلك منبوذٌ خارج الذاكرة!...

حاوَلَتْ أن تكون أكثر وضوحاً، أضافَتْ بِضميرِ المخاطب:
- هكذا تُحرَمُ من ذاكرةِ طفولتك، تُحرَم من كلِّ طفولتك، لأن كلَّ ساعاتها، كلَّ لحظات تفكيرك وأنت تختلي بنَفْسِكَ أو تواجهُ العالم، كلَّ سنواتِ طفولتِكَ تدورُ حولَ مركزِ ثقلِ حياتك: الغول، السرّ الأكبر!... ذلك مركزُ حركةِ دماغك! رعبُك اليوميّ! عذابُك الداخليُّ الدائم! لا تفكِّرُ في سريرتك إلا فيهما. لا تتوقَّفُ عن ذلك لحظةً واحدة! كلُّ ما عداهما ينمحي لِوحدِه من ذاكرتك، لا يجدُ له مكاناً شاغراً فيها... اعلمْ أنه إذا كان هناك جرحٌ واحدٌ يتموضعُ أبداً في مركز الحياة، يستحيلُ أن يندملَ حتى نهاية العُمر فهو جرحُ اغتصابِ المحارم! إذا كان هناك تدميرٌ مُطْلَقٌ للنفس البشرية فهو هذا التدمير!...

إلهي، كيف استطاع خالد أن يُخرِجَ نعيم من الخراب الذي يواجهُ كلَّ ضحايا الانتهاكِ الجسديِّ في الطفولة؟... خرابُ الخوف، خرابُ الطفولة الممحِيَّة، خرابُ الشعورِ بالعار، خرابُ غيبوبةِ الذاكرة، خرابُ الدماغِ الذي يفقدُ المقدرةَ على الحياة بشكلٍ طبيعي!... ضحايا كهؤلاء يعيشون غالباً في اكتئاب نفسيٍّ حادٍّ دائم. الانتحارُ أو الدعارةُ مصيرُ بعضِهم. يُنهي كثيرٌ منهم حياتَه مُدمَّراً نفسيّاً تماماً، مخبولاً عقليّاً، مستسلماً بلا روح، محروماً من أيِّ حياةٍ جنسيَّةٍ حقيقية (بدأتُ الآن فقط أفهمُ

إلهام، أوجاعَها العميقة أثناء الجِمَاع، نفورَها من أنواع معيَّنةٍ من العشق، زُهْدَها في نظريَّةِ الشهقة!...). يَضحون هكذا محرومين من أيِّ حياةٍ طبيعيةٍ كاملة!...

إلهي، كيف استطاع خالدُ ذلك!... لم يستطع بالتأكيد محوَ ذكريات جراح طفولتِها: ثمَّةَ جِراحٌ لا تندمل حتى نهاية العُمر! لم يستطعْ بالتأكيد رفعَ ثُقْلِ وطأةِ الجريمة على أحاسيسها الدفينة: ثمَّةَ أثقالٌ تجثو على الكاهل إلى الأبد!... لكن مجرَّدَ أن نعيم تستطيعُ الحديثَ عن جراحِها بهذا الشكل، مجرَّدَ تقييمها لِطفولَتها بهذه الجرأة، مجرَّدَ حديثِها عن المجرم، محاكمتِهِ غيابيّاً ووضعِهِ في محلِّهِ الحقيقي دون خوف... يكشفُ أنها تقاومُ لعنةَ القدر، تنتصرُ على الموت... لعلَّها بالتأكيد أضاعتْ طفولتَها إلى الأبد، لكنَّها بفضلِ خالد تواصلُ اليوم الحياةَ بشموخ! تحيى عُمْراً جديداً تخفقُ فيهِ بلُغةٍ جديدة، تمارسُ حياتَها بُحُرِّية، بطاقاتٍ دافقة، بلباسٍ مدنيّ، برَفْضٍ صادقٍ لكلِّ ما يتصالحُ مع بؤسِ وظلم حياةِ نساءِ هذا البلد، لكلِّ ما يتعاشرُ مع واقعٍ يرضى لِنفسهِ أن يكون مسرحاً لاحتفالِ فضِّ بكارة بالألعاب النّاريّة...

تذكَّرتُ عبارةً مُكثَّفة سمعْتُها لا أدري أين: «يلزمُ أن تَخْرُجَ من مستنقعٍ آسن لِتسيلَ نوافير الفجرِ والحريّةِ من أطراف أصابعك!...»

تذكَّرتُ عبارةً مرادفة، أقلّ أو أكثر تعبيرية، لا أدري أين سمعتُها أيضاً: «قبل أن تهبطَ من السماء يلزمُ أن تخرجَ أوَّلاً من قاع الخراب!... »

أدركتُ من شرح نعيم كم كان الغولُ نموذجاً لأقصى البشاعة! لم يكتف بكلِّ تلك الطفلات اللواتي تزوجَّهُنَّ «على سنَّةِ

اللّه ورسوله»! لم يكفِهِ ذلك القصرُ في رأس الجبل الذي كانت تقبعُ فيه زوجاتُه القديمات والجديدات... صار أيضاً غير قادر على أن يُميِّزَ بين زوجاته الأكثر فأكثر طفولة، وأسرابِ بناتِهِ اللواتي لا يعرف حتّى أسماءهن! كلهنَّ بالنسبة له أرحام خُلِقَتْ للاستلاب! كلُّ شيءٍ غنيمةٌ في نَظَرِه!... هل انتهكَ أخريات من الأخوات غير الشقيقات لِنعيم وإلهام؟ نعيم لا تمتلك الدليل، لكنها متأكدة من ذلك تقريباً!...

أخبرَتْني بصحَّة ما ورد في القصة القصيرة: «ألعاب ناريَّة لاحتفالِ فضِّ بكارة» (التي صوَّرَتْها وأرسلَتْها نعيمُ لإلهام) حول أن الشيخ لم يكن يتَذكَّرُ أسمَاء بناتِه! لم تكن تلك أحبولةٌ أدبيَّةٌ اخترَعَتْها كاتبةُ القصّة! كانت حقيقةً بديهية للجميع، كما أباحت لي نعيمُ نفسها!... عرفتُ من نعيم أن الشيخَ لا يهتمُّ فعلاً بتذكُّرِ أسماءِ بناتِه من قريب أو بعيد، لا تُهمُّهُ أحاسيسُهن وتطلُّعاتُهن ومعاناتُهن وصحَّتُهن من شقٍّ أو طرف... لا يتذكَّرُ أسماءَ زوجاتِهِ أيضاً، إلا المختارات منهن فقط، الأقرب إلى قلبه (إذا كان لنا أن نُسَمِّيَهُ قلباً)!

هكذا لم يعد الشيخ يُميِّزُ بين زوجاته وبناته، بين بناته وزوجاته!... إلا في شيء واحد: غشاء البكارة! لم يرد اغتصاب بكارةِ بناتِهِ حفاظاً على الشرف!... يَنْتَهكُهنَّ جنسيّاً كيفما يريد، لكنه يحافظُ على الشرف! اللّه أكبر! يالَهُ من شيخ جليل! ظلَّ مهتمّاً جدّاً، حريصاً جدّاً، على غشاءِ الشرف!... لذلكَ ثارتْ ثائرتُه يومَ اكتشافهِ الرسالةَ التي وصلَتْ لإلهام قبيل احتفال الألعاب النارية! ارتعدَ غضباً! كيف يمكنُ أن يحافظَ هو على ذلك الغشاء، ويلطَشَهُ آخر! يصونُ هو، حامي الحِمى، القلعةَ ويُسقِطُها دخيلٌ مندسٌّ دنيءٌ يطعنُ الشيخ من الخلف!... ياللغدرِ والخيانة! شمَّ الشيخُ رائحةَ الغدرِ حال وصول تلك الرسالة! كان مهووساً

دوماً بتوجُّس واستشرافِ الغدر والمؤامرة في كلِّ حدث، في كلِّ نظرة، في كلِّ عبارة... اجتاحتْهُ حينذاك الحمية، الغيرة، النخوة، الكرامة، الزاجر الديني... التهبت فيه نيران الإباء والحرص على صفاء السريرة، نقاءِ شرفِ العائلة، شرفِ القبيلة، شرف العقيدة الدينيّة... لذلك أمر بتزويج إلهام حالاً ليتأكد أنها صانت الشرف!... إلى آخر قصة احتفال الألعاب النارية التي أطلَقَها فرحاً بصيانة الشرف!...

آه، هذا الشيخُ ونقاؤه وشَرَفُه!...

سألتُ نعيم: ووالدتكما، أين هي من كلِّ ذلك، لماذا لم تحمِكما من الغول؟...

كان ردُّها قويّاً ومفاجئاً، تساقطت إثره قناعاتي وترسيماتي المبسَّطة جدّاً حول مفهوم الأمِّ والأسرة:

- لعلّ أُمَّنا كانت تغمضُ عينيها بوعي أو بلا وعي، إن لم تكن متواطئة هي نفسها!... في بيئة انتهاكِ المحارم يختلفُ منطقُ العلاقات الأسريَّة! لا تحاولْ في تلك البيئة أن تسأل أسئلةً تستخدمُ فيها المنطقَ الطبيعي الذي يحكمُ علاقاتٍ أُسَريَّةً طبيعية... أنت هنا في منطقٍ يخرجُ عن المنطق! كلُّ شيءٍ زائفٌ من أساسه! كلُّ العلاقاتِ الطبيعية الغريزية مُحرَّفةٌ هنا، معوَجَّة، معكوسةٌ، مدمَّرة تماماً!... في عائلة الرجسِ الأكبر يسودُ منطقُ الخراب، لا غير!...

توقَّفَتْ بُرهةً عن الحديث. ارتشَفَتْ ما تبقّى من كأس الليمون. بدتْ على تقاسيمِها رغبةٌ دفينةٌ بتصفيةِ حساب ما خارج الزمن! في نظراتِها حقدٌ مكبوتٌ غائر لا يتناغمُ مع رقَّةِ وجهِها وملائكيَّته... واصلَتْ:

- مثلُ كلِّ زوجات الشيخ، كان لأُمِّنا غرفتان في قصر الجبل.

(بعد أحداث أكتوبر 1977، ارتفع مقام الشيخ عسكريّاً وسياسيّاً وماليّاً، علَتْ سطوتهُ وجبروتُهُ ونفوذُه، وصار لكلِّ زوجةٍ من زوجاتِهِ قصرٌ شخصيٌّ في حيٍّ مُجَمَّع قصورِهِ الخاص بصنعاء!...)

توقّفَتْ مرَّةً أخرى عن الحديث. لَجَأَتْ لِمنديلِها من جديد. تحشرجَ صوتُها. كلُّ تقاسيم وجهِها مشدودةٌ متوتِّرة، عيناها مُركّزتان بانقباض نحو نفس البؤرَةِ في المنضدة... واصلَتْ بصوتٍ مُضطرب:

أستغربُ كثيراً، وأنا أستعيدُ شريطَ أيام طفولتي المرعبة، لماذا كانت أمُّنا تُبقِي إحدانا بجانِبِها وهي تعرفُ أن الشيخَ في الغرفة الأخرى مع الأخت الثانية!... لا تسمح للأولى بالخروج والذهاب إلى الغرفةِ الثانية قبل أن يغادرها الغول!... كانت ترهبُ الغولَ بالتأكيد! تخافُ أن يرميها في الشارع! كانت مُستعدَّة أن تعمل ما يريدُ لتظلَّ في عصمته، ليكونَ لها سقفٌ في قصره، لِتضغَطَ عليه بِسِرٍّ ما لا يريدُ تَفَشِّيه!... ليس ثمّةَ حدودٌ لِضُعفِ النفس البشرية!... قد يكون صعباً الحديثُ عن الأمِّ بهذه الطريقة، لكن انظر حولك: كم هم اليوم الآباء والأمهات، في بعض بيوت الفقراء والمنبوذين من المجتمع، الذين يقولون لِأطفالهم الصغار من الصباح الباكر: «اخرج الآن! عدْ لي في المساء بِألْف ريال! اكْسبْها بأيِّ طريقة، لكن اكسبها يوميّاً!...»

قد يكونَ صعباً الحديث عن الأُمِّ بهذه الطريقة، لكن، كما تلاحظ، بفضل خالد رتَّبْتُ أشياءَ كثيرة في دماغي! نظَّفْتُ حجراته تماماً الآن!... حاولتُ، خلال سنين طويلة قبل ذلك، إقناعَ نفسي أن أمَّنا كانت تجهل ما يحدث... ثمَّ، ما إن بدأْتُ أتحرَّرُ من وطأةِ الخوفِ أمام مجرَّدِ ذكرِ اِسم الغول، إلا وأنا أُسلِّمُ بِهولِ سلوكِ زوجتِهِ أيضاً!... لم أصلْ إلى كلِّ ما قُلتُهُ هنا من مشاعر وأحكامٍ نهائية إلا بعدَ كفاحٍ ومكابدات نفسيّة طويلة مُضنية...

في كلِّ الأحوال توقَّفْتُ وخالد، منذ منتصف الثمانينات، عن رؤيتهما، أبي وأمي، أو الشيخ وزوجتَه كما أُفضِّلُ تسميتَهما. بفضل خالد، تعلَّمْتُ منذ تلك السنوات رفضَ مجرَّدِ رؤيتِهما. لا أشعرُ بالندم على ذلك، بالعكس! كان مجرَّدُ رؤيتهما يثير فيَّ أحاسيس سخطٍ وغثيان!... ثمَّ توفِّتْ والدتُنا (رحمها الله!) بعد سفرِ إلهام بثلاث سنوات... كانت مصابةً بمرضٍ يُشبِهُ الزايمر منذ بداية الثمانينات تقريباً...

أردفَتْ نعيم بعباراتٍ استسلامية، رافَقَتْها حركةٌ في اليد والعينين تُعَبِّرُ عن اليأس:

- ذلك كلُّ ما نستطيع عملَهُ ضدَّ الشيخ! لأنهُ صار اليوم من أكبر رموز السلطة والقبيلة والمال! لهُ اليومُ حُرَّاس كثيرون. ولِحُرَّاسِهِ حُرَّاس. ولِحُرَّاس حُرَّاسِهِ حُرَّاسٌ أيضاً!...

أخرجَتْ قنِّينةَ ماء «شملان» من حقيبتِها السوداء، شربَتْ منها رشفةً واحدة... واصلَتْ:

- عندما أفضيتُ بما حصلَ لِخالد، في منتصف الثمانينات، فكَّر أوَّلاً بإنقاذِ إلهام وتهريبِها لإبعادِها عن كلِّ ما يُذكِّرُها أو يربِطُها بعذابات طفولتها... كان الحلُّ الأوحد رشوةَ زوجِها لِشراءِ طلاقِها أوَّلاً، قبل تهريبِها لِدورةٍ لغويَّة في فرنسا!...

انتابتني غِيْرةٌ عارمة! شعرتُ بِصُغْري أمام هذا الرائع العظيم حقّاً: خالد، الذي أدينُ لهُ ولِنعيم بإنقاذ إلهام... سألْتُ نعيم:

- لماذا أفضيتِ أنتِ بكلِّ شيءٍ لِخالد، ولم تتحدَّثْ معي إلهامُ عن شيءٍ مما حصل لها؟...

ردَّتْ نعيمُ بِوَجهٍ يسترجِعُ ضياءَه وهدوءَ قسماتِه وبِنبراتٍ ينقشعُ توتُّرُها أكثر فأكثر:

- إلهام تُكِنُّ لك نفسَ ما أكِنُّه لخالد! لولا ذلك لما أفضيتُ لك بكلِّ هذه الأسرار الدفينة من أوَّل ساعة!... غير أن تأخُّرَها عن الإفضاء هو أهمُّ أسبابِ تدهورِ حياتِها في الفترة الأخيرة... في حالتي أيضاً كان مستحيلاً أن أُفضي لِخالد بما حصل! لم أتمكَّن ذلك قبل حِمْلِي بطفلِنا الأوَّل: باسل!... لم أكن قادرةً قبل ذلك، مثلها تماماً، ببوح سِرٍّ كهذا قد يُدمِّرُ حياةَ خالد! ربما كان سيُفسِّرُهُ بطريقةٍ أخرى، ربما كان سيُغيِّرُ طريقتَهُ في رؤيتي والتعامل معي بشكلٍ أو بآخر! ربما كان سيهربُ مني ويتركُني في العراءِ إلى الأبد...

كنَّا، إلهام وأنا، نشعرُ بسعادةٍ معكما لم نحلم بِنُتْفَةٍ صغيرةٍ منها قبل ذلك. «كأنَّ القدرَ يريدُ أن يعتذرَ لنا على كلِّ جرائمِهِ وعذاباتِه»، كما كنّا نقولُ، إلهام وأنا، بالتلفون أكثر من مرّة!... لا لِشيءٍ في الدنيا كُنَّا مستعدَّتَين لإهدارِ هذه السعادة! كنّا نخافُ تبديدَها أو كسرَ إيقاعها بأيِّ شكلٍ من الأشكال! كُنَّا نرهبُ طعنَكما في الظَّهرِ بِقصَّةٍ عنيفةٍ كهذه قد تكونُ لها نتيجةٌ وخيمةٌ عليكما وعلينا... بِسبَبِ حُبِّنا لكما لم نرغبْ يوماً تعكيرَ وتنكيدَ حياتيكما بهذا الوِزْرِ الذي سيُثقِلُكما حتى آخر العُمر، سيؤثر في أقلّ الأحوال على براءة نظرتكما للحياة وسعادتكما اليوميّة، سيزرعُ فيكما حقداً ما، مراراتٍ كثيرة!... نحن لا نثقُ بالقَدَرِ كثيراً، إلهامُ وأنا! خاننا القدَرُ منذ طفولتنا! من يدري: ربما كنتما بعد البوحِ بالسرّ سوف تتركاننا فعلاً، أو ربما كنتما سوف تُغيِّران رؤيتَكما لنا بشكلٍ أو بآخر!...

قطَّبتْ حاجبيها، غضَّنَتْ عينيها، ثمَّ أضافت بعد تفكيرٍ ونهدةٍ خفيفة:

- غير أن سنوات الصمت ليست هي الحل! في كلِّ سنوات الصمتِ

تتعلَّمُ السكوتَ على كلِّ شيء. تتعوَّدُ إظهارَ وجهٍ آخر في سبيل إخفاءِ الحقيقة! تتعلَّمُ الكذبَ الدائم... تتعلَّمُ أن تُغلِقَ عينيك وأذنيك على كلِّ ما يدور حولك... تغدو حياتُك غيرَ شفافة، مملوءةً بالأسرار... تعيشُ بِقناعٍ يُخفي جراحَ طفولتك، يُخفي آلامَك وورطاتك ومعاناتك... كلُّ همِّكَ أن لا يكتشفَ معشوقُك هذه الآلام، أن لا تتكدَّرَ حياتُه... هدفُكَ الأوحد هو أن تستمر هذه السعادة التي لم تحلم بها يوماً ما!... ما عداها لا أهميّة له: الأرقام، الديون، مشاكل الحياة اليومية... لذلك بالتأكيد استطاعت إلهامُ إخفاءَ ورطتِها المالية عنك وتَرَكَتْها تتفاقم، تنزفُ كلَّ تلك السنين، قبل أن تتطور إلى كارثةٍ تعرفُها أنت أكثر مني... كانت تلك الورطةُ المالية، في لاوعي إلهامَ، ثانويةً جدّاً بالمقارنةِ بالغولِ، بالسرِّ الأكبر الذي كان يعتملُ فيها ويُهيمن على أحاسيسها، والذي لم تعرفْ كيف تُفضيهِ أمامك... لم تعرف إلهام كيف تنجو من نزيفِ تلك الورطة ولم تتجرأ مصارحتَك بها... كانت تنتظرُ الطفلَ مثلي لِتتجرأ البوحَ لك بِكلِّ ما يدور في أعماقِها!... تنتظرُ الحِمْلَ أوَّلاً قبل مصارحتِكَ بِكُلِّ شيء... آه، كم كان انتظاركما لِذلك الطفلِ الذي لم يأتِ بعد طويلاً جدّاً!...

توقَّفتْ نعيمُ عن السردِ لحظاتٍ قليلة. نظرتْ نحوي وكأنَّها تعتذرُ لأنَّها مَسَّتْ قعرَ جُرْحٍ ناكئ وهي تتحدَّثُ عن طفلِنا الغائب. كُنتُ أرتِّلُ في قرارة نَفْسي دعاءً غامضاً، صلواتٍ مُبْهَمة...

رشفةٌ أخرى من ماء القنِّينة. واصلتْ:

- غير أن استمرار سنوات الصمت كارثةٌ كما حصل في حياتكما!... ما اختلف في حياتي بالمقارنة بإلهام بدأ حينما

شعرتُ بأني حامل في الأشهر الأولى من 1985. انتابَتْني لأوَّلِ مرَّةٍ مشاعرٌ غيرُ أليفة. خِفْتُ أن أجني على الطفلِ بشيءٍ ما، خشيتُ أن يعاني من عذاباتي، أن تصلهُ شظاياها بشكلٍ أو بآخر! أردْتُ أن تنكتبَ إطلالَتُهُ في صفحةٍ جديدة من حياتي، أن يشعرَ بالسعادة الخالصة... أيقنتُ أيضاً أن خالد لن يتخلَّ عني بعد الآن! ربما كان سيعاضدني بالتأكيد حتّى وإن لم أكن حُبلى، لكنِّي كما قلتُ لك قبل قليل لم أكن أثقُ بالقَدَر، اشعرُ أنه يكيد لي ألف كيد منذ نعومةِ أصابعي...

واصلتْ:

- بدء فترة الحمل شحذَتْني بشجاعةٍ لا حدَّ لها!... شعرتُ أنه من أجل هذا الطفل على الأقل يلزمُني أن أتقياَ السرّ. لذلك، ذات ليلةٍ عسيرةٍ من ليالي الحِمْل، داهمَني إحساسٌ مفاجئٌ لم يخطُرْ ببالي من قبل: شعرتُ ليلةَ ذاك أن عدمَ فضيحةِ ما فعلهُ الشيخ يعني قبولَه! يعني مباركتَهُ والخضوعَ له! يعني إنجابَ الطفل في مناخ فاسد... في تلك الليلةِ العَسِيرةِ جدّاً اقتلَعتُ من أقبيةِ جوانحيَ السرَّ الأكبرَ بكلِّ جذوره العميقة النتنة، بكلِّ أثقالِهِ الأزلية، ولَفظْتُهُ بضربةٍ واحدة أمام خالد!... اووووووف!

أضافتْ بعد نهدةٍ وابتسامةٍ خفيفة:

- لزمَتْ سنين طويلة، ساعدَني خالدُ خلالها كثيراً، قبل أن أبدأ حياةً طبيعية. قرأ كُتُباً كثيرة خلال تلك السنوات لِيستوعب كيف يشدُّ أزري، كيف يخرجني من قاع الخراب النفسيّ المُقنَّع الذي كنتُ أعيشه... شجَّعَني على إفراغ كلِّ ما في جوفي، على أن أفهمَ ما عِشتُهُ من منظور أن «الشيخَ ارتكب جريمةً شنيعةً يُفترَضُ أن يُحاكِمَهُ عليها أيُّ قانونٍ عادل»... لزم أن يُردِّدَ خالد هذه العبارة مليون مرَّة لِتلجَ رأسي المُغلق! لم يكُنْ سهلاً فهمُ ما

حصل، من زاوية هذه العبارة البديهية جدّاً مع ذلك، بسبب الخوفِ والخرابِ النفسيِّ المتجذِّرِ منذ الطفولة... بِفضلِ ذلك لم أعُدْ أخافُ الغولَ اليوم! كان ذلك أصعب ما استطاع خالد أن يهيئَني لِبلوغه!...

بدأتُ أستوعبُ أشياء كثيرةً جوهريّةً حاسمةً شديدةَ الأهميَّة بفضلِ شرحِ نعيم! انبلجَتْ ظلماتٌ كثيفةٌ في رأسي... بمِثْلِ هذه النورانيّةَ لم يَنْضَخَّ دماغي يوماً ما! لا أتذكَّرُ يوماً محاضرةً أو كتاباً أو موعظةً غسلَتْ دماغي بالضوء بهذا القَدرِ والمنوال... كانت عباراتُ نعيم نقيَّةً صادقةً عميقةً مُتَّسِقةً مُنَسَّقةً مُتسلسلة... أدركتُ بفضْلِها الكُنْهَ الغائرَ لأحداث وظواهر وتصرُّفات بَدَتْ لي قبل ذلك غامضةً مُستحيلةَ التفسير...

عاد إلى السطح من جديد السؤالُ الذي خطر ببالي عندما رأيتُ نعيم تنتظرُني في ركنٍ بهوِ الفندق. لم أتوانَ في توجيهه:

- كيف يمكنُ لِفتَاتَيْنِ عاشتا كلَّ هذا الخراب أن تكونا بهذه الروعة، بهذا السناء؟...

ابتسَمَتْ، ابتسَمَتْ أخيراً! ما أعذبَ ابتسامتها! ردَّت بنبراتٍ تُشبِهُ كثيراً نبرات صوتِ إلهام السيمفوني وبِنظراتٍ تَعبُرُها بين الحين والحين ظلالٌ بهيجة:

- لعلَّك تريدُ أن تفهم لماذا لم ننتحر مَثَلاً! لماذا لم ننهارَ جسديّاً أو نُصابَ بالجنون!... أنتما المتَّهَمَان حاليّاً في ذلك: أنت وخالد!... أنتما اثنان يمكنهما أن يُعطيا كثيراً من العشق والبهجة والسعادة واللذة لِفتاة! لستُ أدري إذا كانت هناك كلمةٌ في اللغة العربية يمكنُ استخدامها لِوصفِ رجلٍ من هذا القبيل! لعلَّ غيابَ كلمةٍ

كهذه يأتي لِعدم الحاجة الموضوعيّة لها، لعبثيَّتِها في هذا الواقع وخلوِّها منَ أيِّ مدلولٍ حيٍّ ملموس...

غير أن السببَ الأولَ، الذي سبَقَ معرفتَكما، هو نوعيَّةُ علاقتِنا، إلهامُ وأنا! نُحِبُّ بعضَنا بشكلٍ لا يُمكِنك أن تتصوَّره. نُفضي لِبعضِنا كلَّ شيء: تفاهاتنا، تفاصيلَ حياتِنا، آلامنا، آراءنا، تطلُّعاتنا، سعاداتنا الصغيرة!... نستشيرُ بعضَنا في كلِّ شيء، نحبُّ بعضَنا بشكلٍ لا حدَّ له! يكفي أن تشعرَ إحدانا بِأَلَم ما لِتسكبَ دموعها في حضنِ توأمِها الروحيّ، لترتمي فيهِ حتى الموت... بعد ليلةِ الألعاب النارية أضرَبَتْ إلهامُ عن الكلام مع أيِّ شخصٍ إلا معي بالطبع!... كنتُ أزورُها يوميّاً آنذاك. تتحدَّثُ معي، طويلاً جدّاً. لِسنينَ عديدة لم تُخاطبْ إلهام أحداً غيري!... كنّا أيضاً نرقصُ، نرقصُ، نرقص... نرقصُ في السرّ، نُغلِقُ البابَ ونرقصُ حتى الثمالة!... كان الرقصُ وسيلتَنا لمقاومة بعضِ آلام العالم، لِتبديدِها أيضاً! (تذكَّرْتُ كم ذُبْتُ أمام روعةِ وسحرِ ومِهَنيَّةِ رقصِ إلهام في وادي رم في ليلة رأس السنة الماضية!...) ثمَّ جئْتُما، أنتَ وخالد، إلى حياتينا من السماء!... بقيّةُ القصة تعرفها الآن كاملة...

لن أطيلَ الحديث! خالد يريدُ أن يَراك! اقترح عليّ، بعد أن أُكْمِلَ الاختلاءَ بك، أن نتَّصلَ به تلفونيّاً لِنلتقي معاً الآن... يلزمُ أن ترى ابْنَنا الكبيرَ باسل وابْنَتَنا الصغيرة... إلهام!

ردَّيتُ:

- ليس قبل آخر الأسئلة. ليس قبل أهمِّ الأسئلة التي جئتُ من أجلها، أو بالأحرى السؤالين الأوَّلين والأخيرين: كيف حال إلهام؟ وأين هي الآن؟...

- صِحَّتُها جيِّدة لكنها مضطربةٌ جدّاً! لم يمر هذان الشهران

والنصف منذ فراقكما بسهولةٍ بالنسبة لها... قَضَّتْ كلَّ ساعاتها في الأسابيع الماضية وهي تكتب! تكتبُ أشياء كثيرة لا أعرفها. واصلَتْ في الحقيقة كتابةَ روايتِها التي تبدأُ بهذه الفقرة:

«في الثانية من عُمري، أو ربّما الخامسة، لا أستطيعُ القطعَ في ذلك، بدأْتُ عذابَ جهنّم! لا أستطيعُ، بين هاتين السنتين، تحديدَ اللحظة التي انكسرتْ فيها حياتي إلى الأبد!... أسألكَ العُذر! لأنَّ هذه الكلمات، المخضَّبة بألم مُترَسِّب نتن، تصل إلى قلمي لوَحدِها، دون تفكير. تصعدُ دون اسْتئذان من قاعِ الذاكرةِ التي جاهدتُ طويلاً لِطمسها. هي وحدها أصدق مستهلٍّ لقصَّةِ حياتي!... وُلِدتُ في 14 أغسطس 1965 في قريةِ ثُلا...»

لعلَّكَ قرأتَ هذه الفقرة في مفكِّرةِ إلهام السريَّة! توقَّفَتْ إلهام عند نهاية هذه الفقرة كما لاحظتَ. لم تتجرأ أو تستطعْ حينها مواصلةَ كتابةِ روايتها التي أسمَتْها: «طائرُ الخراب»!... لعلّك اخترْتَ، أنت أيضاً مثل إلهام، نفس هذه الفقرة لِلغلاف الأخير في روايتك التي أسميتَها، أنت أيضاً: «طائرُ الخراب»!

هي الآن توشكُ على إنهاء روايتِها! ما كتَبَتْهُ في هذه الأسابيع مشحُونٌ بالعجائب والمفاجآت، كما استشفَّيتُ خلال بعض مكالماتنا التلفونية!... أشعرُ أن روايتها تتمحورُ حول قصَّةِ عشقِ خالد: عِشْقُكُما! الروايةُ أيضاً رحلةٌ نحو جذرِ الألم، نحو منبعِ الزيف... لن أقول أكثر من ذلك لأني لم أقرأها بعد!... لم تُكْمِلَها إلهامُ حتى هذه اللحظة. وصلَتْ حالياً، كما قالت لي في آخر تلفون قبل لحظاتٍ فقط، إلى صفحة 238 من روايتِها (نفس صفحتِكَ الحالية وأنت تكتبُ روايتَك: «طائرُ الخراب»!)... تكملُ إلهامُ حاليّاً، مثلكَ الآن تماماً، السطورَ الأخيرة من جزئها الرابع والأخير...

– وأين هي الآن؟، قاطعْتُها بأحرف اندلعَتْ من كلِّ خلايا جسدي

في نفس اللحظة...

قالت بهدوء:

- لا أعرف!...

ثمَّ أردَفتْ مُخفِيَةً ابتسامةً غامضة، عذبةً جدّاً:

- سأفضي لك سرّاً: لاحظتُ أن مفتاحَ آخرِ تلفونٍ استلمتُهُ منها صباح اليوم هو نفسُ مفتاحِ بلدٍ زرتُمَاهُ في أكتوبر العام الماضي!... كانت أفضَلَ إجازاتِكُما كَما عرفتُ!... أذكرُ حينها أنها قالت لي بأنك دعوتَها لِقضاءِ عيدِ ميلادِها الخامسِ والثلاثين في 14 أغسطس القادم، في نفس المكان!...

نَظَرَتْ نعيمُ لِساعتِها! أرْدَفَتْ:

- آه! بعد أقلّ من أسبوعٍ من الآن! بعد أقلّ من أسبوعٍ من الآن فقط!...

شعرتُ بالدوخة!

كنتُ كمَنْ يُوْلَدُ من جديد!

لم أصغ بعدها لِنعيم وهي تواصل:

- عرفتُ من إلهَام أنها ابتهَجَتْ كثيراً في تلك الإجازة، تفجَّرَتْ يومذاك فرحاً بدعوتك، وَافَقَتْ عليها على التو، طَلَبَتْ منك أن تحتفظَ باسم المدينة: «م...» لكما فقط، لِذكرياتِكما الخاصّة جدّاً، أن لا تُشهِرها لأحد!... إلهامُ، كما تعرفُ وأعرفُ، لا تخونُ الوَعْد!...

ثمَّ أضافت:

- لم تقلْ لي إلهامُ كلمةً واحدةً عن مشاريعِها المستقبلية، أو عمَّا تعزمُ عملَه في الأيَّام القادمة! أفترضُ كلَّ ذلك افتراضاً!...

يا إله السماوات والأرض! 14 أغسطس، عيدُ ميلادها! مدينةُ «م...»، مدينةُ الميعاد! مدينةُ الشهقة!... سنواصلُ حياتَنا

ابتداءً منها! نعم كان وعْداً وإلهامُ لا تنكثُ الوعد!... عليَّ إذن أن أرحلَ في أوَّلِ طائرة! أن أعودَ لِباريس أوَّلاً! أن أرحلَ منها حالاً إلى مدينةِ الميعاد!...

ليس لديَّ متَّسعٌ من الوقت! يلزمُنِي أوَّلاً أن اشتري تذكرةَ العودةِ لِباريس في الحال، أن أطوفَ بعض أحياء صنعاء برفقةِ نعيم، أن أرى في عيْنَيْها الساحرتَين الشوارعَ التي عبرَتْها إلهامُ يوماً ما...

يلزمني بعد ذلك أن أتوجَّه إلى منزلِها، أن أُقبِّلَ باسلَ وإلهامَ الصغيرة، أن أُصافحَ خالد، أن أُعانقَ خالد، أن أتوجَّهَ معهُم نحو جبال ثُلا، أن أشاهدَ عن بُعد القَصرَ الذي وُلِدَتْ فيه إلهام، وأن أبْصُقَ عن قُرْب في وجهِ طائرِ الخراب...

هوامش:

(1) ثُلا: قريةٌ جبليةٌ جميلةٌ قريبةٌ من صنعاء.

(2) 22 مايو 1990: يوم توحيد جنوب وشمال اليمن.

(3) نانومتر: واحد على المليون من المليمتر.

(4) القطب الأول: شبهُ جزيرةٍ تتناثرُ على شواطئها وعند أقدام جبالها البركانية الجرداء أحياءُ بَحريَّةٌ متَّصلة: كِريْتَر، المُعَلَّا، التُّوَاهي... مَوَانٍ مُتنوِّعة: صِيْرة، التُّواهي، كالتكس... سواحلُ خلَّابة: جُولْدْمُوْر، حُقّات، ساحل العُشَّاق، ساحل أَبْيَن... (تلتقي شبهُ الجزيرة ببقيَّة عدَن عبرَ منفذٍ بَرِّيٍّ صغير، أشبهُ بعُنق زجاجة، يُطِلُّ منهُ حيُّ خُورْمَكْسَر).

القطب الثاني: واحةٌ، تصحَّرتْ اليوم كثيراً، تزدحمُ فيها أحياءُ المنصورة، دارسعد، الشيخ عثمان (حيث يقعُ، في أحد أحيائه القديمة، منزلُنا الذي صرتُ، منذ وفاة أبي، أسكُنُهُ وحيداً مع أُمِّي وَجدَّتي)... من هذه الواحة يعرجُ طريقٌ طويل باتجاه شواطىء بعيدة، يقعُ عليها حيُّ البُرَيْقَة، أو «عدَن الصغرى»، في جهةٍ مقابلةٍ لشبه الجزيرة.

بين القطبين طريقٌ طويل، يزيدُ على عشرة كيلومترات، على يسارهِ ويمينهِ مباشرة أحواضٌ بَحْرِيَّةٌ مترامية الأطراف، هي

في الحقيقةِ قلبُ عدن، رئتاها، وجهُها المتميِّزُ، مقبرةُ همومها، ينبوعُ رقَّتِها وسعادتِها المطلقة...

ترتصُّ هذه الأحواض المربَّعةُ الشكل، ذات الزرقةِ السماوية الناصعة، كخانات شطرنج بلُّورِيَّةٍ متلألئة. تبدأُ قرب الشاطئ الشماليّ لِخليج عدن المتاخم لميناء التواهي، وتنتهي على بعد حوالي سبعة كيلومترات، قرب شاطئه الجنوبي: ساحل أبْيَن. تمتلئُ هذه الأحواض بِطبقةٍ خفيفةٍ من مياهِ الشواطئ الشماليَّة. يرتبط كلُّ حوضٍ بجيرانه بواسطة ممرَّات تحتِ أرضية، ينتقلُ عبرها الماءُ، تدفعُهُ مضخَّاتٌ كهربائية (حلَّتْ محلَ طاحونات الهواء العتيدة التي تدورُ مراوحُها بِتأثيرِ الريح، وتُديرُ معها عجلاتٍ تقعُ في أسفلها، وسط الممراتِ تحتِ الأرضية، تدفعُ أثناء دورانها الماءَ من حوضٍ لحوض.)

يتبخَّرُ الماءُ، أثناء دورتِهِ الدمويَّةِ المتواصلة في مسالك وحويصلات هذه الأحواض، يجفُّ بِسُرْعةٍ مرموقة تحت شمسٍ ساطعةٍ مدرارةٍ لا تغيب. يتبلور أكثر فأكثر، قبل أن يتحوَّل في الأحواضِ الجنوبية إلى جليدٍ من ملحٍ نقيٍّ صافٍ يفقعُ النظر...

(5) الجَلِّي: رواقٌ قَذِر خلف منازل أحياء الشيخ عثمان القديمة، تمرُّ فيه مجاري المياه البدائية.

(6) حسن الصباح: أحدُ أرهب وأخطر وأغرب شخصيّات التاريخ الإسلامي! تناولتهُ العديدُ من الدراسات والأعمال الأدبية في الغرب بإسهاب وإثارة. أسَّسَ أوَّلَ منظمَّةٍ سِرِّيَّةٍ للإرهاب في العالم إسمها: «الأساسيين» (أو «الحشَّاشين»، حسب تسميَةٍ أكثر اشتهاراً). أنطلقَتْ هجماتُها الإرهابية من قصرٍ مُحصَّنٍ منيع يستحيل الوصول إليه، فوق جبلٍ خفيٍّ في شمال شرق إيران.

كان «شيخُ الجبل»، حسب تسميتهِ الشهيرة، مذهلَ الشخصيّة،

واسعَ المعرفة، ذا مقدرةٍ قياديّةٍ وتنظيميةٍ نادرة. هزَّت منظَّمتُه لمُدَّة قرنين الإمبراطورية السلجوقية واغتالت عدداً هائلاً من أئمتها ووزرائها وولاتها. (لعلَّ إسمَ منظمة «القاعدة»، وشخصيةَ رئيسها «الشيخ» ابن لادن، وأسلوبَ عملِها مستوحاً تماماً من اسم منظمة حسن الصباح، من شخصيتِه، ومن طرائقِ عملِ منظَمته!).

(7) لعبة اللوتو: لعبة حظ، يشتري اللاعب ورقتها من أي مكتب بيع سجائر. يختار فيها سبعة أو ثمانية أرقام من خمسين رقم. ينتظرُ الاقتراعَ الأسبوعي الذي ينقلهُ التلفزيون مباشرة، والذي ينتهي أمام المشاهدين باختيار سبعة أرقام من الخمسين بطريقة اليانصيب. ينال من لَدَيْهِ نفسُ تلك الأرقام جائزة تقدَّر بملايين الدولارات...

(8) 7 يوليو هو يوم انتهاء حرب 1994 البشعة التي خرَّبتْ اليمن وأعلنتْ عدَن غنيمةً للقبائل المنتصرة. 17 يوليو 1978 هو يوم بداية النظام الذي يحكم اليمن منذ أكثر من 28 سنة حتى الآن.

(9) «مخبازة»: اسم سلسلة من المطاعم الشعبيَّة اليمنيَّة، تتميَّز بالضجيج والضوضاء الدائمة... وبأنواع من الأطباق الخاصة الشهيَّة جداً.

(10) «المُطفَّايَة»: صوصة السمك بِـ«الحُمَر»، على الطريقة العدَنيّة.

(11) «الفُلِّ الْلَحْجِيّ»: الياسمين الزنبقي. ينبتُ أرقى أنواعِه في اليمن في مدينة لَحْج المجاورة لِعدَن. أريجُهُ دافقُ الرائحة بشكلٍ مُتميِّز، يبلغُ أوجَهُ في الأشهر الأكثر سخونةٍ ورطوبة، حيث تتفتَّحُ حبّاتُه ويتضوَّعُ شذاهُ في تلك الأشهر بشكلٍ فاغم. تضعهُ المرأة في اليمن ساعات طويلة بين ثيابها وفي أماكن عدَّة

من جسدِها وشعرِها ، لتتفجَّرَ فيها رائحتُهُ العبقةُ الزكيَّة...

(12) «اللِخَّاج»: مزيج من مظاهر التبلُّد والغباء والوهن...

(13) «القات»: نوعٌ من «العَلَف» يُمارسُ كثيرٌ من أبناء اليمن لَوكَه أو «تخزينَه» لساعات طويلة، في مجالس خاصة، أو عامة تسمّى «اللوكندات»!

(14) «بيضونة العِجل»: Blanquette de Veau، كتف عِجل بالخضروات والكريمة.

(15) «المزينة»: هي المرأة التي تذهب مع العروس إلى بيت زوجها، تنتظر أمام الباب حتى يتم تسليمها قطعة قماش (خِرْقة) تعود بها لأهل العروس ويتم بعدها احتفال الخِرْقه...

(16) «المحراس»: هو غرفة واحدة وسط مزارع القات خاصة، يتم فيها الحراسة، ليل نهار، يتناوب الحراس طوال اليوم، ويتم إيصال الطعام إليهم وفي الوقت المحدد...

(17) «غواث»: هي الوجبة التي يتم تناولها وقت الضحى بين وجبتي الفطور (التي يتناولها أهل القرى باكرا) والغداء.

(18) «استراحات القات» تبدأ استراحات مجالس قات هذه الأيام بوقف الحديث عند بدء تكبيرة أذان المسجد! ثمَّ بصق كومة القات الرخوة المطحونة بين الأضراس منذ ساعات داخل كيس صغير، لحفظها أثناء أداء صلاة الجماعة مع بقيّة روّاد المجلس، قبل استخراج تلك الكتلة الرخوة (التي تمَّ تقيؤها قبل الصلاة) من الكيس وإعادة غرزها في أقصى أحد الفكّين من جديد!... طقسٌ غيرُ رفيع الذوق كثيراً يلزمُ الاعتراف! حركةٌ لا تفتحُ النفس، لا تثير الشهوة!...

(19) يُطلق ذلك على الضبع أو ابن آوى، أو أي حيوان مفترس أحياناً.

كلمة شكر

لِـ«مؤسسة العفيف الثقافية» بكلِّ طاقمها الرائع كلَّ الشكر علَى الاهتمام الكامل بإعداد وإخراج ونشر وتوزيع هذه الرواية.

لِلقسم الثقافي في صحيفة «الثوري» الغراء خالص الشكر على نشر الرواية بحلقات في الصفحات الثقافية. أخص بالشكر الأساتذة الأعزاء خالد سلمان، عزَّت مصطفى وعلى دُهيس...

للأصدقاء الأعزاء:

احمد جابر عفيف، عبدالباري طاهر، عبداللطيف الإدريسي، نادية الكوكباني، الطاف عبدالرب سروري، زايدة شبام، عبدالرحمن عبدالخالق، علي محمد زيد، محمد الصيّادي، أحمد فرج باشميلة... كلَّ العرفان والشكر لِقراءتهم المتأنية لهذه الرواية، لِنقاشِهم المنير، ولِكلِّ تصحيحاتِهم وملاحظاتهم الرائعة...

حبيب عبد الرب سروري

http://abdulrab.free.fr

- من مواليد أغسطس 1956 بِعَدَنْ؛
- بروفيسور منذ 1992 يقوم بتدريس علوم الكمبيوتر في قسم الهندسة الرياضيّة في المعهد القومي للعلوم التطبيقية، وجامعة روان، بفرنسا؛
- نُشِرتْ له العديد من الأبحاث والكتب العلمية بالفرنسية والانجليزية، ورواية بالفرنسية: «الملكة المغدورة» (دار الارماتان) ترجمها إلى العربية الاستاذ د. علي محمد زيد (دار المهاجر)؛
- نُشِرتْ له عن مؤسسة العفيف الثقافية مجموعةٌ قصصيّة: «همساتٌ حرّى من مملكةِ الموتي»، ديوانُ شعر: «شيئٌ ما يُشبِه الحب»، ثلاثية روائية: «دملان»، وكتابٌ يضمُّ مجموعة مقالات ودراسات: «عن اليمن، ما ظهرَ منها وما بطَن».

يمكن قراءة وشحن جميع هذه الأعمال الأدبية من الموقع الأدبي للمؤَلِّف على الأنترنت: http://abdulrab.free.fr